

الطبعة الرابعة

د. عبد الرحيم العطري

الرحامنة

القبيلة بين المخزن و الزاوية



منشورات دفاتر العلوم الإنسانية

د. عبد الرحيم العطري

الرحامنة

القبيلة بين المخزن والزاوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: **الرهامنة: القبيلة بين الحزن و الراوية**

المؤلف: الدكتور عبد الرحيم العطري

الناشر: دفاتر العلوم الإنسانية

سلسلة: أبحاث و دراسات، رقم 1

المطبعة: طوب بريس، الرباط

الطبعة: الرابعة

السنة: فبراير 2013

الإيداع القانوني: 2012MO0937

ردمك: 8-901-300-9954-978

إهداء

إلى حماتي وأمي الثانية
المرحومة للا فاطمة الشافي
إليك أهدي هذا البحث المتواضع
ذكرى لقاءات وأسفار بهية
كنا، معا، نهجر الجميع، وننتصر معا لنوساتجليا الفقد والانتفاء
أتعلم منك تاريخ الإنسان والمجال
وأختبر معك مدارات الزمن
واحتمالات الهوية والانسراح
بعيدا . . . بعيدا . . . برفقة الألق والشموخ
إليك هذه الحروف حبا والتبعا
سائلا العلي القدير أن يتعمدك بواسع الرحمة والمغفرة

ابنك البار: عبد الرحيم

المحتويات

7	تمهيد
11	الفصل الأول: "فرضية" الجد المشترك: بحثا عن البدء والامتداد
12	أولا: البدء والامتداد:
16	ثانيا: التركيب والامتزاج:
21	الفصل الثاني: من الصحراء إلى الحوز الرحلة الكبرى
21	أولا: الرحلة الكبرى:
24	ثانيا: من سوس إلى الحوز:
29	ثالثا: دينامية المجال:
35	الفصل الثالث: من الخيمة إلى النواة: جد الترحال والاستقرار
36	أولا: ثقافة الترحال:
39	ثانيا: ظهور "العزيب":
41	ثالثا: السيادة العقارية:
45	الفصل الرابع: المجال والإنسان: التملك وإعادة البناء
46	أولا: الظروف الطبيعية:
48	ثانيا: إعادة بناء المجال:
61	الفصل الخامس: الرحامنة والمخزن: حالة المد والجزر
61	أولا: سجل القبيلة:
66	ثانيا: التمرد القبلي:
67	ثالثا: انتفاضة بن الطاهر:
71	رابعا: قضية السخط:
73	خامسا: البادية والمدينة:

76	سادسا: الرحامة والسراغة:
79	سابعا: بلاغة العيطة:
81	الفصل السادس: القائد العيادي: مسارات القاندية
81	أولا: ميلاد قائد:
85	ثانيا: تجذير القاندية:
91	الفصل السابع: ثقل الزاوية: الاجتماع بالمقدس:
93	أولا: التعاقدات والتضامات:
102	ثانيا: الحضور الزاويتي:
105	أولا: زاوية الشراي:
111	ثانيا: زاوية متصلوحت:
117	محاولة في التركيب: من القبيلة إلى القبلية
117	أولا: إحياء القبيلة:
120	ثانيا: الحضور والغياب:
122	ثالثا: منطق التوليف:
127	ثبت المصادر والمراجع

تمهيد

سجلت الرحامنة، منذ القرن التاسع عشر على الأقل، حضوراً قوياً في عدد من الاتجاهات والوقائع، وهو حضور لاح في كتابات الإخباريين والمؤرخين، كما تأكد أيضاً في مستوى الالتباس الذي يرافق التعاظم مع هذه القبيلة، فحينما يتم "الحكم" عليها بأنها من قبائل السبية، وحينما آخر يتم توصيفها بأنها من قبائل الكيش، فيما يلح آخرون على أنها لم تكن إلا من قبائل النابية.

يتوجب النظر إذاً إلى علاقة الرحامنة بالمخزن والزواية، في سياق عام من التحولات التي عرفها مغرب القرن التاسع عشر، حيث الأطماع الخارجية تتواتر والأزمات التدبيرية في مستوى السلطة المخزنية لا تتكاد تنعدم إلا لتنطلق شراراتها من جديد، اتصالاً بموت سلطان وعُسر استخلاف، فضلاً عن القحوط والجوائح المتوالية. لهذا يتوجب الرجوع إلى القبيلة في علاقاتها الممكنة مع المخزن لتجاوز هذا الالتباس، ثم مع الزواية لاكتشاف حدود وامتداد المقدس في صناعة النخبة المحلية وتجسير العلاقات مع المخزن أيضاً، فالزواية، أية زواية، لا تمنع نفسها من التحالف أو التعارض مع السلطة المخزنية، تبعاً للغة المصالح والتوازنات.

إن حضور الرحامنة اليوم في مغرب متحول، يظل محكوماً بتاريخ من الأداء السياسي والاجتماعي، كما أنه مرتبط بتاريخ القبيلة وعلاقاتها مع المخزن والزوايا وباقي القبائل الأخرى، وأساساً بعلاقتها بالمجال/ الأرض الذي يعد شريطاً مؤسسا للانتماء والمشاركة، فالمجال الرحامي هو مجال مكتسب حديثاً، مقارنة مع وضعية القبائل المجاورة على الأقل. ذلك أن المجال في حركيته وتاريخيته يعد مدخلاً لقراءة الفعل الاجتماعي، فليس هناك من مجال محايد أو جامد، ثم تفاعلات وتأثيرات متواصلة تتكاد تنسحب على مجموع النسق، خصوصاً عندما يصون هذا المجال من الناحية الجغرافية مفتوحاً على التعدد والتركيب، أو موضع رهانات وصراعات وتنافس مستمرة بين السلطة المخزنية والقبائل المجاورة.

وعليه، وإذا كانت القراءة تتحدد بمساعها المعرفي، وتتوسل في اشتغالها بمقاربات محددة، فإن القراءة التاريخية و السوسيولوجية التي نروم إنجازها في مستوى قبيلة الرحامنة، تسعى إلى قراءة العلاقات والتراتبات الاجتماعية التي تفسر ثلاثية "القبيلة، المخزن، الزواية"، والتي يعد تدبير المجال وامتلاكه ركناً أساسياً في إنتاجها. وبما أن كل تخصص علمي يتوزعه باستمرار قلق إعادة موضوع البحث إلى مجاله الطبيعي

والتاريخي¹، فإن هذه المساهمة المتواضعة تندرج بالضبط في إطار محاولة لإعادة "قراءة" القبيلة في علاقاتها و"جواراتها"، أملا في تجاوز منطق "التضخم السياسي" الذي تجابه به في كل حين.

يتعين في البدء أن نبحث في تاريخ الرحامنة، في محاولة لاكتشاف الإنسان والمجال، وتحديد الأسس الرمزية والمادية لبناء القبيلة وإعادة إنتاجها، فقراءة تاريخ المجال ليست مجرد ضرورة منهجية تستوجبها المقاربة المونوغرافية، وإنما هي فعل مؤسس لقراءات أخرى لشكل وجوهر العلاقات الاجتماعية والبنيات السوسيوسياسية التي أنتجها الانتماء المشترك لهذا المجال. فالمسعى المعرفي، في مستوى أول، يتوزع على أربعة فصول تأسس البدء والامتداد، والمجال والإنسان في علاقاته الداخلية والخارجية، وبالطبع فهذا المسعى لن يكتمل بدون الرجوع إلى أخبار النساين والمؤرخين والجغرافيين، "فعل كل سوسيولوجيا أن تكون تاريخية، وعلى كل تاريخ أن يكون سوسيولوجيا"². ففي التاريخ الاجتماعي للمجال يمكن تلمس بعض أو كل من ديناميات النسق.

لهذا نعتبر أن التفكير في المجال كفضاء لكتابة العلاقات والتراتبات، لن يكون ممكنا إلا بالاشتغال عليه في صيغة ترابط وتقاطع مع باقي مكوناته المجتمعية، وهو ما سيجعل منه تيمة مرافقة لنا، وفق جدل حضور وغياب على طول اشتغالنا على الرحامنة بين القبيلة والمخزن والزوايا.

إن الحركية المجالية للرحامنة ستؤثر حتما في تشكيلات القبيلة بالانتقال من مستوى الانغلاق إلى معطى الانفتاح والاستقبال المستمر لمكونات قبلية أخرى، تنتمي إلى سجلات ومجالات ثقافية أخرى بعيدة وقريبة، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن حضور المكون الأمازيغي والمهلاقي في عشاير الرحامنة، خصوصا وأن هذه الحركية تتم في مجال "عموري" يعرف حركيات وتفاعلات مستمرة بين القبائل والزوايا والمخزن.

كما أن الانتقال من واقع الترحال إلى معطى الاستقرار، لا بد وأن يفرز وقائع اجتماعية وسياسية جديدة، فتمتد بنيات وعلاقات تتأسس على ضوء هذا الانتقال، وهي ذات البنيات والعلاقات التي تتجاوز أنماط العيش إلى مستوى بناء وتصريف السلطة، عبر تجذير الزعامات المحلية وتحديد التراتبات الضرورية لذلك.

إن تملك المجال، أو السعي إلى تملكه، ضمن شروط تاريخية متفاعلة مع سياقاتها، هو تجذير لواقع من التراتبات الاجتماعية، كما أنه إعادة بناء لأنظمة مادية ورمزية تؤسس للعلاقات

¹ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, CURS, INAV, Rabat et CNRS, Paris, 1977. p.16.

² Pierre Bourdieu, Réponses. Pour une anthropologie réflexive, Editions Seuil, Paris 1992 p.67.

والتصورات والممارسات الممكنة بصدد العينية والتلقي الاجتماعي، فكل تملك ممكن للمجال إلا وينتج انبثاء لمنظومات رمزية تتجذر تاريخيا، وأخرى مادية تنكشف في النبالة العقارية التي تقود نهاية إلى إحداث تمايزات قوية بين من يملك ومن لا يملك.

لكن كيف تم استنزال هذه الحركية القبلية والمجالية في علاقة دالة ومؤثرة مع "ثلاثية" القبيلة والمخزن والزاوية؟ وكيف جرى تععيد القائدية المحلية المثلثة في القائد العيادي؟ ولماذا انطبعت العلاقة بين القبيلة والمخزن بنوع من التوتر في أحايين معينة؟ ذلكم ما سنحاول الإجابة عنه بمقدار لا يدعي الكمال أو الاكتمال، في مظان هذا العمل، الذي نريده نافذة نطل من خلالها على قبيلة الرحامنة.

إن استدعاء هذه الثلاثية "القبيلة، المخزن، الزاوية" له ما يبرره عمليا وموضوعيا، ففهم الكثير من الديناميات والأساسيات التي تحدد ملامح المجتمع المغربي، يظل محدودا بدون تتبع هذه المكونات، كما أن التصكّن، أو على الأقل، الاقتراب من تطورات المغرب الراهن يكون متعذرا أحيانا بدون الرجوع إلى مغرب القرن التاسع عشر، الذي كانت ثلاثية "القبيلة والمخزن والزاوية" مساهمة إلى حد كبير في تدبيره وإنتاجه وإعادة إنتاجه.

فالعودة إلى التاريخ، لتتبع وقراءة اشتغال النسق القبلي الرحماني، لن يكون مسكونا بهاجس تاريخي يبحث عن شواهد معينة لتبرير وقائع أخرى، بل إنه عمل يراد منه استدعاء المسار القبلي في تفاعل مع مؤسسات أخرى كان لها الدور البارز في صياغة العلاقات الداخلية والخارجية لذات النسق.

والله ولي التوفيق والسداد.

سلا، 21 مارس 2012

الفصل الأول:

"فرضية" الجد المشترك بحثا عن البدء والامتداد

كان المغرب مثار نقاش العديد من الطروحات النظرية، التي توزعت ما بين الحداثوية والماركسية والانقسامية، فضلا عن اجتهادات المعرفة الكولونيالية التي توجهت إلى المجتمع المغربي بالدرس والتحليل، منتجة بذلك لكثير من الأعمال التي همت البنيات والظواهر والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية والسياسية.

وبغض النظر عن الخلفية السياسية والعسكرية للأطروحة الكولونيالية³، فإن ما أُنشج في الفترة الاستعمارية، يظل على قدر كبير من الأهمية، اعتبارا لسعة المنجز وقوته التداولية⁴ وتغطيته

³ فقد تعددت المواقف من السوسيولوجيا الكولونيالية إلى الدرجة التي بات متعذرا الحسم في عددها. ولعل هذا ما يدفع إلى التأكيد غير ما مرة، على أن القول بسكون السوسيولوجيا الكولونيالية هي سوسيولوجيا استعمارية غير بريئة، هو مجرد تحصيل حاصل، ما دامت هذه المعرفة قد أنتجت في سياق استعماري وبدعم من مؤسسات الاستعمار. وبالطبع لم يفت بول باسكون أن يبينه إلى أن الدراسات الإثنوغرافية التي انطلقت في المغرب في بداية القرن، كانت تؤسس للغزو العسكري وتمهد له، فقد كشف النقاب عن تقرير سري كتبه إدموند دوفي سنة 1901، يقدم فيه "نصائح" للإدارة الاستعمارية عن أنجع السبل لتحقيق اختراق عسكري بأقل الخسائر الممكنة. وعليه فلن نجتهد، في هذا المستوى، في البحث عن براءة أو براءة العلم الاستعماري، اقتناعا منا بأن هذه الإشكالية أشبعت درسا من قبل مختلف الباحثين، وصارت "موضة منهجية" لا تقود إلى شيء مهم، فزوال البراءة أو اللا براءة لا يلغي بالمرّة أهمية هذا المتن وضرورته لإنجاز أي تفكير سوسيولوجي حول المغرب.

⁴ ما نقصده بالقوة التداولية هو القدرة على النشر، وهو ما يبدو نصا غائبا في السوسيولوجيا الوطنية، حيث الكثير من الأعمال تظل سجينة الرفوف، وحيث يعز إلى حد الآن وجود مجلة متخصصة في علم الاجتماع، تستجمع بين دفتيها اجتهادات المثمنين إلى هذا العلم مغربيا، فخلافا لذلك كله، فإن المعرفة الكولونيالية كانت تتوفر على العديد من آليات التداول المهمة، فلم يكن النشر عائقا بالمرّة، يكفي أن نذكر هنا العديد من المنشورات المتخصصة التي كانت تصدر بانتظام، وبرعاية تامة من الميثروبول الاستعماري، فقد صدرت في هذه الفترة: الأرشيفات المغربية، الأرشيفات البربرية، مجلة العالم الإسلامي، سدن وقبائل المغرب، هسبيس...و للاطلاع على جانب مهم من هذه المتن يرجى الرجوع إلى:

M'hamed Jadda, Bibliographie analytique des publications de l'Institut des hautes études Marocaines, Éditions FLSH Rabat, série Thèse et mémoires N.26.1994.

المجالية أيضا. لقد اهتمت المعرفة الكولونيالية بالقبيلة والمخزن والزاوية كمؤسسات مركزية في تدمير النسق المغربي، إلا أن هذا الاهتمام المركزي لم يعفها من الانتباه إلى المجتمع في سائر أحواله وتفاعلاته وبنياته، وبذلك سوف نجد أنها تشغل على فئات الفلاحين والنساء والشباب والهجرة والمؤسسات الدينية والسحريات...

فلا بد من الرجوع إلى هذا المتن لاكتشاف "رؤية" الآخر لتفاصيل "النحن"، للاستفادة والبناء والتجاوز. ولعل أول حضور "علمي" للرحامنة في السجل الكولونيالي، يمتد إلى العمل المرجعي الموسوم بـ "مراكش" لإدموند دوتي⁵، ذلك أن كتابي "المغرب المجهول" لمولييراس⁶ و"استكشاف المغرب" لشارل دو فوكو⁷، لم يرد فيهما ذكر القبيلة بنوع من التفصيل أو الاختزال، تماما كما هو الأمر بالنسبة للبيبلوغرافية النقدية التي أنجزها أندريه آدم⁸، والتي لم تصادف أي دراسة انشغلت بالرحامنة، اللهم إلا ذلك الحضور الدال و"الغرائبي" في كتاب دوتي.

ففي عمل دوتي الصادر سنة 1905، لاحظت قبيلة الرحامنة كموضوع أساس امتد على صفحات عدة من هذا العمل، خصصت لتسجيل معطيات الرحلة إلى مراكش مروراً بالمجال الرحماني وإن كانت قراءة دوتي للمجال الرحماني تنطوي على كثير من "ثقل الغرائبي" و"العلمي واللا علمي" و"المنطق الاستعماري" أحيانا، فإن ذلك كله لا يلغي الحاجة إليها كمتن إثنوغرافي مفصلي.

أولا: البدء والامتداد:

فمن هم الرحامنة؟ ومن أين أتوا؟ وما مسارات حياتهم القبلية؟ وهل من مبرر أصلا للتساؤل عن البدء الجينيولوجي للقبيلة؟ وماذا عن "فرضية" الجدل المشترك؟

تشير أخبار النسابين في كثير من المصادر إلى أن تسمية الرحامنة تنفيد "أولاد عبد الرحمان"⁹ أو "أولاد رحمون" بن رزق بن أودي بن حسان¹⁰، وهي تسمية كانت تدل عليهم قبل وفودهم إلى المغرب

⁵ Edmode Doutte, Marrakech, Pub du comité du Maroc, paris.1905.

⁶ أوجيست مولييراس، المغرب المجهول، الجزء الأول: اكتشاف الريف، ترجمة: عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز، 2007.

⁷ شارل دو فوكو، التعرف على المغرب (1883-1884)، ترجمة: المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.

⁸ André Adam, Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie et de géographies humaines au Maroc, CNRS/SNED.1972.

⁹ Paul Pascon, le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit.p.186.

¹⁰ الهادي المبروك الدالي، قبائل البرابيش، سلسلة من تاريخ القبائل الإفريقية، رقم 1، مكتبة طرابلس العلمية والعالمية، طرابلس، الطبعة الأولى، 2004، ص. 13.

من اليمن، مروراً عبر الصحراء، التي ما زالت آثارهم دالة على مرورهم منها واستقرارهم بها أيضاً، فإسم الرحامنة ليس حكراً على المغرب فقط، ذلك أن هناك قبائل أخرى تحمل نفس التسمية بشكل من الجنوب المصري والجنوب الليبي والشرق الموريتاني¹¹.

وبالرغم من دلالة التسمية على الانحدار المباشر من جد مشترك، فإن تركيبة وتاريخية القبيلة لا تعضد كثيراً "فرضية الجذ الملتزم"، فهذه الفرضية تظل الأقل حضوراً في تفسير وتحديد أصول القبيلة، وذلك بالنظر إلى الامتزجات والحركات التي عرفت الرحامنة في الزمان والمكان.

وهذا ما يؤكد عليه ابن خلدون في تعريفه للقبيلة، فهو يرى بأنها "لا تتحدد بكونها جماعة متحددة أو متفرعة عن جد أول، ولا تتحدد فقط بما قد يجمع بين أعضائها من روابط الدم"¹²، وإنما تتحدد أيضاً بعناصر أخرى من قبيل التحالف والولاء والانتماء... والتي تحدد الإطار الحقيقي للقبيلة"¹³، كما أنها تتحدد بسعوطيات تاريخية ومجالية تبرز تفاعلاتها وتلاقحاتها. فالقبيلة، أية قبيلة، لم تكن بنية جامدة منغلقة، إنها في حركية تفاعل مستمر مع باقي القبائل الأخرى، خصوصاً عندما تؤسس امتدادها على جدل الاستقرار والترحال، وتسم علاقاتها بالسلطة أو القبائل علاقات من التوتر والاختلال.

إن القبيلة عند روبرت مونطاني "لا تتحدد بانتسابها لجد مشترك بقدر ما تتحدد بوحدة الإسم والتراب والعيش وفق نفس التقاليد والأعراف، أو بما قد يجمع بين فرقائها من عدا للقبيلة المجاورة"¹⁴، فالأمر يتعلق بكيان بشري توحيده مجموعة من المشتركات التي لا تتوقف بالضرورة عند مسألة النسب.

إن قبيلة الرحامنة وفقاً لهذا الفهم والتوصيف تشكل مزيجاً من العناصر يصعب فهم وتفسير مكوناتها ببعض أجزائها، وتبرهن على أن تكوينها نتج عن حركية اجتماعية بسبب التطورات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كالهجرات والحروب والترحال"¹⁵، الشيء الذي يجعل من فرضية الجذ المشترك على الأقل

¹¹ مجموعة من الباحثين، قبائل الصحراء الكبرى، منشورات الرابطة العربية الشعبية لقبائل الصحراء الكبرى، بنغازي، الطبعة الأولى، 2010.

¹² المختار المراس، القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي، الرباط، الطبعة الأولى، 1988، ص. 13.

¹³ يقول ابن خلدون في هذا الصدد "اعلم أنه من البين أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء".

أنظر: بن خلدون، المقدمة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، مرجع سابق، ص. 103.

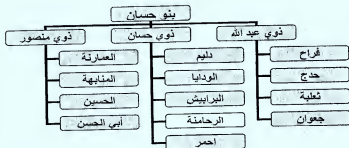
¹⁴ Robert Montagne, Les berbères et le Makhzen dans le sud Marocain. Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires (groupe chleuh). Edition Felix Alcan. Paris. 1930, p. 159.

¹⁵ عمر الإبركي، الظاهرة القاعدية: القائد العبادي الرحماني نموذجاً، دار بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى، 2000، ص. 111.

بحوز مراكش، وبالطبع فهذا الانتقال من موطن لآخر، مع ما رافقه من هجرات وحروب وتضامانات وتناقضات، سيجعل من القبيلة مزيجاً من الأصول والانتماءات القبلية، وهي واقعة لا تعضد فرضية الجد المشترك وإنما تدعو إلى اعتماد تحديدات مقاهيمية أخرى للقبيلة في علاقتها بالمجال والإنسان.

تعد القبائل المعقلية إلى جانب بني هلال وبني سليم من أشهر القبائل العربية¹⁹ التي وفدت إلى المغرب في القرنين الخامس والسابع للهجرة (الحادي عشر والثالث عشر للميلاد)²⁰، وتفيد كثير من المعطيات أن قبيلة بني معقل تنحدر من عرب اليمن، وأن جدهم هو ربيعة بن كعب بن الحارث²¹.

رسم بياني رقم 3: بطون بني حسان



المصدر: المعلومات الواردة في الرسم مستقاة من كتب ابن خلدون والحسن الوزان

¹⁹ خلال القرن الحادي عشر الميلادي بدأت تصل إلى المغرب قبائل بني هلال وبني سليم والذين جعل يعقوب المنصور الموحد من بعضهم "جيشاً" وأسكنهم في الغرب والشاوية ودكالة التي كانت قد أفرغت من سكانها الأصليين نتيجة الحروب البورغوازية، أما قبائل بني معقل فقد بدأت تصل إلى المغرب بدءاً من القرن الثالث عشر وإلى حدود القرن الخامس عشر الميلادي.

أنظر: عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1968، ص. 415.

²⁰ عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009، ص. 257.

²¹ من بني الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج بن أد بن زيد بن كهلان من قحطان من اليمن. ويؤكد ابن خلدون أنهم من آل البيت من "بني جعفر الطيار وجدهم معقل بن موسى الهراج بن محمد بن جعفر الأمير بن إبراهيم الأعرابي بن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب. ويتوزع بنو معقل على ثلاثة بطون رئيسية وهي: ذوي عبيد الله (عبد الله بن صغير بن معقل) وذوي منصور (منصور بن محمد بن معقل وذوي حسان) فضلاً عن بني حسان (حسان بن مختار بن محمد بن معقل)".

أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الأول، مرجع سابق، ص. 167.

يشير الحسن الوزان إلى أن لمعلل فروع ثلاثة وهي "مختار وعثمان وحسان، وتشتمل مختار على روحة وسليم، وعثمان على حاسن وكثانة، وحسان على ذوي حسان وذوي عبد الله وذوي منصور"²²، ويضيف قائلاً بأن ذوي حسان الذين يتحدرو منهم الرحامنة، ويتوزعون على دليم والودايا والبرابيش واهمر والرحامنة، فيما يتوزع ذوو عبد الله على خراج وحدج وتعلية وجعوان، فيما يتحدرو من ذوي منصور كل من العمارنة والمنابهة وأولاد حسين وأولاد أبي الحسن²³.

ثانياً: التركيب والامتزاج:

إن قبيلة الرحامنة وبسبب واقعة الترحال والاستقرار، الذي لم يحدث وبشكل نهائي، بحوز مراكش، إلا في بداية القرن السادس عشر، سوف تغدو مكونة من عدد من العشائر ذات الانتماء والأصول المتعددة، التي يتجاور فيها المكون العربي والأمازيغي والإفريقي، وعليه تشير المصادر إلى أن الرحامنة كانوا في بداية القرن التاسع عشر "موزعين إلى خمسة أخماس"²⁴، كان البرابيش يشكلون خمسا وأولاد سلامة خمسين ثم أولاد بوبكر خمسين²⁵. لكن وبالنظر إلى ما عرفته القبيلة من أحداث، وما عرفته علاقاتها الداخلية والخارجية من مد وجزر في اتجاه المخزن والقبائل المجاورة، فإن هذا التقسيم لم يكن ولم يعد معبراً عن مختلف التشكيلات التي تتكون منها، "فالقبيلة لم تكن في وقت من الأوقات بنية جامدة أو مغلقة، بل كانت تستقبل باستمرار كل قادم جديد قبل أن يربط مصيره بمصيرها"²⁶.

ومن أهم العشائر التي تتشكل منها قبيلة الرحامنة نجد كلا من: أولاد سلامة، أولاد بوبكر، سلام، البرابيش، اللواتة والحشاشدة، وهي تتوزع بدورها على: الحشاشدة، الحشاشدة البورية، اللواتة البورية، اللواتة الحوزية، سلام العرب، سلام الغرابية، يسكرت الغرابية، عزيز المرابطين، العطاية،

²² الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983. ص. 49.

²³ الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق، ص. 49.

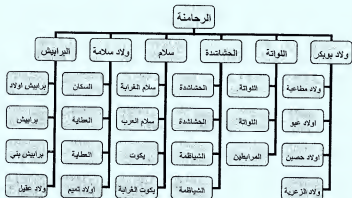
²⁴ علماً أن هذا التقسيم ليس إلا تقسيماً ظاهرياً فرضه المخزن من أجل تيسير جمع الضرائب، حيث يتم تقسيم القبائل إلى أثلاث وأرباع وأخماس من أجل ضبط عملية جمع الضرائب وباقي الكلف المخزنية التي تقع على القبائل، لكن وبالرغم من صيغته الجبائية، فإنه يعبر عن واقع التقسيم العشائري للقبيلة.

²⁵ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن: 1850-1900، بابل للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1997. ص. 108.

²⁶ محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين 1792-1822، مرجع سابق، ص. 23.

العطاية الحوزية، برايش²⁷ بني حسن، برايش الجعافرة²⁸، برايش أولاد عبد الله، الشياظمة، الشياظمة الحوزية، أولاد عقيل، أولاد الزعرية، زاوية بن ساسي، أولاد عبو، أولاد حصين، أولاد مطاعية، أولاد تميم، السكان.

رسم بياني رقم 4: عشائر قبيلة الرحامنة



المصدر: المعلومات الواردة في الرسم البياني مستقاة من كتب بول باسكون والصدقي والإبوري

فالملاحظ أن القبيلة وفقا لهذا التوزيع تبدو متعددة الانتماءات والانحدارات، بسبب ما عرفته من ترحال واستقرار، أفضيا إلى جعلها قبيلة مزيجية مكونة من عشائر مختلفة الجذور التاريخية، فضلا عن المكون العربي المميز لقبيلة الرحامنة يوجد المكون الأمازيغي والمغاربي²⁹ والإفريقي، وكذا الانتماءات القبلية المجاورة لمجال الرحامنة،

²⁷ البراييش قبيلة عربية تسيطر على شمال غرب مالي وتتكون من كونفدرالية كبيرة تنضوي تحت لوائها مجموعة كبيرة من البطون ويعد بول مارتي قبائل البراييش سبعة وخمسين قبيلة كلها تسمى البراييش. أنظر: محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، المجلد الأول (الجزء الثاني)، دار الفكر العربي، مدينة نصر، الطبعة الثانية، 1998، ص. 94 و 96.

²⁸ تشير المصادر إلى الجعافرة قبيلة عربية تنسب إلى جعفر بن أبي طالب الملقب بجعفر الطيار، وتوجد فروع لها ببورنيانيا وشمال النيجر ومنطقة الجبل الغربي بليبيا. أنظر:

محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، المجلد الأول (الجزء الثاني)، نفس المرجع السابق، ص. 119.

²⁹ يقول جاك بيرك بأن "الثلثة مثلا الذين كانوا يلبسوا خلال العصر الوسيط، لا زالت مجموعتان منهم تحملان هذا الاسم بجوار بن جرير بالمغرب، ومن أهم قبائل الثلثة هناك سدراتة ومزينة ووجدانة ومغاغة وعزوزة" أنظر: Jacques Berque, Maghreb: Histoire et société, SNED, Alger. 1974. p. 23.

القبائل التي أشار إدموند دوتي³¹ في كتابه "مراكش" إلى أن نساءها ما زلن يلبسن ملابس زرقاء قسمى "الحنث"³²، وهي عشائر حديثة الالتحاق بالمجال الرحماني، علما بأن المراسلات المخزنية كانت تخاطبهم في كثير من الأحيان بـ "أعراب الرحامنة"³⁴. في حين تدل التشكيلة الثانية المعروفة بـ "اعريب" على المجموعات العقلية المتحددة أساسا من الجنوب الشرقي من ضفاف وادي درعة³⁵.

أما المكون الأخير الموسوم بـ "الغراة" فيحيل توصيفه على معنيين تبعاً لما يذكره الإخباريون والنسابون، فهو من جهة يدل على "العشائر التي تغربت إلى شمال مراكش"³⁶، وهي أقدم العشائر التي تركت مجال الصحراء والتحقّت بحوز مراكش، فيما يشير المعنى الثاني إلى العشائر الغربية عن الأصل الرحماني والتي اندمجت في إطار القبيلة بسبب عوامل التحالف والجوار، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن نزوح الشياطة وبني حسن وزعير، فضلا عن القبائل المجاورة كاحمر وعبد وذكالة والسرّاغة وزمران.

³¹ Edmode Doute, Marrakech, op.cit p.284.

³² تجدر الإشارة إلى أنه خلال المراحل الأخيرة من إنجاز هذا العمل صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب: إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية وذكالة والرحامنة (سني 1901-1902)، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، مطبعة أنفو، فاس، الطبعة الأولى، 2011.

³³ يقول إدموند دوتي بأن "نساء الرحامنة يلبسن المتصورة والحنث وخصوصا المتحدرات منهن من الركيات وسيدي ناجي وأولاد مولاي عمر وسلام (ولاد سلامة) وعريب (ولاد بويكس)"، والحنث هو اللباس الذي ترتديه المرأة الصحراوية في الأقاليم الجنوبية، والملاحظ أن مناطق بكنوت والبرايش بالرحامنة ما زال بعض نسائها يحافظن على عادة ارتداء الحنث ولو بشكل موسمي ومناسباتي.

³⁴ أنظر الرسالة العربية التالية التي تخاطبهم بأعراب الرحامنة: "خدّامنا الأعيان من أعراب الرحامنة، وعرفائهم وأهل الرأي والصلاح منهم، وأعيان شوارهم وقصورهم جميعا، سلام الله عليكم، ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فقد وصلنا خديمتنا الأرضي القائد عبد الحميد بن القاطمي الرحماني واشتكي أن الفتان مبارك بن الطاهر بن سليمان الرحماني، قاتله الله، ينشر الفتنة بين العباد. وحيث كنتم من جملة الخدام النصحاء الصلحاء الذين يعتد بهم في المهمات، فنأمركم أن تجمعوا شملكم وكلمتكم كافة، وتواجهوا الفتان الملعون، بقصد رتق ما وقع من الحرق هناك، وبارك الله فيكم وأرشدكم وأصلحكم والسلام. في 16 صفر الخير 1314 وفوقه الطابع العزيزي الكبير". من وثائق المدرسة العيادية بين جرير (مجموعة مراسلات).

³⁵ يقول جورج سبيلمان بأن اعريب هم من عرب بني احسن العقلين، وهم رحل بالأساس يملكون قطعانا كثيرة من الإبل وجمالون مشهورون، كلوا يجهون قديما الصحراء الغربية من تمبوكتو إلى درعة

أنظر: جورج سبيلمان، آيت عطا الصحراء وتهدة أفلا-ن-درا، ترجمة وتعليق: محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007، ص.81.

³⁶ عمر الإيوري، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجا، أطروحة ليل الدكتوراه في علم الاجتماع، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية: 2006/2007، غير منشورة، ص.150.

وبالطبع فهذا التركيب العشائري الذي يصبم قبيلة الرحامنة يجد تفسيره في علاقة الإنسان بالمكان، فالاستقرار يحوز مراكش هو فعل حديث نسبياً، وهو ما يجعل من الانفتاح بدل الانغلاق آلية متجددة في تاريخ القبيلة، لكن كيف حدث هذا الاستقرار؟ وكيف وصل الرحامنة إلى الحوز وصاروا "قلبه وقيته" حسب ما وصفهم به المولى سليمان³⁷ في إحدى مراسلاته؟

³⁷ فقد خاطبهم المولى سليمان في رسالة بتاريخ شوال 1235 بقوله: "... لما ولاني الله نوهت بكم، وعملتكم بسوس ودرعة، ووليتكم مراكش، وخيرتكم على جميع القبائل، وجعلت الزوين على جميع أهل الحوز، وجعلته وزيرا ومشيرا... أنتم قبة الحوز وقلبه... فما عندي أعز منكم...".
أنظر: عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن: 1850-1900، مرجع سابق، ص 108.

الفصل الثاني:

من الصحراء إلى الحوز الرحلة الكبرى

نقرأ في الرحلة الكبرى للرحامنة من شبه الجزيرة العربية إلى المغرب العديد من اللحظات التاريخية التي حسنت الحال والمآل، فالقبيلة عرفت ثلاث محطات أساسية في تاريخ ترحالها واستقرارها، الأولى بالصحراء حيث مارست حياة الانتجاع والتجارة، واستدجعت في بنيتها وثقافتها حياة الصحراء، وهو ما يظهر في امتدادات الثقافة الحسانية على مستوى اللغة واللباس والمسكن، أما المحطة الثانية فقد كانت بسوس حيث تعاظمي الرحامنة للتجارة وشاركوا في الجهاد ضد الغزو الأيبيري، ودونما تفريط في نشاطهم الرعوي الأصلي، في حين كانت المحطة الثالثة مع الانتقال إلى حوز مراكش، حيث بدأت معالم الاستقرار تظهر، من خلال استبدال خيمة الرحل بأشكال جديدة كالنوال والزريبة والدوار.

أولاً: الرحلة الكبرى:

لما تركت قبيلة الرحامنة شبه الجزيرة العربية في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) استمرت في التقدم نحو الغرب مروراً بمصر والسودان وليبيا، إلى أن بلغت أقصى الجنوب المغربي، لتتوزع بعدئذ في اتجاه شرق موريتانيا الذي ما زال إلى اليوم يؤم بطونا من اليرابيش والرحامنة بنفس التسمية، إلا أن دخول قبائل المعقل بصفة عامة إلى تراب المغرب الأقصى لم يتم إلا في بداية القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد)، وهو ما يعني أن هذه القبائل أمضت وقتاً طويلاً في رحلتها الكبرى التي خلفت "آثار مرور" واستقرار بعدد من مناطق العبور.

خلال مدة مهم بالصحراء³⁸ كان الرحامنة يشكلون أقوى وأكبر المجموعات العقلية، حيث كانوا يحاربون بأكثر من عشرة آلاف مقاتل من بينهم سبعمائة فارس³⁹، فقالتين فرنانديس يؤكد بأنهم كانوا بالإضافة إلى "البرابيش والودايا وأولاد احمر يحتلون موريتانيا وسهوب الذهب.. فقد كانت هذه القبائل الأربعة تشكل الجماعات الأقوى"⁴⁰، كما أنهم كانوا يتعاطون الزراعة والرعي والتجارة، فالرحل عموما كانوا يمارسون التجارة عبر ثلاثة أساليب: كتنافلين، كمكتريين لمجالتهم، وكحماة للمسافرين والبضائع، ثم كممارسين للمقايضة مقابل البضائع الواردة من خارج المجتمع⁴¹، فضرورات البقاء تستوجب الدخول في مثل هذه الممارسات والعلاقات من أجل تأمين وتحصين الاستمرارية في ظل نسق من المنافسة والمصالح المتناقضة. لم تختر قبائل الرحل مجالها ولم تحده بالمرّة، إنه مجال ينكتب باستمرار، ويتوجب في كل حين العمل على تحصينه وتطويره، بل وتغييره أملا في بلوغ الأفضل، لهذا كانت الرحامنة، كما باقي قبائل الرحل تنشغل بالوصول إلى هذا "الأفضل" المفترض، والذي لا يمكن تمثله إلا في حدود "ضمانات الاستقرار" التي تعني الماء والكلأ، وهو ما يتوفر في الشمال.

إن الارتحال نحو الشمال، حيث الماء والكلأ، كان دوما هدفاً شديدا بالنسبة لقبائل الجنوب، لكنه هدف يتعرض للحصر باستمرار، بسبب قوة آل الشمال ومجهرية مجالتهم أيضا، فلا يصير بمقدور هذه القبائل إلا انتظار الشرط التاريخي والسياسي الذي يسمح بتحقيق الارتحال، وفي هذا الصدد يقول محمد القيلي بأن "التحركات البشرية الكبرى، بل وحتى تجارب الدولة المغربية المتعاقبة تربط كلها بمخازن التوسع في اتجاه السهول الأطلسية باعتبار خصيها وتوسطها بين الجبل والبحر"⁴². وعموما "فالشمال أو التل بالنسبة لأهل الجنوب يخضع للترتيب الثاني من حيث الأهمية الغرب، الحوز ثم السوس"⁴³، وبالطبع فدأعز ما يطلب هو الوصول إلى الغرب، لكن الرحامنة بلغوا المنتصف فقط واستقروا بالحوز.

³⁸ وفي هذا الصدد يقول عبد الوهاب بتمنصور بأنه لما طلع الزناتيون إلى التل وأسسوا مملكتهم بفاس وتلمسان وإمارات أخرى صغيرة بالغرب الأوسط تغرد عرب المعتل بالصحراء ونسوا نوا كبرا بما انضاف إليهم من القبائل من غير نسبهم مثل العمور وأشجع والشطة والمهايا والشعراء والصباح وبني سليم، وصارت يدهم الطولي بجميع الأقطار الصحراوية الواقعة بين المحيط الأطلسي وتيديلكت.

أنظر: عبد الوهاب بتمنصور، قبائل المغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1968. ص. 415.

³⁹ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit p.187.

⁴⁰ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit p.187.

⁴¹ محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطق الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوتر برانت، الرباط، الطبعة الأولى، 2006. ص. 35.

⁴² محمد القيلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعلات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987. ص. 44.

⁴³ Paul Pascon, le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit p.189.

لقد تزامن وفود القبائل المعقلية إلى المغرب مع وصول بني مرين إلى الحكم بالمغرب، لكن الكثير منهم لم يتمكن من التوغل إلى السهول الغربية، وإنما تم حصره بفعل حواجز بشرية مكونة من قبائل مرينية وزناتية وصنهاجية وهلالية، "فبعد أن نجح بنو مرين في إقصاء قبائل المعقل، انتشرت هذه القبائل بالمغرب الشرقي وعلى امتداد الحزام الصحراوي، حتى الساحل الأطلسي"⁴⁴.

لهذا لم يثأر للرحامنة في ظل هذا الشرط التاريخي والسياسي الالتحاق بهذه السهول، مواصلين بذلك حياة الترحال والانتجاع بالصحراء. فإلى حدود القرن الخامس عشر الميلادي كان الرحامنة يسيطرون على جزء مهم من هذا المجال، وفي هذا الصدد يقول الحسن الوزان بأنهم كانوا "يسيطرون على الصحراء المجاورة لأفنا وكذلك على تشيت"⁴⁵ التي اعتادوا الذهاب إليها كل شتاء"⁴⁶.

كما أنهم كانوا من بين المجموعات المعقلية التي عملت على تقوية حضورها بسواحل الصحراء، وهو ما يؤكد عبد الأحد السبتي بالقول: "ففي الساحل، زاجت بعض القبائل بين الرعي والزراعة، ومن بينها الرحامنة واحمر، وفي الداخل، تعاطت قبائل أخرى لحياة الترحال، ومن بينها البرابيش وأولاد دليم"⁴⁷. وبحكم استقبال هذا المجال لحركة القوافل التجارية، فإن الرحامنة سيدخلون على خط المبادلات ممارسين لنشاط اقتصادي جديد سيزيد من حجم إشعاعهم.

⁴⁴ عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص 263.

⁴⁵ تشيت مدينة صغيرة بناها النوميديون في غنوم صحراء ليبيا.

أنظر الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 1983، ص 115.

⁴⁶ الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الأول، نفس المرجع السابق، ص 54.

⁴⁷ عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص 264.

التي مارسوا فيها الترحال والتجارة. ولذلك كانت الرحامنة وبقي القبائل المعقلية التي استوطنت هذه الأراضي تشكل ما عرف بأهل السوس⁵⁰.

سيئزمن استقرار الرحامنة بسوس مع الغزو الإيبيري للسواحل المغربية (سنة 1448 م) ومواجهة السعديين⁵¹ الذين تزعموا حركة الجهاد ضد متطلعين إلى الحكم⁵¹، فقد ساهم الرحامنة سنة 1525 م في صد الغزو المسيحي للسواحل الجنوبية الغربية إلى جانب السعديين الذين ما أن استتب حكمهم حتى نزحوا إلى شمال مراكش، معلنين هيمنتهم على كل المنطقة الممتدة من أسفي إلى مراكش بدءا من سنة 1565 م، حسب ما أشار إليه مارمول⁵².

وبخلاف قبائل المعقل من أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات التي انضمت إلى الجيش السعدي المعروف بأهل السوس، فإن الرحامنة اكتفوا بمساندة السعديين دون التحول إلى قبيلة مخزنية، علما بأن هذه المساندة كانت محكومة برهانات تأمين المصالح، فقد "أخل الوجود البرتغالي على الساحل الأطلسي بالتوازن وما لحق سكان المنطقة من أضرار تحويل النصارى للتجارة التجارية التقليدي"⁵³، ذلك أن مرور القوافل عبر الصحراء كان يؤمن للقبيلة إقامة مبادلات تجارية مهمة.

ففي سنة 1525 شارك الرحامنة في مهاجمة سانتا كروز (أكادير)⁵⁴ إلى جانب السعديين وبقي أهل السوس، إلا أنه بالرغم من ذلك فعلاقة الرحامنة بالسعديين لم تقتصر على الجهاد ضد الغزو الإيبيري، وإنما تطورت إلى مستوى مصاهرة السلطان محمد المهدي السعدي الذي تزوج من لالا سحابة الرحمانية التي أنجبت منه عدة أمراء كان لبعضهم شأن عظيم في تاريخ المغرب السياسي، وهم: عثمان وعبد المؤمن وعمر وعبد الملك⁵⁵. ومع ذلك فالرحامنة لم تكن من قبائل الكيش المخزنية، سواء خلال حكم السعديين أو العلويين، بل كانت من قبائل النايبة⁵⁶، التي عرفت علاقتها بالمخزن المركزي علاقات مد وجزر باستمرار.

⁵⁰ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op cit p 187.

⁵¹ عبد الأحد السبكي، بين الرضا طاقم وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص 266.

⁵² مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق، ص 4284.

⁵³ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن، مرجع سابق، ص 79.

⁵⁴ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op cit p 191.

⁵⁵ Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Tome 2, Casablanca, 1950 p.84

⁵⁶ ومعناها مأخوذ من ناب ينوب نيابة، فهي القبائل التي تنوب أحيانا عن قبائل الكيش، من أجل تقديم خدمات عسكرية لفائدة المخزن، فهي غير معنية بالارتباطات الكيشية مع المخزن، وإنما يتوجب عليها المساهمة من حين لآخر في مد المخزن بالرجال أو بالمال.

إنه لا يعرف بالضبط متى كان الاستقرار بحوز مراكش، "وإن كانت المصادر تذكرهم خلال القرن الثامن عشر بكثرة"⁵⁷، فنزوح الرحامنة إلى الحوز لم يكن مرتبطاً، وبشكل حصري، بمساندتهم للسعديين في مواجهة الغزو البرتغالي، وإنما هو نزوح مشروط باستغلال الشرط التاريخي والسياسي، ومحكوم بالانشغال المركزي لآل الجنوب، وهو الانتقال إلى الشمال حيث الماء والكساء وما يضمن الاستقرار ويُيسره.

في مفتتح القرن السادس عشر بدأت المجموعات الأولى من قبيلة الرحامنة تلوح بأحواز مراكش، فلقد أشار مارمول إلى أنه "في ناحية أسفي مراكش، وبالضبط سنة 1519 قام الرحامنة بثورة ضد مولاي زيدان السعدي"⁵⁸، كما أن المصادر تذكرهم بأنهم هاجموا سنة 1568 مولاي عبد المالك على الطريق الرابطة بين أسفي ومراكش⁵⁹.

تقع قبيلة الرحامنة اليوم "بالحوز ما بين نهر أم الربيع الذي يحدها شمالاً ووادي تانسيفت الذي يحدها جنوباً مع سلسلة الجبيلات وبلاد مسفيوة، بينما توجد من الناحية الشرقية قبائل السراغنة وزمران، ومن الجهة الغربية دكالة واهمر وأراضي الكيش"⁶⁰. لكن هذا المجال الجغرافي للقبيلة لم يكن ثابتاً دوماً، فقد كان يتعرض باستمرار للانحسار والانكماش تبعاً لعلاقة القبيلة بالمخزن وكذا بما يجاورها من قبائل أخرى.

بل إن هذا المجال لم يكن قبل القرن السادس عشر مقروناً بهذه القبيلة، فبول باسكون يؤكد بأن قبائل الرحامنة وإداو بلال وولاد دليم وحربيل استقروا بالحوز في نهاية القرن السادس عشر⁶¹، كما أن الحسن الوزان في "وصف إفريقيا" وتحديدًا في حديثه عن مملكة مراكش⁶² لم يذكر الرحامنة في إطار تقسيمه لهذه المملكة إلى عدة نواح، تضم كلا من دكالة وتادلا وهسكورة وحاحا وسوس وجزولة ومراكش، كما أن بن خلدون يجعل من الحوز موطنًا لقبائل دكالة باعتبارها تقع في

⁵⁷ إبراهيم حرركات، المقرب عبر التاريخ، الجزء الثالث، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية. 1994. ص. 253.

⁵⁸ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1. op.cit p.192.

⁵⁹ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1 op.cit p.192.

⁶⁰ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتها بالمخزن 1850-1900، مرجع سابق، ص. 79.

⁶¹ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech. Tome 1 op.cit p.151.

⁶² أنظر خريطة مملكة مراكش في كتاب وصف إفريقيا، مرجع سابق، ص. 94.

"وسط المغرب من عدوة أم الربيع إلى مراكش"⁶³، وهو بتعريف الناصري يضم "بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش، فكان لرياح بلاد الغرب وكان لجشم بلاد الحوز"⁶⁴.

وهو ما يعني أن المجال الحوزي الشمالي الذي استوطنت به القبيلة هو مجال مكتسب حديثا مقارنة مع باقي القبائل المجاورة. كما أنه مجال عرف حركيات قبلية عديدة جعلته يؤم تشكيلات قبيلة متعددة الانتماءات والاختدارات، ساهمت بدورها في إمداد الرحامنة بعناصر أخرى تبدو بعيدة جدا عنها من حيث البدء والامتداد.

جدول رقم 4: توزيع القبائل⁶⁵ حسب أهم مناطق ونواحي الحوز⁶⁶

المنطقة	القبائل
مراكش	الكيش، أوريكة، غيغاية، سكتانة، الرحامنة
القلعة	السراغنة، زمران، تاملالت
أزميز	كدميو، أولاد مطاع، وزكيتة، كندافة
إيمتانات	متوكة، مزوطة، هنتيفة، دويران، دمسيرة، سكاوة
شيشاوة	أولاد بوسع، شيشاوة، مجاط، فروكة، العرب
أيت وريبر	مسفيرة، نككانة، عجدامة، كلاوة
دمنات	ولتانة، فطوكة

المصدر: كتاب الاستقصا

فلن كان الحوز قبلا؟ بالرجوع إلى الناصري، نجد يقول: "أعلم أن أرض إفريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السابقة، لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وإنما كان المغرب وطنا لأمة البربر خاصة لا يشاركون فيه غيرهم"⁶⁷، لكن محقق الاستقصا⁶⁸ يقول بأن الناصري تبني نظرية ابن

⁶³ عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الحادي عشر، مرجع سابق، ص. 421.

⁶⁴ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: أحمد الناصري، أشرف عل النشر: محمد حجي، إبراهيم بوطالب، أحمد التوفيق، الجزء الثاني، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الرباط، الطبعة الأولى، 2001، ص. 169.

⁶⁵ أنظر خريطة قبائل الحوز في الملحق.

⁶⁶ محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، المجلد الأول (الجزء الثاني)، دار الفكر العربي، مدينة نصر، الطبعة الثانية، 1998، ص. 54 و 55.

⁶⁷ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص. 123.

⁶⁸ أحمد الناصري

خلدون القائلة بأن المغرب كان وطنًا خاصًا بالبربر، و"أن العرب لم يستوطنوه إلا في أواسط المائة الخامسة (الحادية عشرة ميلادية)، وقد أسفر البحث في اتصال العرب والبربر في الجاهلية وصدر الإسلام قبل الفتح، وعن استيطان جماعات بالبادية قبل المائة الخامسة، وكانت هذه الجماعات من بقايا العرب الفاتحين ومن المهاجرين الذين نزحوا إلى المغرب اختيارًا لسكنائه أو فرارًا من الفتن التي وقعت بالشرق كحرب صفين ومقتل الحسين... وحروب المروانية والزيرية وغيرها من حروب العصبية"⁶⁹، وهذا كله يعني أن الحوز لم يكن خاليًا من السكان في وقت من الأوقات، ولا حكرًا على البربر دون غيرهم، خصوصًا وأنه يتموقع على الطريق الرابطة بين مدن ضاربة في عمق التاريخ كراكش والرباط وسلا وفاس.

تشير المصادر أيضًا إلى احتلال البورغواطيين لجزء من أراضي الحوز وترددهم عليه، فالحوز كان يغري أكثر بالاستقرار، ولهذا لم يكن مستبعدًا أن يكتشف استقرار الإنسان القديم بهذه المنطقة، ففي مستهل الستينيات تم اكتشاف إنسان جبل إيغود قريبًا من الشماعية ببلاد احمر، والذي أكدت الأبحاث الأركيولوجية أنه يعود لنحو 85 إلى 125 ألف سنة⁷⁰. وما يؤكد الاستقرار العربي قبل النزوح الهلالي أو المعقلي، فهو رباط شاكر ببلاد احمر، والذي أسسه شاكر بن عبد الله الأزدي، الذي بعد من أتباع عقبة بن نافع الذي دخل المغرب سنة 62 63 هجرية.

وبمضي صاحب الاستقصا موضحًا بأن وفود العرب الآخرين إلى المغرب سيدفع بأحمد المنصور الذهبي إلى توزيعهم على الغرب والحوز، وفي هذا الصدد يقول: "نقل المنصور، رحمه الله، بني هلال وبني جشم⁷¹ إلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة (584/1188 م)، فأنزل قبيلة رياح من بني هلال ببلاد الهبط، فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير وبين أزغار، البسيط الأنفيح هناك، إلى ساحل البحر الأخضر، فاستقروا بها وطاب لهم المقام، وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الأنفيح ما بين سلا ومراكش، وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدا عن الغنايا المفضية إلى القفار..."⁷².

⁶⁹ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، مرجع سابق، هامش الصفحة 123.

⁷⁰ يوسف راجي الإله، تحريات أثرية بمنطقة الرحامنة: الماء وتنظيم المجال، في كتاب جماعي: الرحامنة: التاريخ، الثقافة، البيئة، مرجع سابق، ص. 93.

⁷¹ جشم من بني هلال وهم خليط من القبائل يضم العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والحلط.

⁷² أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص. 128.

هذا النص يطرح من جديد سؤال تنزيل عبارة الحوز إلى حدود المكان، ففي وقت سابق كان الحوز ممتدا من بلاد تامسنا إلى مراكش، لكنه اليوم يحيل على ما بين النهرين (أم الربيع وتانسيفت)، فالحوز عرف في تاريخية دينامية بشرية ومحالية في الآن ذاته، فلم تكن حدوده ثابتة ولا قبائله متحركة كلية في شروط الامتلاك والاستئراض، فقط هي الشروط التاريخية ما يحدد حال ومآل الانتماء والاستغلال في المجال.

ثالثا: دينامية المجال:

في بداية القرن السابع عشر كان مجال الرحامنة يمتد من وادي أم الربيع⁷³ شمالا إلى غاية أعراف الأطلس جنوبا، ومن أسفي إلى مراكش، لسكن، ويسبب اختلال منطق العلاقات مع المخزن، فإن المجال الرحماني سيتعرض للانكماش في عهد السلطان مولاي عبد الرحمان الذي "استقدم أيت يعمور سنة 1845 من الغرب إلى الحوز وأنزلهم وراء وادي نفيس وقبلته"⁷⁴، فضلا عن قيامه بنقل "رحى المغافر والودايا من فاس الجديد سنة 1852 وإنزالهم بأحواز دائرة مراكش بزاوية الشراي وما والاها خلف ضفة وادي نفيس وقبلته"⁷⁵.

فالحوز لم يعرف استقرارا طويلا لقبيلة دون غيرها، فالسلطة المركزية كانت تعمل من حين لآخر على توطین وإجلاء القبائل، تبعا لمحددات القوة والضعف، لقد كان الحوز في تاريخه محكوما برهانات الضبط والاحتواء.

لهذا سيعرف المجال القبلي تحولات أخرى في أعقاب التمردات الكبرى التي قلمت بها القبيلة خلال القرن التاسع عشر حيث ستنتزع أراضي جديدة من الرحامنة وبالضبط تلك الأراضي السقوية الحصبة جنوب وادي تانسيفت كتيهنيث وأغاطيم وسعادة وعين دادة والسويهل، ليصير المجال الجغرافي واقعا بين "النهر والنهر"، أي من وادي أم الربيع إلى غاية وادي تانسيفت.

مثملا سيتم ترحيل فرق أخرى من الرحامنة وأبناء عموماتهم من المعقل إلى مناطق أخرى، تماما كما هو الأمر بالنسبة للشراردة والشبانات... "فلم تخل علاقات المعقل بالحكام من توترات تشهد عليها عمليات الترحيل المتعددة"⁷⁶، فالشراردة مثلا تم نقلهم من حوز مراكش إلى سهل الغرب على

⁷³ نهر أم الربيع من أهم الأنهار المغربية ينبع من الأطلس المتوسط بين خنيفرة وعين اللوح ويصب في المحيط الأطلسي قربها من أزموور، ويبلغ طوله 600 كلم، ويعبر سهول تادلة والشاوية وشمال الرحامنة ودكالة، ومن أهم روافده وادي العبيد.

⁷⁴ مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق، ص. 4284.

⁷⁵ نفس المرجع، ص. 4284.

⁷⁶ عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص. 267.

عهد المولى عبد الرحمان بسبب تمردهم⁷⁷، كما تم نقل الشبانات و زرار في عهد مولاي اسماعيل من الحوز إلى وجدة⁷⁸. ويوضح الجدول التالي جانباً من عمليات الترحيل التي عرفت منطقة الحوز أو مناطق أخرى على يد بعض السلاطين العلويين:

جدول رقم 5: عمليات ترحيل بعض القبائل من موطنها إلى مناطق أخرى

السلطان	القبيلة المعنية	الموطن	المنطقة المرحل إليها
المولى إسماعيل	الشبانات	حوز مراكش	فاس ووجدة
	زرارة	حوز مراكش	فاس ووجدة
	الودايا	حوز مراكش	فاس ووجدة ومكناس
	أهل السوس	سوس	المهدية
	أهل الريف	الريف	تارودانت والعرائش
	بربر جروان	الأطلس	الغرب
سيدي محمد بن عبد الله	أولاد بوسيع	حوز مراكش	سوس والساقية الحمراء
عبد الرحمان بن هشام	الشراردة	حوز مراكش	الغرب

المصدر: المعلومات الواردة في الجدول مستقاة من كتب الناصري والضعيف ويول باسكون

إن استراتيجيات التنقيط والتوطيق التي اعتمدها المخزن لتدبير علاقاته بعدد من القبائل، خصوصاً في أعقاب التمردات واختلال موازين القوى، كان من الضروري أن تكون الرحامنة متأثرة بها سلباً أو إيجاباً تبعاً لمتوقعها من الصراع الدائر بين المخزن والقبائل، أو بالنظر إلى انخراطها أو حياديتها بشأن هذا الصراع، فبالرجوع إلى ما تتيحه قراءات التاريخ الاجتماعي للقبيلة، فإنه يبدو من الصعب تحديد المجال الترابي للرحامنة بدقة متناهية، فالأمر يتعلق بمجال متغير، يضيق ويتسع، ينتقل وينتقل أيضاً.

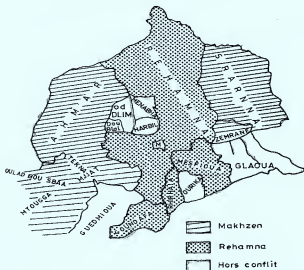
ففي الخريطة السياسية لسنة 1884 (أنظر الخريطة) يتضح أن مناطق مهمة من الرحامنة تبدو في غير ملكية القبيلة آناء، فهي تبعاً لخريطة القرن التاسع عشر، تبدو في ملكية المناهية وولاد دليم وإداو بلال ومسفيوة وحربيل. فالمجال لم يتحدد بصفة ناجزة إلا بعد دخول المستعمر الفرنسي، الذي

⁷⁷ أحمد بن خاله الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، ص. 26.
⁷⁸ أحمد بن خاله الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السادس، نفس المرجع، ص. 85.

عمل على الحد من التحركات القبلية، مستهدلاً الأساس القبلي بآخر تراتبي متحكم في حدوده الجغرافية.

سؤال حيوية المجال الرحماني له علائق أخرى بعوامل الترحال والاستقرار، وما يرتبط بهما من حياة الرعي والانتجاع التي ميزت الرحامنة خلال وفودهم إلى حوز مراكش، فالاستقرار النهائي لم يحدث إلا في القرن التاسع عشر، وهو ما يعني أن تأمين حدود المجال ظل مفتوحاً دوماً على الشروط السوسيوسياسية التي كانت تطبع علاقة القبيلة بالمخزن أو القبائل والحواضر المجاورة في شكل أحلاف ومصالح وتبادلات.

الخريطة السياسية لجزء من الحوز، سنة 1884



المصدر: حوز مراكش لبول باسكون

يقول عبد الله العروي في هذا الصدد بأن "المغربي مختلف وشعر بالاختلاف بلباسه، وبلغته، وبالحدود التي يعترف بها لتراب يعطيه إسا ويجعله ترابه"⁷⁹، فمجال القبيلة هو ما يمنح أفرادها الوجود والانتماء، وهو ما يؤسس للبدء والاستمرار، الشيء الذي يجعل من تنميته وتحصينه استراتيجية فعالة وضرورية لإعلان الحضور وتجديده، خصوصا عندما تبصم الهشاشة علاقات الجوار القبلية.

إن وجود بلاد الرحامنة على الطريق⁸⁰ المؤدية إلى مراكش، وفي "قبة الحوز"، جعل منها معبرا للقوافل التجارية و"المحلات" السلطانية القادمة من فاس، كما كانت أيضا هدفا ومعبرا لعدد من "الحركات" المخزنية، وعندما يتضاف هذا المعطى الضروري إلى معطى الجوار الذي يحيل على قبائل متعددة كالسراغنة وزمران وعبدية واحمر وذكالة والشاوية، تصير حدود المجال نسبية ومرتبطة أساسا بعنصري القوة والضعف اللذين يطرآن على القبيلة.

من المؤكد "أن الموقع له فعالية في العلاقة بين الرحامنة والمخزن، لأن القبيلة في مجالها النهائي شكلت ممرا للحركات المخزنية والمحلة السلطانية"⁸¹ بين بلاد الشاوية ومدينة مراكش، مما حتم

⁷⁹ Abdellah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912), Editions Centre culturel arabe, Casablanca, 3eme Edition 2009, p.65.

⁸⁰ إن الطريق التي تربط رباط الفتح بمراكش والتي كانت تخترق المجال الرحماني كانت تسمى في أدبيات الإخباريين بطريق الجهاد، لأنها كانت تسخر أكثر، رمزيا وماديا، في مرور "القوة المخزنية"، أما الطريق الرابطة بين فاس وسجلماسة فقد كانت تسمى بطريق الثمر، والطريق الرابطة بين فاس ومراكش عبر تادلة كان يطلق عليها إسم طريق النحاس، فيما كانت كانت طريق فاس تلمسان موسومة بطريق الحجاج ومراكش سجلماسة بطريق القبيلة.

أنظر: عبد الأحد السبهي، المدينة والمجال في الكتابة التاريخية التقليدية: محاولة توطيد إشكالية أمن الطرق، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الموسم الجامعي: 2004/2005، ص.276.

⁸¹ يصف الطبيب فرديك وإيسجيرير المحلة السلطانية قائلا: "تتكون المحلة السلطانية من قسمين متباينين: مخيم المخزن ومخيم العسكر، فأما المخيم الأول، فيقوم في الناحية الغربية على هيئة دائرة من حوالي 4 كيلومترات مربعة، وتقوم في الوسط منه قبة السلطان الكبيرة فوق ربوة صغيرة... وتحف بها من كل جانب خيام الحريم الصغيرة التي تؤوي إليها عشرون من الإماء اللواتي اصطبحهن السلطان معه في حملته. وتتصل هذه الخيام في ما بينها وتتصل بخيمة السلطان بمجازرات. ويحيط بالخيام كلها أفرار، وهو حزام دائري من القماش في علو مترين إلى ثلاثة أمتار.

وفي الجهة الشرقية من أفرار يستد ما يشبه الفناء، ذلك هو المشور تحف به خيام تقوم مقام البنايات أو مكاتب بآتيها الوزراء وكتباهم لتصرف الشؤون الخاصة بوزاراتهم، وتحده المشور رحبة المدفعية قد نصب فيها ثلاثون مدفعا... وتقوم إليها سبيل عريضة تقوم على جانبيها خيام الرماة.

وإلى المشور، قرب المدافع، تأتي القبائل لتقديم البيعة والولاء، وعلى الجانب الآخر، الغربي، من أفرار يوجد "الروا" وهو فضاء فسح تعقل فيه جياد السلطان وبغالها، وتمتد خلف الروا أرض مكشوفة مخصصة هي

حركيتها وتفاعلها مع التاريخ، وأزم علاقتها مع ممثلي المخزن أحيانا⁸²، كما أن هذا الموقع سينعكس على تشكيلاتها الاجتماعية ومكوناتها القبلية وتحالفاتها وتنافسائها المفترضة مع باقي القبائل الأخرى. في القرن التاسع عشر ستصير أجزاء مهمة من المجال الحوزي مرتبطة بقبيلة الرحامنة، استقرارا وانتجاعا، "لقد كانت هذه القبيلة تتعاطى الانتجاع وفق محورين إثنين:

- محور أول (شمال/ جنوب) بين الأطلس خلال فصل الصيف و"البحيرة" خلال فصل الشتاء و"الكعدة" في فصل الربيع.
- محور ثاني (شرق/ غرب) بين "الكعدة" خلال فصل الربيع، و"ساحل" ذكالة خلال فصل الصيف⁸³.

إن هذه الحركية المجالية ستساهم في توسيع الشبكة العلائقية للقبيلة، وستؤسس لمجموعة من الأحلاف والتوافقات التي ستربطها مستقبلا بجيرانها من باقي القبائل، "فالترحال الرعوي ليس بنسق مغلق"⁸⁴، إنه ممارسة مفتوحة على التبادلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما أنه ممارسة مستنودة بتاريخ من العلاقات والتجارب، فالرحامنة القادمون من الصحراء إلى الحوز لم يفرضوا في أسلوب عيشهم المفتوح على الترحال والانتجاع، بل عملوا على تجديده ومواصلته في المجال الحوزي، وفق قيم وعلاقات جديدة.

لم يكن المجال الرحماني محالا مغلقا في تاريخيته وتفاعلاته، إنه مجال عبور وجوار، فمنه كانت تمر المحلات السلطانية والحركات المخزنية، ولهذا يلاحظ أن توصيف "النزلة"⁸⁵ كان حاضرا على طول الطريق

الأخرى لسجناء الحرب. وما تبقى من الحيز الداخلي من المخيم يخص لحيام موظفي المخزن وللكتلة الكثيرة من خدام بيت السلطان، من خدم الحيام وخدم الكسوة والحاريرين والطباخين وخدم الحمام وخدم الشاي وخدم المظلة وخدم البندقية وخدم القوس وخدم الأعلام والعازفين والسائسين والحمارين والعبيد. تقام خيام العسكر على مسافة صغيرة ناحية الشرق من خيام المخزن، وفيه تعسكر مختلف قوات المشاة النظامية وتقوم بين المعسكرين سوق قد توفرت لها جميع عناصر السوق من تجار وكتل ومجربين وحكاكين ومروضي أفاءع". أنظر: فردريك وإيسجربر، على عتبة المغرب الحديث، ترجمة: عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2011، ص. 49.

⁸² عمر الإيواري، الظاهرة القائدية: القائد العبادي الرحماني نموذجاً، مرجع سابق، ص. 115.

⁸³ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit.p207.

⁸⁴ محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب، مرجع سابق، ص. 35.

⁸⁵ تتخذ النزلات أو النزائل في الغالب شكل قلع أرضية مربعة محاطة بتريبة من الأشواك أو سور من الحجر، وقد تكون محاطة بخندق، ويتولى تدبير هذه المحطات أهل النزائل وهم حراس يقطنون داخل النزالة في بيت من الطين أو الحجر، أو في نوال من القصب والبن، وتوفر النزلة للمسافرين والقوافل المبيت والأمن مقابل رسم متواضع يحصل على الدواب لا على الأفران كما أنها توفر إمكانية التحويل بمواد مثل البيض والدجاج والعلف.

التي كانت تعتبرها هذه "المحلات" (نزالة الصخور، نزالة بن جريز، نزالة لعظم)، فهذه النزالات⁸⁸ تؤثر على "طريق المخزن وتطلق على عدد من المحاور التي يشرف السلطان على تنظيم حراستها، فهو يكلف بعض القبائل بـ"درك الطريق" ويأمر بوضع النزائل كمحطات لاستراحة وتموين المسافرين والقوافل"⁸⁷.

فالنزلة برأي إدmond دوتي هي "عبارة عن دوار صغير، أو بكل بساطة مأوى متواضع وآمن تسمح السلطة بإقامته، لكي يقدم خدمات للمسافرين مقابل واجبات رمزية"⁸⁸، واتصالا بهذا السياق يقول عبد الأحد السبتي بأن "قبيلة الرحامنة تحتل موقعا استراتيجيا، في "قبة الحوز"، وهي تراقب طرفا مهمة مثل الطريق السلطانية التي تربط بين مراكش والشمال، والطريق التي تربط بين مراكش وموانئ منطقة الحوز (أسفي والجديدة)، والطريق التي تربط بين مراكش والدير"⁸⁹، فالموقع يخرج من طابع الاعتيادية بسبب هذه الديناميات السياسية والاجتماعية التي يعرفها، ويؤثر في حال ومآل القبيلة سلبا أو إيجابا تبعا لمستويات تفاعلها مع هذه الديناميات، علما بأن السلب أو الإيجاب هنا يفسر أكثر بالانكماش أو التوسع الترابي. "فالتغيير الاجتماعي ليس مجرد قوى تاريخية واجتماعية، وإنما هو في مستوى آخر تفاعل بين استراتيجيات فاعلين متعددين"⁹⁰.

بالرجوع إلى ما نتيجته قراءة التاريخ الاجتماعي للقبيلة، فإنه يبدو صعبا تحديد المجال الترابي للقبيلة بدقة متناهية، إنه مجال متغير، يضيّق⁹¹ ويتسع، ترحل أو تُرحل مكوناته، خصوصا في ظل الأحداث التي عرفتها الرحامنة خلال القرن التاسع عشر. فكيف حدث الاستقرار النهائي بالحوز؟ وكيف تم استبدال الخيمة التي تدل على الترحال بالنزلة التي تؤثر على الاستقرار؟ وما نتائج هذا الانتقال على الإنسان والمجال؟

أنظر: علال الحديمي، النزائل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر، مجلة هسبريس تودا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد، السنة 1993، ص.8.

⁸⁶ ومن النزالات الأخرى التي اشتهرت بها الرحامنة نذكر: نزالة الرواكب بحاقة الكتنتور، نزالة غدير لحشب، نزالة الغاية، نزالة بن محمد، نزالة لبيار القصار، نزالة موكا ونزالة أولاد بله.

⁸⁷ علال الحديمي، النزائل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص.8.

⁸⁸ Edmond Doutte, Marrakech, op.cit. p.22.

⁸⁹ عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص.267.

⁹⁰ Henri Menderas, Le changement social: Tendances et paradigmes, Armand Colin, Paris, 1983, p.11.

⁹¹ في هذا الصدد يقول الطبيب فرديريك وإيسجرير بأنه لما تعرف على القائد عيسى العبدوي في سنة 1898، كان نفوذ، حينئذ يصل إلى قسم من دكالة والرحامنة وشيشاوة والشيظامة وحاحاه، كما أن الرواية الشفوية تؤكد أن بعض أراضي البحيرة كانت دائما محور صراع بين الرحامنة والسراغنة.

أنظر: فرديريك وإيسجرير، على عتية المغرب الحديث، مرجع سابق، ص.286.

الفصل الثالث:

من الخيمة إلى النواة جدل الترحال والاستقرار

سنحاول في هذا الفصل تتبع لحظات الانتقال من الخيمة إلى النواة، مع التركيز على شكل ومضمون هذا الانتقال، في مستوى الفعاليات والممارسات والعلاقات، التي ساهمت في بناء "فرضية" امتلاك المجال من قبل الرحامنة بدءاً من القرن التاسع عشر.

يورد محمد الأمين البزاز شهادة دالة للرحالة لمبرير يقول فيها: "يصعب على المرء أن يتصور كيف أنني لم أصادف ولو مسكناً واحداً في طريق عودتي من مراكش إلى الرباط، على الرغم من أن للمسافة تستغرق سبعة أيام من السير، لم أشاهد سوى بعض خيام الأعراب منتشرة هنا وهناك وكل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن داخل البلاد لا يقل إفقاراً هو الآخر"⁹²، طبعاً يتعلق الأمر بنص مكتوب في مفتتح القرن التاسع عشر نقرأ فيه محدودية الاستقرار في مقابل واقعة الترحال التي تدل عليها الخيام.

فالرحالة لمبرير مر حتماً من بلاد الحوز في طريق عودته إلى الرباط، لكنه لم يصادف إلا قلة من الخيام، التي يؤكد أنها للأعراب، وهذا يضعنا أمام احتمالين على الأقل، فإما أن زمن الرحلة كان متصادفاً مع ارتحال إلى مناطق أخرى في إطار البحث عن الكأ والماء، خصوصاً وأن زمن الرحلة هو زمن قحوط ومجاعات كما يؤكد ذلك محمد الأمين البزاز، وإما أن الفترة المعنية بمرور هذا الرحالة كانت تشهد توافداً محدوداً لعشائر الرحامنة إلى منطقة الحوز.

لصكن إدmond دورني نفسه سيقر بنفس النتيجة التي انتهى إليها لمبرير، مبرزاً أنه لم يشاهد في طريقه إلى مراكش سوى نواتات متفرقة وخيام لقبيلة أولاد بوسباع النازحين من الصحراء، تحيط بها زرائب من الأشواك للماشية⁹³. ويقسمون حديثاً بجنوب مراكش، حيث كانت تقيم قبلاً أطراف من قبيلة هنتيفة.

⁹² W. Lempereur, Voyage dans l'empire du Maroc, Paris, 1801.p.85

مذكور في: محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع عشر، مرجع سابق ص28.

⁹³ Edmond Doutte, Marrakech, op.cit.p.290

أولاً: ثقافة الترحال:

مهما يكن من أمر فإن الانتقال من الخيمة إلى النواة⁹⁴، في دلالة على استبدال الترحال بالاستقرار لم يكن ليحدث بيسر شديد لدى قبيلة خربت الترحال منذ انطلاقتها من شبه الجزيرة العربية باتجاه المغرب الأقصى. فبالرغم من اشتغال القبيلة خلال مقامها بالصحراء وسوس بالتجارة، فإنها لم تغرط في نشاطها الأصلي القائم على الإرعاء، فقد "كانوا يمارسون الرعي الواسع مع ما يتطلبه هذا النشاط من ضرورة النجعة"⁹⁵.

وبما أن حياة الانتجاع والترحال تستوجب الاصطفاف في إطار تحالفات مستمرة، فلقد ارتبط الرحامنة بالتحالف "أمقون" مع القبائل الحوزية المجاورة، وهو نوع من التعاقد الذي ضمن حق الرعي والحماية بالنسبة للمتعاقدين من غيغاية ومسغوية وكندافة.

لكن يبدو أن هذا التعاقد لم يكن ليصمد طويلاً مع "استقرار الكيش الإسماعيلي حول وادي نفيس"⁹⁶. فالتعاقدات لا تحكمها بالضرورة اعتبارات داخلية محلية، بقدر ما ترتفع أيضاً إلى عوامل خارجية، تكتسب مزيداً من التأثير في حال تقاطعها مع مصالح السلطة المخزنية.

إن تموقع المجال الرحماني على خط رابط بين مراكش والرباط وفاس سيعزز لا محالة آليات ومظاهر الاستقرار، بدءاً بالنزالات وانتهاء بالمراكز القروية وشبه الحضرية، فإذا كان الترحال في المجال الصحراوي تحدده عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية، فضلاً عن حساسية العامل الطبيعي، وهو ما خبرته القبيلة تاريخياً في حركتها الجغرافية من الصحراء إلى الحوز، فإن هذه العوامل مجتمعة ستدفع باتجاه معطى الاستقرار والانتقال بالتالي "من الخيمة إلى النواة".

⁹⁴ يقول إدmond دوتي: "لا تغلو النواة المغربية من إثنان كما هو الحال بالنسبة للنواة السودانية، فهي مبنية بقصبات قوية وغليظة تغرس في الأرض على شكل دائرة، ويجمع فيما بينها من الجهة الأمامية القابلة للطي ثم تحاط بعد ذلك، ونجد في هذا الهيكل عند الرحامنة أغصان فروع الطرفة والمسماة عند عبدة بالرطم، فهي فروع رقيقة وقابلة للكي أو الطي حول الهيكل أو الإطار المعد أولاً بطريقة منضدة".
أنظر: إدmond دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، مرجع سابق، ص. 217.

⁹⁵ عبد الرزاق الصديقي، مادة "الرحامنة"، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق، ص. 4284.

⁹⁶ عبد الرزاق الصديقي، مادة "الرحامنة"، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق، ص. 4284.

و بالطبع فهذا الانتقال لن تكون نتائجه مقتصرة على مورفولوجيا السكن، بل سيتمتد في تأثيره إلى البناء الاجتماعي للقبيلة، والانتماء المجالي لأفرادها ومجموعاتها، بما يعنيه ذلك كله، من إنتاج لمكانات ووضعيات سوسيوسياسية جديدة. فالانتقال من واقعة الخيمة إلى النواة لا يَحْتَرِلُ تغييرا اجتماعيا من نمط رعوي إلى آخر زراعي، ولكنه يستمدج تغييرا دالا إلى نمط سياسي وثقافي مختلف، يستثمر الطقوس والرموز الدينية ويصنع التراثيات ويولد الزعامات.

إن الأمر يتعلق بقبيلة تختزن في تاريخها مسارات من الانتماءات إلى ممارسات رعوية وتجارية وزراعية، فقد مارس الرحامنة الترحال الرعوي خلال مقامهم بالصحراء، كما مارسوا التجارة فضلا عن الزراعة على طول رحلتهم الكبرى من تقوم الصحراء إلى سهل سوس، فسهل الحوز أخيرا، وبديهي أن تكون لهذه الممارسات والانتماءات امتدادات حتى في الوقت الراهن.

فتعدد الانتماءات إلى سجلات إيكلوجية متنوعة، والذي حصر مسار القبيلة في الانجاء المؤطر لأغلب الحركات السكانية وهو اتجاه "جنوب/شمال"، سيوضح في منتهى بمنطقة الحوز، أن الأمر متعلق بحركية استراتيجية وسياسية أكثر منها اقتصادية وإيكلوجية، فالعامل الطبيعي حاسم ومؤثر في صناعة الحركية القبلية، لكنه عامل ضمن عوامل أخرى تنفتح على قدر عال من التركيب.

سيدفع الوصول إلى الحوز يقبائل الرحامنة إلى تغيير استراتيجية اشتغالها على المجال، فالأرض الحوزية تغري بالاستقرار، اعتبارا لغناها الطبيعي، وتموقعها على خطوط الحركات والمحلات المخزنية، وكذا على الطريق المؤدية إلى أشهر المدن السلطانية (فاس، مكناس، الرباط، مراكش)، كما أن هذه الأرض كانت منذ البدء الهدف الأثير للحركية القبلية، فهي منتهى الزوج "جنوب/شمال" المحدد لهذه الحركية.

وهنا بالضبط سيستبدل الرحامنة حياة الترحال الرعوي بأنشطة الزراعة التي توطد العلاقة بالأرض، وهو ما لم يتحقق بقوة الأشياء إلا في القرن التاسع عشر، حيث ستمكن القبيلة من بسط نفوذها على أجزاء مهمة من منطقة الحوز.

يشير إدmond دوتي في هذا الصدد إلى أنه لاحظ اختفاء الدور المبنية بالحجارة خلال مروره بمنطقة الرحامنة قادما إليها من دكالة، ولم يُبَرِّحْ خلال مقامه بها إلى أي بناء صلب باستثناء قيب الأولياء⁹⁷، وهو ما جعله يعتبر المجال الرحامي مجال الخيمة والنواة بدون منازع⁹⁸. وهو ما يؤكد أن الرحامنة حديث عهد بالاستقرار، كواقع جديد لم يقض نهائيا على نمط الترحال المميز لهم تاريخيا، فالنواة تدل من حيث بنائها وتركيبها على نمط عيش يمكن توصيفه بـ "نصف استقرار".

⁹⁷ Édmond Doutte, Marrakech, op.cit.p.290.

⁹⁸ Édmond Doutte, Marrakech, op.cit.p.290

إن ما انتهى إليه إدموند دورتي بصدد المجال الرحماني لا يحتمل فقط قراءة أحادية تحيل على غياب الاستقرار وسيادة منطق "الفراغ السكاني"، فملاحظاته تهم الفترة التي مر بها من الرحامنة، والتي كانت خلال فصل الصيف، الشيء الذي يصادف تنقل القبيلة إلى مناطق أخرى حيث الماء والكلأ، ولهذا غالبا ما يكون التخريج المفضي إلى "أرض الخلاء" الأكثر استعمالا في كتابات الرحالة الأجانب.

لكن مع ذلك فإدموند دورتي يبدو محقا في غياب البناء الصلب، فالرحامنة ظلت إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر مجال الخيمة والنوالة، في حين ظل البناء الصلب، حكرا على المقدس (أضرحة، مساجد، زوايا...) والوجاهة والقيادة الاجتماعية والتدبير المخزني (عزيب، دار القايد، نزالة).

فالنوالة تستعمل كسكن، لكنها تتميز بالهشاشة والهزال، نظرا لتنوعية المواد المستعملة في بنائها، كالقصب وأغصان الدفلى والخروع، وهي نباتات لينة ورخوة يمكن تشكيلها بسهولة، لتتخذ شكلا أسطوانيا في الغالب⁹⁹. وهو ما يعني أن السكن سهل البناء وسهل الهدم في آن، الشيء الذي يتيح إمكانية الانتقال إلى نمطي الاستقرار أو الانتجاع تبعا للظروف والمتغيرات.

نوالة رحمانية خلال سنة 1901.



المصدر: كتاب مراكشي لإدموند دورتي

⁹⁹ أحمد زروال، مادة نوالة، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب: الجزء الثاني والعشرون، مرجع سابق، ص. 7471.

إن النواة كفضاء سكني لا تعني الاستقرار النهائي، بل تدل على نمط معيشي يزاوج بين الترحال والاستقرار، ولعل هذا ما دفع إدموند دوتي إلى القول بأن "كل الأسر القبلية كانت تمتلك مسكنا للاستقرار بالسفح وتكون الخيمة وسيلة للسكن أثناء النجعة"¹⁰⁰، وهو الواقع الذي يستمد استبداله بعدا بامتلاك سكن الاستقرار وفضاء العزيب أيضا.

والواقع أن ممارسة نشاط الانتجاع بهذا المجال، لم يكن مرتبطا فقط بوصول الرحامنة، بل كان منتهجا من طرف القبائل العربية الوافدة قبلا إلى نواحي مراكش كالأوداية والشبانات والمغافرة، ففي "القرن السابع عشر الميلادي كانت بعض أفخاذ الأوداية تنتجع في أحواز مراكش، وتعيش في ونام مع عرب الشبانات، وعندما دخل المولى إسماعيل مدينة مراكش سنة 1088 هجرية، كانت الأوداية ومن ضمنها المغافرة تنتشر في وسط "البحيرة"¹⁰¹، كما يتأكد أنه في نفس القرن كانت الشبانات ومن ضمنها الشراردة تنتجع في أحواز مراكش"¹⁰²، هذا يدل على حيوية المجال الحوزي من جهة، كما يؤكد فرضية حدانة امتلاكه من قبل الرحامنة.

ثانيا: ظهور "العزيب":

بالرغم من واقعة الاستقرار أو نصف الاستقرار، ظل الرعي نشاط الرحامنة الأول، فقد كان ممتهنا بنسب أعلى من طرف المستقرين بالشمال الشرقي حيث منطقة "الحدارة" التي تنتهي إلى منطقة الجذب والعطوية التضاريسية، وهذا ما سيجعل المقيمين بهذه المناطق مضطرين للانتجاع صيفا باتجاه غرب الرحامنة أو نحو قبائل الشاوية شمالا"¹⁰³.

في حين ستنتقل العشائر الرحمانية المقيمة على طول الطريق الرابطة بين مراكش والرباط (طريق النزائل والحركات والمحلات)، ثم الأخرى المقيمة بسهل البحيرة، حيث التربة الخصبة ووفرة المياه، ستنتقل من أزمنة "النواة" إلى الدور المبنية بالأحجار والطين، ومنها إلى علاقات جديدة مع الأرض، ستفرز أنماطا للملكية العقارية، ستكون لها نتائج مباشرة على التراتب الاجتماعي للقبيلة.

¹⁰⁰ Edmoud Doute, Les Marocains et la société Marocaine, In: Revue général des sciences pures et appliquées, T. 14, Paris: 1903, p.372.

¹⁰¹ العربي اكينيج، مادة المغافرة، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الواحد والعشرون، مرجع سابق، ص.7220.

¹⁰² العربي اكينيج، مادة الشراردة، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء السادس عشر، مرجع سابق، ص.5312.

¹⁰³ عمر الإيوري، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجا، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص.153.

لم يساهم الاستقرار الكلية في تفكيك الاقتصاد الرعوي المميز للقبيلة، بل امتزج معه في ثقافة العزيب¹⁰⁴ تحديداً، والتي تستدعي التمييز بين العزيب كفضاء سلطاني والعزيب كممارسة رعوية تحيل على حياة النجعة، وبين العزيب كنمط سكني يعكس التراتب الاجتماعي، ويعكس أيضاً بعضاً من ملامح "الإقطاع" في المجتمع المغربي.

بدل العزيب على ضيعة تكون في الغالب في ملكية عليّة القوم، وقد كانت في البدء امتداداً لملكية السلطان، قبل أن يقطعها لقياد أو أعيان أو شرفاء ومرابطين جزاء لهم على حسن الصنيع، أو إدماجاً لهم في نسق الولاء والخدمة المخزنية. فالسلطان، حسب لوكوز، كان يتوفر على "عزائب على طول طريق السلطان"، وبالشراردة، وبحجاوة (عزيب حجر الوقف بسو)، وببني مالك، وعزيب الفسورات بجنوب عريابو، وهناك عزائب أخرى بضواحي مراكش ومكناس تتكون من ألف زوجة حرث أي ما يعادل 15000 هكتار¹⁰⁵.

فالعزيب يشكل ضيعة كبرى تضم أراض تستغل في الغالب في الرعي وبعض الزراعات، يكون في ملكية السلطان الذي يقطعه إلى زاوية أو شريف¹⁰⁶ محدد، وفق ظهور يحدد تفاصيل هذا الإقطاع، التي تتطرق حتى إلى عدد العزابة أو "لمسلمين" الذين يكونون في خدمة مالك العزيب، والذين لا تحق لهم المغادرة إلا بإذنه، فهم بيد صاحب العزيب الذي يجوز له بيعهم أو كراؤهم أو منحهم لعزيب آخر، فبين "العزابة وأسيادهم علاقات قنانة"¹⁰⁷ تنضبط لمضمون تراثي.

¹⁰⁴ حسب ابن منظور فإن العزيب من "عزبت الإبل بمعنى أبعدت في المرعى، وأعزبها صاحبها وعزب إبله وأعزبها، أي بيثها في المرعى ولم يرعها" العزيب في الأصل هو المخيم الرعوي البعيد عن الدوار أو القرية، ويعني المذشر الذي يحرسه رجل أعزب "عزائب"، واستعمل من بعد للدلالة على الأرض الزراعية البعيدة، والتي يملكها مالك غائب، بهذا المعنى تقصد الأراضي الرعوية التي كانت من ملكية الأسر الحضرية بفاس، وكان لهذا المفهوم كذلك معنى مؤسسي أي بكونه هبة أو إنعام، يمنح للشرفاء والزوايا. أنظر:

ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، مرجع سابق، ص. 597.

مجموعة من الباحثين، معلة المغرب، الجزء 18، مرجع سابق، ص. 6069.

¹⁰⁵ Jean le Coz, Le Gharb, Fellahs et colons, Tome I. 1964. p.293.

¹⁰⁶ في هذا الصدد يؤكد ميشو بلير بأن السلطان مولاي إسماعيل أقطع الشيخ مولاي عبد الله الشريف شيخ الزاوية الوزانية عزيب المعايدة القريب من القصر الكبير مكافأة له على حسن خدمته للمخزن، وذلك بمقتضى ظهور شريف مؤرخ في فاتح ربيع الأول عام 1083 هـ الموافق 27 يونيو 1672 م. أنظر:

Michaux Bellaire, Les tribus arabes de la vallée de Lekkou, In: Archives berbères, Vol. V. 1905. p.87.

¹⁰⁷ عبد الهادي المروري، القبيلة، الإقطاع والمخزن: مقارنة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث (1844-1934)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005، ص. 178.

إن العزيب كفضاء سكني رعوي سينضاف إلى معطى النواله والدور المبنية بالأحجار والطين في ظل واقعة الاستقرار، وسيدل على تلك السكنى الثانوية المخصصة للرعاة "السراح"، من أجل إيوائهم وماشيئهم خلال مواسم الانتجاع. وتكون في الغالب الأعم مسورة بسور عال تتوسطه سكنى "مول البلاد" فضلا عن نوالات للرعاة والخدم، وتحيط بها أراضٍ تجسد الرأسمال المادي للملاك وتحدد مستويات من التراتب في علاقته برعائه وخدمه.

لكن العزيب لم يكن حكرا على المجال الرحماني، بل كان حاضرا في كثير من مناطق المغرب، وبصيغ متعددة، ولعل هذا ما جعل ميشو بلير يؤكد بأن العزيب ليس فقط ضيعة، بل قد يكون دوارا أو جزءا منه أو قرية كاملة بحيث يعتبر سكانها، من الآباء إلى الأبناء، في خدمة الشريف أو خلفه من طرف السلطان¹⁰⁸. فهل يتعلق الأمر بأرض مخزنية تحت مسمى العزيب؟

لا يعني ظهور العزيب في المجال الرحماني فقط الامتزاج بين نشاطي الترحال والاستقرار، بل يشير إلى ملامح جديدة من الملكية العقارية، بدأت تتجذر مع امتلاك المجال، وتأكيد السيطرة على الحوز. وهي الملكية العقارية التي تتوزع على صنوف شتى من الأراضي، كالأحباس والأملاك المخزنية وأراضي الكيش والجموع والملك الخاص، هذا الأخير الذي تبلور بكثرة في بدايات القرن العشرين، وتحديدًا مع سياسة القياذ الكبار التي انتهجها المستعمر الفرنسي في منطقتي التهدين **Pacification** وبسط النفوذ.

ثالثا: السيادة العقارية:

كانت الأرض ولا زالت مفتاحا لفهم دينامية العلاقة بين الإنسان والمجال، كما أنها تاريخيا تؤسس لعلاقات وتراتبات، وتخزن صراعات وتوافقات، فالأرض تعتبر "المحرك الأساسي للوحدات الاجتماعية في كل المجتمعات الزراعية، فقد كانت في المغرب، ولا تزال البؤرة المحورية التي يحتمد حولها صراع تلك الوحدات الاجتماعية، سواء كانت حضرية أو ريفية"¹⁰⁹.

إن أولى الأنماط العقارية بالنسبة لقبيلة الرحامنة ستكون في البدء مرتبطة بأراضي الجيش وأراضي الجموع، فالأولى أقطعت للقبيلة لقاء خدماتها التي أسدتها لفائدة السلطة المخزنية، والثانية ظهرت بسبب جدل الانتجاع ثم الاستقرار في مجالات ضعيفة الجاذبية بسبب جفافها واستعصاء العيش بها. فالرحامنة إلى جانب قبائل "أولاد دليم والمنابهة ودخيسة والمغافرة وأولاد جامع وتكنة

¹⁰⁸ Michaux Bellaire, Les tribus arabes de la vallée de Lekkous. op.cit.p.72.

¹⁰⁹ عبد الهادي الهروي، القبيلة، الانقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث (1844-1934)، مرجع سابق، ص.65.

والشبانات وذوي منيع وذوي بلال والشجع ووزارة...¹¹⁰ اعتبرت كقبائل "جياشة" أو "نايبة"، مستفيدة بذلك من عدد من الأراضي، التي كانت تمنح حسب ما تتوفر عليه القبيلة من "زوجة حرث"¹¹¹، تعكس القوة والحضور القبلي.

وهذا ما سيمهد بعدا للتراتب الاجتماعي الناجم عن الملكية العقارية للأرض، فمن يتوفر على عدد كبير من "الزوجات" سيكون بالضرورة متحكما في مساحات كبرى من الأراضي، فالعينية والقائدية لم تكونا نتاجا خالصا لمتغيرات تاريخية وسياسية، بل كانتا، وبالضرورة، ترجمة واقعية للعلاقة بالأرض أو ما يسميه غريغوري لازاريف بالنبال أو السيادة العقارية، كمفهوم يقرب أكثر من فهم طبيعة علاقات إنتاج القائدية والعينية، ذلك أن هناك علاقة وثيقة بين الملكية العقارية للأرض والسلطة السياسية التي بفضلها تكونت هذه الملكية.¹¹²

تعدو الأرض، وفقا لهذا الاشتغال، شكلا ومحتوى بارزا للانتماء والتجذر في المجتمع القروي، باعتبارها "أداة سيطرة تتولد وتتشابك حولها وعلى رأسها علاقات سلطوية"¹¹³. إنها بطاقة هوية تُشهر في وجه الجميع، لتقاس بها ومن خلالها موازين القوى والنفوذ، فكلما كبرت الأرض، كلما تعالت رهانات القوة والفعالية، وكلما تقلصت كلما ضاعت أسهم التأثير والمشروعية، "فالأرض هي أهم ثروة في المجتمعات الزراعية"¹¹⁴.

كانت السلطة المخزنية تمنح قوادها وأعيانها من يفترض فيهم أنهم يقدمون لها خدمات ملموسة، كانت تمنحهم أراضي تسمى بالـ "تنفيذة" أو "ملك إضافي" في حوز مراکش، بلغة القصر

¹¹⁰ مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1984، ص.331.

¹¹¹ يشير أحمد التوفيق إلى أن زوج الحرث هو "مفهوم يطلق على المساحة التي يحرثها الفلاح بحراث بحجرة زوج من الدواب، وقد قدر يترك هذه المساحة بـ 11 هكتارا، وقدرها دوزي ما بين 7 و8 هكتارات، فيما أوضح لوكونز أن زوج الحرث يقدر بـ 10 إلى 12 هكتارا"، ويضيف التوفيق قائلا بأن "الزوجة ثلاثة أصناف: زوجة كبيرة وزوجة متوسطة وزوجة صغيرة، حسبما إذا كان زوج البهاشم الجبارة هو الجمال أو البغال أو البقر أو الحمير، وقد كانت قوة القبائل تقاس، إلى جانب عدد سواعدها، بعدد امتلاكها للزوجة الحرث، وفي هذا الصدد ذكر ابن الخطيب، بأن وطن دكالة كان يبلغ عدد أزواجه 3000 زوج من أزواج البيران، أما ابن قنفذ فقد ذكر أن عدد أزواج حرث دالة كانت تقدر بعشرة آلاف".

أنظر: أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: (إينولتان، مرجع سابق، ص.202).

¹¹² Gregory Lazarev, Remarque sur la seigneurie terrienne au Maroc, In: Colloque "Structures et cultures pré-capitaliste, Anthropolos, Paris, 1981, p.410.

¹¹³ Raymond Jamous, Honneur et baraka, Les structures sociales traditionnelles dans le Rif, Edition de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1981, p.56.

¹¹⁴ Henris Manderas, Eléments de sociologie, Editions Armand Collin, Paris, 1975, p.177.

و"أرض كيش" في تعبير الإدارة الاستعمارية¹¹⁵. فالتنفيذية تعني حق الانتفاع بملك من أملاك بيت المال أو بأملاك الأحباس، ويعتبر هذا الحق امتيازًا خاصًا يمنحه السلطان ويضعه تحت تصرف المُنعم عليه، قصد استغلال تلك الأرض والانتفاع بها، وتنشأ التنفيذة بظهير سلطاني يجرر غالبًا على الشكل التالي: "تنقل بالتنفيذة إلى محب جنابنا الكريم ميلود بلهاشي العبادي حق الانتفاع بأرض تاركة بحاضرة مراكش، والتي كانت سابقة بيد عبد السلام اليربوشي..."، لكن أغلب أراضي التنفيذة ستصبح، بصفة عامة ملكيات خاصة للمستفيدين منها، الذين سيوسعون من موارثهم العقاري¹¹⁶، الذي يعني رفعا من قيمة رأسألمهم المادي والرمزي في النسق القبلي العام، خصوصا مع ظهور نظام التحفيظ العقاري، بما يدل على انتقال هذه الأراضي من سجل العطايا إلى سجل التملك.

كما كانت تتخذ صيغ العطاء المخزني تفويت "العزيب"، علما بأن مدارات الاستفادة من هذه الأراضي والعزائب لم تتوقف في مغرب القرن التاسع عشر عند القياد والأعيان، بل كان يفيد منها الذين تربطهم علاقات قرابة مع القصر، والذين يعملون فيه من كبار الموظفين وأنجال العائلات المخزنية الكبرى بالإضافة إلى كبار العسكر وأعيان الزوايا¹¹⁷ الذين كانوا يفيدون أكثر¹¹⁸ من العزائب.

هذا الوضع الاجتماعي سنترجمه واقعيا الوضعية العقارية للأرض بالمجال الرحماني، حيث نجد الملك الخاص يحتل المرتبة الأولى بنسبة 54 بالمائة من مجموع الأراضي، فيما أراضي الجموع¹¹⁹ تأتي في

¹¹⁵ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, op.cit.p.276.

¹¹⁶ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, op.cit.p.27

¹¹⁷ كانت الزاوية المصلوحية تتوفر إلى حدود سنة 1876، وهي السنة التي توفي فيها شيخها الحاج سعيد بلحاج المصلوحي، على نحو 1500 هكتار من الأراضي، يمتلك فيها الشيخ عزيب غثمتيس بالحوز، وعزيب أكافاي وعزيب تيورار بوادي نفيس وعزيب بالقواسم بولاي ابراهيم بن أحمد، وعزيب مولاي أحمد الوافي وعزيب دار العين، وهي كلها عزائب وهبت للزاوية من طرف السلاطين العلويين.

أنظر: Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, op.cit.p.286.

¹¹⁸ "في بداية القرن العشرين كان مولاي علي ومولاي أحمد ابنا السبي عبد السلام الوزاني يملكان 18 عزيبا تحتوي على 150 خيمة وتشمل هذه العزائب 2255 فردا من السكان، و204 من البنادق و22 فارسا، و194 زوجة حرث، و5650 رأسا من الغنم، و599 رأسا من الأبقار، و200 من أنقى الخيل. واستمر الوزانيون يملكون حوالي 5000 هكتار حوالي سنة 1930".

أنظر:

Abdejalil Halim, L'Iqta' et l'appropriation de la terre au Maroc: Le statut de la terre et des hommes dans le Gharb du 19 siècle, Thèse DES, faculté des lettres et des sciences humaines, rabat, 1978.p.69.

¹¹⁹ تعد أراضي الجموع من أهم مكونات "الاحتياطي العقاري" بالمغرب، فهي تمتد على نحو 12 مليون هكتار، أي ما يناهز ثلث المساحة الفلاحية والرعية، كما أنها تشكل 4631 جماعة سلالية، وتشمل 2.5 مليون من ذوي الحقوق من بين 10 مليون نسمة في المجموع، وتوزع على 48 إقليم وعمالة.

المرتبة الثانية بنسبة 45 بالمائة، ثم الأملاك المخزنية بنسبة 0,3 بالمائة وأراضي الأحباس بنسبة 0,01 بالمائة، فضلا عن أنماط أخرى للملكية تنحصر في نسبة 0,69 بالمائة¹²⁰.

سيفرز الانتقال من الحيمة إلى النواة، نهاية واقعا مجتمعيا جديدا، ينكشف في شكل علاقات وبنيات وملكيات، تختزل في قائدية مؤثرة وعينية فاعلة، ستحسم حال ومآل الرحامنة في مستويات أخرى من الحضور القبلي.

فالعلاقة بين الإنسان والمجال، لا تقتصر فقط في تأثيراتها، على تدبير الاستقرار، وتغيير أنماطه وملاحظه، بل تؤثر أيضا في الحركية الاجتماعية وإنتاج الزعامات وبناء العينية، فالمجال ليس مجرد معطى جغرافي، بل هو مجال سياسي لصوغ العلاقات وإنتاج الوضعيات الاجتماعية، وعليه فكل تحول في تدبير المجال لا بد وأن ينسحب على مجموع العلاقات والبنيات الاجتماعية للقبيلة. ومنه نقول بأن الانتقال من الحيمة إلى النواة، لم يكن ليحصر فقط عن تطور عاج من واقعة الترحال إلى الاستقرار، بل يدل على تحولات عميقة في مبنى ومعنى الحياة المجتمعية لقبيلة الرحامنة.

و في الأصل فإن أراضي الجموع تمتلكها جماعات سلالية تقوم بتسييرها حسب الأعراف السائدة لديها، فهي لا تملك ولا تباع ولا تهجز، بل هي أراضي تنتفع منها الجماعات السلالية، ويقصد بالانتفاع استغلال الأراضي مدى الحياة من طرف ذوي الحقوق، زراعيًا أو رعيًا أو عن طريق الكراء وهو شكل حديث من الانتفاع.

أنظر: عبد الكريم بالزراع، أراضي الجموع: محاولة لدراسة بنيتها السياسية والاجتماعية ودورها في التنمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998، ص. 22.

¹²⁰ معلومات مأخوذة من المديرية الإقليمية للفلاحة بإقليم قلعة السراغنة.

الفصل الرابع:

المجال والإنسان التمك وإعادة البناء

ما المبرر الداعي إلى قراءة جغرافيا الرحامنة؟ وما الذي يمكن استخلاصه من خلال القراءة الوصفية الأولية لهذا المجال الجغرافي؟ وهل من تأثير للانتماء الإيكولوجي في تحديد البنيات الاجتماعية للقبيلة؟

إن التساؤل عن المجال ينطوي على هدف قياس جملة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي بصمت مسار القبيلة، خصوصا وأن الارتباط بالمجال يتجلى في التفاعل معه عبر أنشطة متعددة، تتجاوز ما هو اقتصادي فلاحي إلى ما هو سياسي وثقافي يحدد اشتغال القبيلة وعلاقاتها الداخلية والخارجية. فهذا المجال لم يكن بالمرّة معزولا عن الإنسان الذي "يمتلكه" أو يعيش فيه ويتفاعل فيه اجتماعيا وسياسيا، بل وينتج فيه وعليه علاقات ومؤسسات دالة عليه، ومحددة لهويته وامتداده التاريخي.

يعبر المجال بقوة عن آليات الضبط الاجتماعي، بل إنه يؤسس لرهاناته واستراتيجياته المركزية من خلال دينامية الفعل التي تؤطره، بحيث يصير كل مجال معبرا بالضرورة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية وخصوصية الصراع وباقي ملامح الفاعلية الاجتماعية التي تعتمل في رحابه، ومن هنا تتبدد مقولة "حياد المجال"، وتتأسس تبعا لذلك إمكانيات التأثير بالضبط الذي تمارسه القوى المالكة لوسائل الإنتاج والإكراه في المجتمع. "فليس هناك مجال لا يتم إنتاجه اجتماعيا، كما أنه ليست هناك علاقة اجتماعية لا تعبر عن نفسها في المجال"¹²¹، وبذلك يغدو المجال مفسرا للتراتب الاجتماعي والتفاعل السياسي والثقافي.

¹²¹ بيير بورديو، الحياطة الرفيعة والثقافة الرفيعة، في: مجموعة من الباحثين، تساؤلات الفكر المعاصر، ترجمة: محمد سبيلا، منشورات الزمن، سلسلة ضفاف، الرباط، الطبعة الأولى، 2009، ص. 25.

أولاً: الظروف الطبيعية:

تتكون تضاريس¹²² منطقة الرحامنة من كتلة قديمة مشرفة على الهضاب في الشمال، وهضبة الكنتور في الجنوب، هذا بالإضافة إلى سهل البحيرة وسلسلة الجبيلات الوسطى التي يتراوح عرضها بين 10 و20 كلم. فالكتلة القديمة بشمال المجال الرحامي تتكون من ترافضات ممتدة على عدة كيلومترات من العوارض الكوارتزية البالغة علو 700 متر والتي تفصل بين مساحات شيبسية عريضة سطحها التعرية.

أما هضبة الكنتور التي تمتد جنوباً، والتي تشتهر بتوفرها على احتياطي مهم من الفوسفات، فهي عبارة عن شريط مستعرض شبه مستو، يتراوح عرضه بين 10 و20 كيلومتراً، ويتكون من كلس الكريتاسي والأيوسين، في حين يعد سهل البحيرة في الأصل أخدوداً بنيوياً مطموراً بالظمي وباقي الإرسابات الحديثة. في الجنوب نجد سلسلة الجبيلات التي عرفت تعرية انتقائية خلقت محرات واسعة تخترق هذا الحاجز من الشمال إلى الجنوب، لكن طياتها العميقة مرفوعة بمحركات بنائية حديثة نسبياً كانت وراء الطابع الجبلي الحقيقي حيث تتعدى بعض القمم ارتفاع الألف متر.

يتميز مجال الرحامنة بمناخ قاري جاف متأثر برياح الشرقي صيفاً، حيث ترتفع درجات الحرارة خلال الصيف وتنخفض في فصل الشتاء، حيث تصل درجة الحرارة الدنيا 4 درجة س، أما درجة الحرارة العليا 40 درجة س، فيما التساقطات المطرية الدنيا تصل إلى حدود 92.80 ملم والتساقطات المطرية العليا 469 ملم، وعلى العموم فمناخ الرحامنة "يتسم بقلة التساقطات وعدم انتظامها خلال الفصل المطير، كما يتسم فصل الصيف بالطول والحرارة المرتفعة"¹²³، فعدد الأيام الممطرة لا يتجاوز أربعين يوماً في السنة.

إن ما يمكن استخلاصه من القراءة الأولية لهذا المجال الجغرافي ذي الإمكانيات الطبيعية المتواضعة أو المحدودة في مطلق الأحيان، هو احتمال تأثير هذه الوضعية على السلوك الاقتصادي للسكان، وذلك في مستوى تراجع النشاط الزراعي في مقابل ارتفاع النشاط الرعوي، وانتقال ذلك تأثيراً إلى مستوى الاستقرار ونسبة الكثافة السكانية. فكيف تفاعل الإنسان الرحامي مع هذا المجال؟

¹²² لايجاز هذا الفصل ثم الاعتماد على مجموعة من الوثائق نذكر منها: وثائق المديرية الإقليمية للتجهيز والمديرية الإقليمية للفلاحة بقلعة السراغنة، مونوغرافية إقليم قلعة السراغنة، مونوغرافية بلدية بن جرجير، مونوغرافية سيدي بوعثمان، فضلاً عن مادة الرحامنة ضمن معلة المغرب.
¹²³ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتها بالمخزن، مرجع سابق، ص. 87.

وكيف دبر علاقته به؟ وما الذي انعكس واقعيا في تدبير وإنتاج هذه العلاقة؟ هذه أسئلة تطرحها القراءة الأولية للمجال، وعلى البحث في مراحل متقدمة أن يجيب عنها.

ستنعكس الوضعية التضاريسية والمناخية للمنطقة على التربة والغطاء النباتي¹²⁴ والموارد المائية، وهو ما يمتد بدوره إلى مختلف الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية للإنسان الرحماني، فالرعي كنشاط أساسي في هذا المجال هو نتيجة محتملة لتفاعل معطيات هذه الوضعية، لهذا لم تكن الزراعة إلا نشاطا محدودا وتكميليا بالنسبة للرحامنة، ولعله سبب آخر من أسباب تأخر الاستقرار والاستمرار في الترحال إلى حدود القرن التاسع عشر.

بالرغم من تموقع الرحامنة ما بين "النهر والنهر" (تانسيفت وأم الربيع)، فإن الاستفادة من مياهها تظل متواضعة جدا ومقتصرة فقط على الأراضي المجاورة لها، علما بأنه يلاحظ غياب أي تصريف مائي سطحي منظم داخل الرحامنة. أما المياه الجوفية فتظل بدورها غير كافية أو منعدمة أو يعسر الوصول إليها بحكم عمق الفرشة المائية، تماما كما هو الأمر بالنسبة لسهل البحيرة الذي مكنته تكويناته الرسوبية من اختزان أهم الموارد المائية، التي يصل عمقها في بعض الأحيان إلى حوالي 100 متر.

ولعل هذا ما يجعل من الرعي وتربية الماشية النمط الفلاحي الأكثر انتشارا في المنطقة، فالمساحة القابلة للزراعة "لا تتعدى في أحسن الأحوال نسبة 40٪، وتتحصر بالأساس في شريطين بأقصى الجنوب وأقصى الشمال الغربي"¹²⁵، فالزراعات التي تنتشر أكثر بالمنطقة هي الحبوب، والشعير منها بدرجة أعلى، لأنه يستطيع "مكابرة البرودة ومصابرة العطش" فضلا عن القمح، وذلك في المناطق البورية، أما في المناطق السقوية، الضيقة المساحة، فهناك زراعات للفلول والذرة والشبية التي تشتهر بها الرحامنة الشمالية.

¹²⁴ تنتشر بالرحامنة بعض النباتات والأشجار التي تتعايش مع الظروف المناخية القاسية، كالنخيل (البرواك) والسدر والعتاب والدفل والطرفاء والقصب قرب الهجرين (تانسيفت وأم الربيع)، فضلا عن الصبار الذي ينتشر بكثافة في المجال الرحماني. ويفسر التراجع المستمر للغطاء النباتي، ولو في مستوى السدر والعتاب، ليس بسبب الظروف المناخية فقط، ولكن أيضا بسبب ظاهرة "التجذار" التي تعني الحفر في الأرض بحثا عن جذور السدر، من أجل توفير الحطب الذي كانت تطالب به القبيلة من طرف المخزن. فبالرغم من عدم توفر الرحامنة على غطاء غابوي، فإنه كان مطلوباً منهم توفير ما يناهز 10600 حملا من الحطب سنويا لفائدة "الكشينة السعيدة".

أنظر: عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتها بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرجع سابق، ص 78.

¹²⁵ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتها بالمخزن (الكتاب)، مرجع سابق، ص 88.

وسبب تعذر ممارسة الزراعة السقوية في مجموع الرحامنة، فإن تربية الماشية كانت بديلا وامتدادا أيضا لتاريخ القبيلة، ولهذا فقد عرفت القبيلة، منذ استقرارها بالجزر، بالرعي والانتجاع، لقد اشتهرت بنشاط تربية الماشية الذي كان 'يعتمد إلى حدود العشريات الأخيرة، من القرن التاسع عشر، على الإرعاء الحر ونمط نصف الترحال أو الانتجاع، سواء داخل المراعي الإقليمية التي كانت كلها تقريبا جماعية، أو في مراعي الإقليم المجاورة وحتى البعيدة'¹²⁶.

ثانيا: إعادة بناء المجال:

لكن قراءة هذا المجال في هذا "الهنا والآن" فهي مختلفة كليا أو جزئيا عن قراءته خلال مغرب القرن التاسع عشر، أو أثناء الفترة الاستعمارية، فالقراءة التي نقترحها معنية بشرط تاريخي آخر، تم فيه الانتقال "رمزيا" من المخزن إلى الدولة، ومن معطى "القبيلة" إلى الإقليم كوحدة ترابية وليس قبلية. فالدولة باتت في مستوى هذه القراءة منتجة لهذا المجال ومتحركة فيه عبر آلية التقسيم الإداري.

فإذا كانت القبيلة والسلطة المخزنية مضافا إليها علاقات المد والجزر مع القبائل المجاورة، كلها عناصر مساهمة في إنتاج المجال وتدبيره قبلا، فإنه يمكن القول بأن عملية التحديد والترسيم والإنتاج وإعادة الإنتاج صارت اليوم تحمل توقيع الدولة وليس القبيلة.

وهنا لا بد من التساؤل عن غائية التقسيم الإداري الذي جاء به المستعمر أولا وطبقه المغرب المستقل بعداء، هل كان الغرض هو استحداث آليات جديدة لتدبير المجال؟ أم كان الهدف "تدمير" البنيات التقليدية، أملا في الانتقال من زمن القبيلة إلى زمن الجماعة والدائرة والإقليم؟

نحبينا رحمة بورقية بالقول بأن "الغاية من التقسيم الترابي هي القضاء إداريا وعاطفيا على الإطار القبلي كنموذج تقليدي للتنظيم الاجتماعي، وتعويضه بتنظيم جديد يستجيب لمقتضيات الحداثة"¹²⁷، لكن هل بإمكان هذا التنظيم الجديد القضاء نهائيا على رسوخ الخطاطات التقليدية المميزة للمجتمع المغربي؟

بالطبع لقد تم استبدال الإطار القبلي بالإطار الترابي، لكن وبالرغم من ذلك، فإن الانتماء إلى القبيلة أسبق على الانتماء إلى الوطن، وما زال المواطن المغربي يشهر هويته القبلية قبل موطنه

¹²⁶ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن، نفس المرجع. ص. 88.

¹²⁷ رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الغايات والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1991. ص. 120.

المجالي المديني أو القروي. "فلقبيلة آثار بارزة في بعض أنماط السلوك، وفي بعض رموز الانتماء ومركز الولاء"¹²⁸. فإذا كانت القبيلة تحتفي على مستوى الخطابات، فإنها تحضر بقوة على مستوى العلاقات والممارسات، وهو ما يؤدي إلى إنتاج وتحذير خطاطة "مؤسسات عصرية بعلاقات وممارسات تقليدية".

لاحقت المراهنة على التقسيم الترابي المقرونة بإهمال المعطى القبلي في إلحاق الرحامنة بإقليمي مراكش وقلعة السراغنة، بالرغم من غياب تجانس عرقي أو ثقافي يحدد ويبرر هذا الإلحاق، ففي مغرب الاستقلال، وفي إطار عملية التقسيم الترابي للأقاليم والعمالات ألحقت منطقة الرحامنة أولا بإقليم مراكش، ثم ألحقت بعدا سنة 1973 بإقليم قلعة السراغنة، وكانت حينها تنوزع على دائرتين وهما دائرة الرحامنة ودائرة سيدي بوعثمان. ليستمر هذا الوضع إلى غاية الثاني والعشرين من يناير 2009 التي تم فيه الإعلان عن إحداث أقاليم وعمالات جديدة يوجد ضمنها إقليم الرحامنة.

ينقسم هذا المجال ترابيا إلى 21 جماعة قروية (سيدي غانم، سيدي عبد الله، سيدي منصور، سكورة الحدر، أيت طالب، بوشان، تزميرين، أيت حمو، اليريكين، الجعافرة، أولاد حسون الحمري، سيدي علي البراحلة، نزالة لعظم، أولاد ملول، المحرة، عكرمة، سيدي بوبكر، الطلوح، جعيدات، رأس العين، بوروس) ومركزين حضريين (صخور الرحامنة وسيدي بوعثمان) وبلدية واحدة (بن جرير)، تنوزع كلها على سبع قيادات وهي: سيدي بوعثمان، لوطا، رأس العين، ليريكين، بوشان، صخور الرحامنة وأولاد تميم.

عموما فالرحامنة يتم تقسيمها جغرافيا، إلى الرحامنة الشمالية والتي تنوزع على صخور الرحامنة وأولاد تميم، والرحامنة الوسطى التي تمتد على بن جرير واليريكين، فيما الرحامنة الغربية تضم منطقة بوشان والرحامنة الجنوبية تمتد على سيدي بوعثمان ورأس العين ولوطا.

ويلاحظ من خلال التسميات التي أطلقت على هذه الجماعات والقيادات أنها سارت في اتجاه استبدال المعطى القبلي بوافد ترابي يتأسس على "علامات"¹²⁹ مجالية اقتصادية أو دينية، كربط تسمية المجال بسوق أسبوعي (سبت اليريكين) أو ولي صالح (سيدي علي البراحلة) أو موقع عبوري (نزالة لعظم)، وذلك على درب استنبات الجماعة الحضرية أو القروية ضدا على القبيلة التقليدية.

¹²⁸ رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، نفس المرجع، ص. 121.

¹²⁹ يمكن القول مغربيا بأن المواقع تأخذ أسماءها من شخصيات عاشت بها، بسبب قوتها ونفوذها، كما تتخذ التسمية أحيانا أساسا جغرافيا أو قبليا له، وبذلك نلاحظ أن القراءة الأماكنية Toponomie تقودنا إلى اكتشاف انبثاء التسميات بالرحامنة تحديدا على أساس شخصيات دينية أو مخزنية ومعطيات جغرافية وأخرى قبلي ومهام تاريخية ومواقع استراتيجية.

لقد تم تكسير البنيات القبلية عبر استحداث مؤسسات بديلة واعتماد مبدأ اللاتجذر الاجتماعي لصناع القرار في الزمن المحلي، فالقائد لا ينتمي إلى القرية، والشيخ والمقدم يرتبطان أكثر بمورد الرزق والسلطة الذي هو القائد أكثر من ارتباطهما بالجماعة، كما أن المؤسسة الانتخابية التي جاءت لتعوض "الجماعة" في إطار عملية التحديث السياسي والاجتماعي، والتي هي المجلس القروي، تظل أكثر التصاقا بسلطة الوصاية أي وزارة الداخلية، أكثر من انشغالها بقضايا المجتمع المحلي، ومن الطبيعي أن يفقد منطق التكسير والاستبدال هذا إلى إفراغ الجماعة الأصلية من محتواها، وتجريدها من مهامها العضوية واختزالها في التدبير الفولكلوري أو التسويقي لقرارات الدولة ومصالح الأعيان.

"لقد تقلصت الجماعة ولم تحافظ إلا على بعض أدوارها العرفية البسيطة كالسهر على التبادل الاقتصادي المحلي أو التدخل في بعض النزاعات الفردية، وجردت من كل أدوارها لتندثر وتفسح المجال لنظام جديد أخذ في التبلور"¹³⁰. لقد تم استحداث نظام الجماعات القروية والبلدية، الذي جاء بالجماعة المنتخبة والواقعة تحت وصاية القيادة أو المقاطعة، ووزارة الداخلية في النهاية، بديلا للتدبير التقليدي والعفوي للمشارك المجتمعي، بقوة القانون "ماتت" "الجماعة" و"القبيلة"، لكنها بالرغم من ذلك استمرت في التعبير عن حياتها وفعاليتها المحدودة في أكثر من مناسبة وعلى أكثر من صعيد.

يمتد مجال الرحامنة على 5856 كلم مربع، وكانت هذه المساحة تمثل ما يقارب 59 بالمائة من المساحة الإجمالية لإقليم قلعة السراغنة (لما كان تابعا لقلعة السراغنة). وهو مجال يقطنه وفقا لنتائج الإحصاء الوطني العام للسكان والسكنى لسنة 2004 ما مجموعه 437 288 نسمة، بشكل القرويون منهم نسبة 80 بالمائة. كما أن الكثافة السكانية بالرحامنة لا تتجاوز 37 نسمة في الكيلومتر الواحد، وذلك في حدود المتوسط الأعم، لأنه مع ذلك تظل مناطق مهمة تعرف فراغات سكانية كبيرة، خصوصا في الجزء الشمالي. إلا أنه مقارنة مع بدايات القرن العشرين، يمكن القول بأن ثمة تحولات ديموغرافية ومحالية باتت تعرفها الرحامنة، وهي تحولات لا تنفصل عن مجموع ما عرفه المغرب من تراجع للمجال القروي أمام المجال المديني، وارتفاع متباين لعدد السكان وهو ما يمكن اكتشافه بجلاء من خلال قراءة الجدول التالي:

¹³⁰ Paul Pascon, Désuétude de la jmaa dans la Haouz de Marrakech, BESM, N: 155-156, janvier 1986, p.190.

تطور عدد السكان بالرحامنة

2004	1994	1982	1971	1960	
693 62	47080	22354	6941	-	بلدية بن جرير
426 12	2872	-	-	-	مركز سيدي بوعثمان
989 9	3526	2400	1550	-	مركز صخور الرحامنة
203329	213053	208486	215410	-	المجال القروي
33421	30769	29674	34454	30733	عدد الأسر في مجموع الرحامنة
437288	266531	233240	216964	165288	المجموع

المصدر: الموقع الإلكتروني للسندوية السامية للتخطيط: www.hcp.org.ma

يفيد هذا الجدول في قراءات متعددة للنمو الديموغرافي بالمجال الرحامي من جهة، والانتقال من زمن القرية إلى زمن المدينة من جهة ثانية، كما يسعف في موضوعة هذه التحولات الديموغرافية والمجالية. فمدينة بن جرير، أقدم وأكبر تجمع حضري بالرحامنة سوف تعرف نمواً ديموغرافياً عالياً ما بين سنة 1971 و2004، فمن 6941 نسمة إلى 62693 نسمة وبنسبة زيادة دالة تقارب عشر مرات. وهو ما يفسر بتحول بن جرير إلى منطقة جذب، في إطار الهجرات الداخلية التي تواترت خلال السنوات الأخيرة بسبب الجفاف.

وإذا كان كان غريغوري لازاريف يؤكد أن النمو الديموغرافي كان أيضاً من بين الأسباب الرئيسية المسؤولة عن التحولات الكبرى في البوادي المغربية¹³¹، فإن المجال الرحامي لم يشذ بدوره عن ذلك، بل عرف نمواً ديموغرافياً متسارعاً، كان من نتائجه إحداث تغييرات مجالية اتسمت في مناطق متفرقة من الرحامنة بظاهرة الفراغات السكانية¹³²، وفي أخرى بالكثافة السكانية وتواتر الهجرات خصوصاً في اتجاه المراكز الحضرية الكبرى بالرحامنة كبن جرير وصخور الرحامنة وسيدي بوعثمان.

تفيد قراءة الجدول السابق بأن مجموع سكان الرحامنة قد انتقل من 165288 نسمة إلى 288437 نسمة خلال نحو 44 سنة، وهو انتقال يبدو متواضعاً، لا يؤكد ما ذهبنا إليه بشأن ارتفاع النمو الديموغرافي بهذا المجال، فطيلة هذا السنوات لم يتزايد السكان إلا بـ 123149 نسمة، إلا أنه

¹³¹ Grigori Lazarev, Changement social et développement, op.cit. p.22.

¹³² تؤكد معطيات الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 2004 أن هناك تراجعاً كبيراً في نسبة الساكنة القروية في ظرف عشر سنوات من 49% إلى 45%. وتشير التوقعات الإسقاطية إلى أن هذا التراجع سيستمر إلى حدود 39 مليون نسمة خلال سنة 2025، وتعد الهجرة نحو المراكز الحضرية الكبرى من أهم عوامل هذا التراجع الذي يترجم في حالات الإفراغ السكاني الذي يبدو حاداً بالمناطق الجافة والجبلية.

بالنظر إلى ما عرفته قبيلة الرحامنة من هجرات قوية باتجاه المدن الكبرى، بسبب توالي سنوات الجفاف، وهجرات أخرى (أو تهجيريات) باتجاه الأقاليم الجنوبية للمشاركة في الاستفتاء الذي كان مزمعا تنظيمه بالصحراء، فكل ذلك يبرر الفراغات السكانية الملحوظة أساسا بعدد من جماعات الرحامنة كالظلوح وبوروس ورأس العين وعكرمة والجعيدات ومحرة وبوشان وتزميرين. وهي الجماعات التي تقطنها فخذات من البرابيش وولاد دليم ويصكوت بالدرجة الأولى.

ومع ذلك فإن الانتماء المجالي القروي ما زال الأكثر حضورا في الرحامنة بالرغم من نمو المراكز الحضرية الجديدة (صخور الرحامنة، سيدي بوعثمان)، فما بين السبعينيات وبداية الألفية الثالثة لم تحدث تغيرات عميقة في مستوى تراجع الساكنة القروية، فمن 216964 نسمة سنة 1971 إلى 203329 نسمة سنة 2004 بنسبة تراجع لا تتجاوز 6,28 بالمائة، الشيء الذي يؤكد أن الرحامنة ما زالت مجالا قرويا بامتياز بالرغم من كافة التحولات الترابية والديموغرافية التي عرفتها.

إلا أن ما يميز المجال الرحامي هو الضعف المسجل في مؤشرات التنمية، فيكفي أن نعرف أن هناك 13 جماعة قروية بالإقليم تسجل بها نسبة عالية للفقر تفوق 30 بالمائة¹³³، وأن هناك 11 جماعة قروية تسجل بها نسبة فقر تتراوح بين 20 و30 بالمائة، فضلا عن كون ثمان جماعات تعرف نسبة نمو ديموغرافي ضعيفة جدا، وهو ما ينطبق على نحو 11 جماعة أخرى تتراوح نسبة نموها الديموغرافي ما بين 0 و0,6 بالمائة، وهو ما يفسر الفراغات السكانية التي تميز المجال الرحامي.

من جهة أخرى يلاحظ أن نسبة الأمية في إقليم الرحامنة تصل في الوسط الحضري إلى 35 بالمائة، وفي الوسط القروي ترتفع إلى 67,71 بالمائة، وترتفع أكثر في شمال الرحامنة إلى 69,5 بالمائة. كما أن 13 بالمائة من الأطفال في سن التمدرس لا يلتحقون بالمدرسة، و43 بالمائة من الذين يسجلون بالسنة الأولى من التعليم الابتدائي هم الذين يتحصلون على شهادة نهاية الدروس الابتدائية. وارتباطا بذات السياق فإن 37 بالمائة من التلاميذ المسجلين في السنة الأولى من التعليم الإعدادي هم الذين يمرّون إلى التعليم الثانوي، و8 بالمائة فقط هم الذين يستطيعون استكمال دراستهم في المستوى الثانوي، وهو ما يدل على أن نسب الانقطاع والهدر المدرسي تظل أكثر ارتفاعا بالرحامنة.

من ناحية المعطيات الصحية فالرحامنة تتوفر على طبيب لكل 10300 نسمة (مقابل 9300 نسمة على الصعيد الوطني)¹³⁴، وعلى ممرض لكل 3900 نسمة، وعلى إطار صحي لكل 900 نسمة، وهو ما ينعكس على صحة الأم والأطفال تحديدا، فنظرا لمحدودية الطأير الصحي وبعد الدواوير وقلة سيارات

¹³³ موناوغرافية إقليم الرحامنة، 2010.

¹³⁴ موناوغرافية إقليم الرحامنة، 2010.

الإسعاف أو عدمها¹³⁵، فإن الرحامة ما زالت تسجل بها نسب عالية على مستوى وفيات الأمهات أثناء الوضع، وتسجل بها أيضا نسب عالية للوفيات بسبب لذغات العقارب والأفاعي.

لكن السؤال الذي ما زال مطروحا لحد الآن، والذي كان محركا لاستغلال هذه الفصول السابقة، فهو متصل بالأساس بعلاقات التأثير والتأثر بين الإنسان والمجال، والتي تجد ترجمتها الواقعية في النظم والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ على إثر ذلك.

والواقع أن الانخراط في هذا النوع من البحث ليس حديثا بالمرة، بل إنه انتظم في كثير من المشاريع العلمية تحت باب الإيكولوجيا البشرية، كما أنه استعمل في إطار دراسات تاريخية وسوسولوجية مغربية جعلت من البحث في المجال منطلقا للتفكير في الإنسان، أي الانطلاق من المجال لمساءلة وقراءة البنيات السوسيو سياسية، مروراً بكل مظاهر الفاعلية المجتمعية التي تهم المعمار واللباس والطقوس والممارسات والتراتبات وأشكال العلاقات والتفاعلات مع السلط الرمزية والمادية، "فالمجال كمعطى سكوفي وراسخ لا وجود له"¹³⁶، لهذا لم يكن السؤال عن المجال في جغرافيته إلا على سبيل الاكتشاف لما يفوقه درجة في الترتيب الاجتماعي وليس الإيكولوجي.

سيعرف المجال الرحماني تحولات كبرى مع بروز الظاهرة القائدية ودخول نظام التحفيظ العقاري، اللذان سيسمحان معا بإعادة بناء التراتبات الاجتماعية وتغيير معطيات المجال، كما أنه خلال الفترة الاستعمارية، ستنتقل بدايات التمركز الحضري، وذلك مع تشييد القاعدة العسكرية سنة 1942 على بعد حوالي 12 كيلومتر من بن جرير، والتي اعتبرت حينها، وما زالت، أكبر قاعدة عسكرية بالمغرب.

اكتشاف مادة الفوسفات قريبا من بن جرير، سيؤثر مرة أخرى في المجال الرحماني، ففي سنة 1965 ستنتقل أولى الدراسات الاستكشافية التي ستتوج ببدء الاستغلال المنجمي سنة 1974.

¹³⁵ تتوفر الرحامة على 5 سيارات إسعاف تابعة لوزارة الصحة و3 سيارات أخرى منحت للإقليم في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، وضعت رهن إشارة جماعات سيدي بوعثمان، نزالة لعظم وأولاد حسون الحصري، وعموما فالبنية الصحية بالإقليم تظل متواضعة للغاية فهناك فقط: مستشفى محلي بسعة 45 سرير، و4 مراكز صحية حضرية و6 مراكز صحية قروية بعضها يتوفر على وحدات للدولادة، و18 مركز صحي جماعي و4 مستوصفات قروية، ويعمل في هذه البنيات 28 طبيبا من بينهم 6 أطباء مختصين و84 ممرض.

أنظر: مونوغرافية إقليم الرحامة، 2010.

¹³⁶ رحمة بوريقة، الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، مرجع سابق، ص. 135.

يضاف إلى هذا المعطى توالي سنوات الجفاف بالرحامنة، والتي أحدثت فراغات سكانية كبيرة، بسبب تواتر الهجرات نحو بن جرير وباقي المدن الكبرى، وهي هجرات لا ترتبط فقط بفترة الثمانينيات من القرن الماضي، بل تعود إلى سنوات الأربعينيات التي كان يستدل عليها مغربيا بعام "البون"¹³⁷.

منذ منتصف السبعينيات من القرن الفائت، على الأقل، عرف المجال الرحامي تحولات كبرى، مست مختلف البنيات الاجتماعية، ما انعكس أيضا على التظاهرات الاقتصادية للأعيان، الذين سوف تتجه ممارساتهم، تدريجيا، نحو منافذ جديدة، فاكتشاف الفوسفات¹³⁸ بالمنطقة والشروع في استغلاله ابتداء من 1980، سيجعل مالكي الأرض الذين استفادوا من تعويضات مهمة لقاء تحليهم عن أراضيهم التي اكتشف فيها الفوسفات، يغيرون من أداثهم الفلاحي، وينتقلون بالتالي إلى أنشطة اقتصادية أخرى، في المراكز الحضرية التي بدأت في البروز والتوسع، تماما كما هو الأمر بالنسبة لسدي بوعثمان وبن جرير وصخور الرحامنة.

إن البدء في استغلال الفوسفات، سيجلب معه "البراني"، الذي سيكون له سكنه الخاص قريبا من بن جرير، وهو ما سمي بحي مولاي رشيد أو حي الفوسفات، إن مقولة "البراني" في مقابل "ولد البلاد" ستتحول إلى زوج تقايي مؤثر في صياغة كثير من التمثلات والتمثلات المضادة داخل المجال الرحامي. فالبراني هو الذي "تا تعطيه البلاد" وهو الذي يفيد من خيراتها، فيما "ولد البلاد" هو "الي ما عندو زهر".

لم تكن التحولات الاقتصادية والاجتماعية مرتبطة فقط باستغلال الفوسفات، بل كانت لها أيضا علاقات أخرى بالتأثير الذي أحدثه قبلا تشييد أكبر قاعدة عسكرية بالمغرب، ومرور الطريق الوطنية رقم 9 الرابطة بين الدار البيضاء ومراكش عبر المجال الرحامي، وما تواصل بعدا من تأثيرات أخرى سلبية لإنشاء الطريق السيار الرابط بين الدار البيضاء ومراكش.

يقول عبد الجليل حليم بأنه "نتيجة للتدخل الاستعماري، تحول المغرب من مجتمع شبه طبقي إلى مجتمع طبقي، وهو تحول صاحبه مجموعة تغيرات على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية... الشيء الذي كان له أثر على حياة المجتمع بأكمله، انطلاقا من تغيير القوانين

¹³⁷ تحيل على سنوات الأربعينيات التي شهدت اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتوالت فيها سنوات الجفاف وانتشرت فيها المجاعات، وقشر الكثير من الأبحاث إلى أن سنة 1944 تحديدا، كانت بالضبط "عام البون"، حيث كان الطعام حينئذ مقننا يقدم عن طريق "بون" أي وصل.

¹³⁸ يفوق الإنتاج 5 مليون طن سنويا، ويوجه خاما إلى أسفي، عبر خط السكة الحديدية الرابط بين بن جرير وأسفي مروراً باليوسفية، ويشكل فوسفات الرحامنة ما يناهز 9 بالمائة من الاحتياطي العام المغربي من هذه المادة، ويتميز بسهولة استغلاله، لأن الأمر يتعلق بمنجم مكشوف.

الموجودة وتعويضها بقوانين جديدة تخدم تطور الرأس مال، وانتهاء بتأثير يشل أنماط التفكير والاستهلاك¹³⁹.

إن انتشار النقد وانتفاء المقايضة أدباً إلى تنقيد العلاقات الاجتماعية، وتراجع الاقتصاد العائلي وإعلاء واقعة العمل المأجور، كما أن التركيز العقاري وآليات الاستحواذ على الأراضي، ستسهم في تغيير البنية الاجتماعية القروية، عبر خلق تراثيات جديدة، وتسريع وتيرة الهجرة باتجاه المدن، وهو ما ستكون له آثار واضحة على مستوى التضامانات الجماعية التي ستعرض للتراجع في مقابل "بروز الفرد"، والاتجاه نحو الانتقال من إنتاج الكفاف إلى إنتاج السوق. لكن تركيزنا على سنوات السبعينيات بالضبط، له ما يبرره محلياً، بالاتساع الذي بدأت تعرفه المراكز الحضرية بالمجال الرحماني، وظهور عدد من الأعيان كفاعلين اقتصاديين وسياسيين في هذه السنوات.

إذا كان اكتشاف الفوسفاط قد ساهم في إغناء البعض من صغار الفلاحين، بحكم التعويضات التي منحت لهم جراء نزع الملكية من أجل المنفعة العامة، فإن الاستفادة كانت أكبر بالنسبة لعدد من الأعيان، الذين علموا بحكم قريبهم من "المخزن" أن ثمة تغييرات قادمة لا محالة، ولهذا انطلقت عملية شراء الأراضي في هضبة الكنتور من صغار الفلاحين الذين اضطروا للهجرة إلى المدن الكبرى، أو التحول إلى فلاحين بلا أرض، ولهذا كانت تعويضات نزع الملكية من نصيب الأعيان بدل أن تكون من نصيب صغار الفلاحين.

إن من أبرز هذه التحولات التي عرفها المجال الرحماني، انتقال الكثير من الأعيان إلى "الفيلاج" برساميلهم الرمزية والمادية، ودونما تفريط بالطبع في أصل البدء والامتداد، الذي هو الدوار، "فالأعيان يعيشون على أراضيهم، وإذا غابوا عن القرية أو القبيلة، حافظوا على روابط قوية معها"¹⁴⁰. إن هذا الانتقال سيجعلهم ينتقلون من امتلاك الأرض الفلاحية إلى امتلاك الأرض العقارية الخاصة بالبناء والتعمير. فالمضاربات العقارية، تعد النشاط الاقتصادي الشاغل لغالبية الأعيان. بل إن الاستثمار في العقار عموماً يظل المجال الأكثر أهمية ومردودية بالنسبة لأصحاب المال بالمغرب، إنهم لا يغامرون في أنشطة غير مأمونة أو ترتفع فيها نسبة المخاطرة، لهذا نلاحظ أن الاتجار في التجزئات الأرضية سيكون مآلاً مهنياً ونشاطاً تكميليّاً أو أساسياً لنسبة هامة من الأعيان.

إن أغلب الأعيان يمتلكون مقاه بالمراكز الحضرية للرحامنة، وهي مقاه متفاوتة من حيث التجهيزات والخدمات تبعا للموقع والغاية من الاستثمار فيها، لكن الشروع في استعمال الطريق

¹³⁹ عبد الجليل حليم، التدخل الاستعماري والحركة الاجتماعية، مرجع سابق، ص. 15.

¹⁴⁰ عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، مرجع سابق، ص. 58.

السيار الرابط بين البيضاء ومراكش، سيكون له بالغ الأثر على هذه المقاهي التي تخصصت طويلا في شواء اللحوم لفائدة مستعملي الطريق الوطنية رقم 9، والتي تفيد إحصائيات وزارة النقل (سنة 2006) أنها كانت تعرف مرور ما يناهز 50 ألف وسيلة نقل في اليوم، وهو ما كان يسهم في توفير فرص شغل ومداخل مهمة لأهم المراكز الحضرية بالرحامنة.

لكن مع انطلاق العمل بهذا الطريق السيار، فإن عدد وسائل النقل المارة من معبر الرحامنة تضاعف إلى أقل من 20 ألف وسيلة نقل في اليوم، وهو ما أثر فعلا على هذه المقاهي التي لم تجد بدا من الإقفال أو تغيير نشاطاتها. فمن أصل نحو 47 مقهى كانت متخصصة في الشواء، على الطريق الرئيسية، بمدينة بن جريبر لم تعد هناك سوى مقاه محدودة، وهو ما يعني أن نسبة المداخل قد تراجعت أو انتفت.

ولهذا لم يكن غريبا أن يأخذ الاحتجاج الاجتماعي على هذا الإهدار منحى إجراميا، وذلك في بدايات استعمال هذا الطريق السيار¹⁴¹، إذ كثيرا ما عانى مستعملو الطريق السيار من أشخاص يقومون بإسقاط الحجارة على سياراتهم من فوق القناطر المبنية، أو وضع الأحجار في وسط الطريق لإرغام السائقين على "عدم الثقة" في الطريق السيار، والعودة إلى استعمال الطريق الوطنية رقم 9.

إلا أن المتضرر في النهاية هم صغار المستخدمين وليس الأعيان، فهؤلاء يعرفون جيدا كيف يتكيفون مع المستجدات، ومع الاستعداد القبلي لها، ولهذا رأينا كيف أن بعضهم عمد إلى شراء أراضي الفوسفاط، قبل أن ينطلق مسلسل نزاع الملكية، وهو ما تكرر أيضا في تعويضات الطريق السيار.

هناك من استفاد أيضا بفضل "عينيته" من رخص نقل ومقالع (مواد البناء والرخام) ومناجم (الزنك والرصاص والباريتين)، مثلما استفاد آخرون من تخفيضات مهمة لشراء بقع بالمنطقة الصناعية بين جريبر وسيدي بوعثمان¹⁴². كما ظهر في مجموع المجال الرحامي "وارد اقتصادي جديد" أعاد مرة أخرى ثنائية "البراني/ ولد البلاد" إلى الحضور بقوة، وهو بالتحديد ذلك المستثمر الفاسي¹⁴³ الذي أطلق

¹⁴¹ أنظر جريدة المساء 6 مارس 2009

¹⁴² تضم المنطقة الصناعية بسيدي بوعثمان وحدات لإنتاج الدقيق والبيض والمعطرات الغذائية والأعمدة الإسمنتية الكهربائية (التي تزود السوق الوطنية بأزيد من 60 بالمائة من هذه الأعمدة) ومواد البناء.

¹⁴³ تعود ملكية هذه الوحدات التي تصل إلى 35 وحدة إنتاجية إلى السيد عبد اللطيف الزعيم الملقب بالفاسي (منتني لحزب الأصالة والمعاصرة، وقد حظي بزيارة ملكية لرحلته الإنتاجية بالبريكين)، إعلانا من المجتمع المحلي، لعدم تجذره الاجتماعي وانطباق توصيف "البراني" عليه، إلا أن هناك الكثيرون ممن يؤكدون أن هذه الوحدات في ملكية الجنرال حسني بن سليمان وفؤاد عالي الهمة، اعتبارا لترددهما من حين لآخر عليها، وذلك وفقا لإقالات عدد من المبحوثين.

مشاريع كبرى لتربية الديك الرومي، والذي بات يمد السوق الوطنية بأزيد من 80 بالمائة من حاجياتها من اللحم البهضاء.

لقد ظهرت، منذ بداية الألفية الثالثة، في أغلب دواوير الرحامنة الغربية وحدات إنتاج عصرية لتربية الديك الرومي، تتكون كل واحدة منها من ثلاث حظائر كبرى مجهزة بأحدث التقنيات العصرية، وهي وحدات ترفض في الغالب تشغيل أبناء الرحامنة وتصر على استقدام عمال من خارج المجال.

إن هذه الوحدات الإنتاجية التي تم إحداثها بالقرب من عدد من الدواوير، استجلبت معها "البراني" إلى الدوار، ولم يعد البراني فقط هو ذاك الذي يتواجد بالحاضرة الفوسفاطية أو القاعدة العسكرية، وليس فقط إطارا عاليا أو متوسطا، ولكنه "عامل زراعي" يصل إلى الدوار وليس الفيلاج. من جهة أخرى يظل السوق في المجال الرحماني معنيا وإلى حد كبير بهذه التحولات الاقتصادية، باعتباره ملتقى اقتصاديا وثقافيا في الآن ذاته، فليست الأسواق الأسبوعية بالمغرب مؤسسات اقتصادية صرفة، إنها مجالات اجتماعية وثقافية وسياسية، تختزل تاريخا من حياة الإنسان والمجال، وترتهن إلى قيم مؤطرة تحدد أدوارها وامتداداتها، فبالرغم من شيوع الأسواق المتنازلة في كبريات المدن، وبالرغم من "حالة القرب" التي يلجأ إليها اقتصاديو الاستهلاك، في شأن تقرب المنتجات من سكان المدن والبادي، فإنه من المستبعد جدا الاستغناء عن السوق الأسبوعي في المتن القروي أو حتى الحضري.

كانت الأسواق وما زالت مجالات اجتماعية لإجراء تبادلات رمزية أكثر منها مادية، فالسوق هو نتاج اجتماعي بالدرجة الأولى، أوجدته القبائل والزوايا والمخزن، لتنظيم المعاملات بين الأفراد والجماعات، وفق أعراف تصكد يلوح في تدبير وإنتاج مختلف هذه الأسواق. فالملاحظ دوما هو كون موقع السوق يخضع لشروط معينة تتوزع على الالتقائية والحياض والقرب من المقدس، ذلك أن أغلب الأسواق هي في مناطق وسطى بين القبائل في حالة الأسواق الكبرى، وبين الفخدات في حالة الأسواق الصغرى، الشيء الذي يضمن عنصر القرب والالتقائية.

من جهة ثانية نجد أن أغلب الأسواق تقع في مناطق "غير ملغمة" بالمشاكل والنزاعات وبالضبط في مناطق محيطة تستجير في الغالب بالمقدس (زاوية، ضريح، عين أو بئر مقدسة...)، وذلك

ضمانا للأمن والسلم الاجتماعيين، فتمت "قانون ضمني يحرم حمل السلاح في السوق"¹⁴⁴، باعتباره مجالا يسري عليه منطق "الحرم".

إن ضمان الاستدامة بالنسبة للسوق يكون رهينا بدعم السلطة المركزية وحماية الأولياء والشرفاء والزعامات المحلية، ويدون توافر هذا الدعم فإن السوق لا يكتسب مزيدا من الإشعاع، ولا يستقطب كثيرا من القبائل. إن شروط إنتاج السوق بناء على هذا الترتيب، تفيد في تحديد أدواره ومهامه بالنسبة للقبائل التي تؤمه، فهو، بالإضافة إلى شرطه الاقتصادي المركزي، يعد فضاء للوساطة من أجل حل النزاعات وريط العهود والمواثيق والإخبار والتواصل.

لقد انتهى دافيد هارت في دراسته عن قبيلة بني ورياغل بالريف إلى التأكيد على أن الأسواق الأسبوعية التي تشتهر بها أغلب المناطق المغربية "تؤدي وظائف عديدة في الحياة القبلية باعتبارها مركزا لهذه القبائل على المستوى الاقتصادي والتواصلي والاجتماعي والسياسي"¹⁴⁵. فهذه الأهمية التي تحتلها الأسواق في المجتمع المغربي، كانت سببا رئيسا وراء انشغال كليفورد غيرتز بسوق صفرو، معتبرا "السوق كمؤسسة اجتماعية خاصة مميزة للحضارة المغربية، وذلك بالنظر إلى أبعاده الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المتعددة، فضلا عن مستوياته القبلية والدينية وعلاقاته السلطوية والتراتبية"¹⁴⁶.

فالسوق بالنسبة لغيرتز هو "المؤسسة/ المفتاح" الذي من خلالها نلج إلى تفاصيل المجتمع وشكل ومحتوى التبادلات والتفاعلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، ففي السوق نكتشف التبادلات الاجتماعية والإنتاجات الرمزية والمادية، التي يحددها "الحس المشترك والدين والفن والقانون والإيديولوجيا السائدة"¹⁴⁷. وعليه فعندما نلج إلى سوق الدلائة بين جرير، نكتشف أننا أمام فضاء اجتماعي له من النظم والقواعد والمعايير ما يجعله مؤسسة مركزية في تدبير المشترك، وفي نقل وتبادل الأخبار والإشاعات، فسوق الدلائة هو السوق المركزي للقبيلة، الذي يحرص أغلب الأعيان على زيارته وتسجيل حضور دال فيه، بمختلف الصيغ والممارسات.

¹⁴⁴ Clifford Geertz, Le souk de Sefrou: Sur l'économie du bazar. Trad. et présenté par Daniel Cefail. Paris, Bouchène, 2003.p.155.

¹⁴⁵ دافيد مونتميري هارت، أيت ورياغل: قبيلة من الريف المغربي (دراسة إثنوغرافية وتاريخية) الجزء الأول، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أونبا، عبد الحميد عزوزي، عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى، 2005.ص.102.

¹⁴⁶ Clifford Geertz, Le souk de Sefrou, op.cit 2003.p 8.

¹⁴⁷ Clifford Geertz, Le souk de Sefrou, op.cit 2003.p 26

إن الفهم الذي يقترحه غير تزلز للسوق، يندرج في سياق نقاش معرفي حول النظام والمعنى، وعلاقة الاقتصاد بالثقافة، فمن طريق الوصف الكثيف الذي انتصر له، وهو يدرس سوق صفرو، تمكن غير تزلز من التحليل الرمزي للنسق الثقافي الذي يميز نظام السوق، ليس كمؤسسة اقتصادية صرفة، بل كمؤسسة اجتماعية متعددة الأبعاد.

أهم الأسواق الأسبوعية بالرحامنة



المصدر: البحث الميداني، 2009

إن أهمية السوق بالنسبة للأعيان لا تتوقف عند مستويات التظاهر الاقتصادي، بل نجدها تتصل بقوة بتدبير الممارسة السياسية في ملمحها الانتخابي، فالسوق يصير خلال الحملات الانتخابية، وقبلها بكثير، أهم قناة تواصلية لحث الناس على التصويت لصالح هذا الشخص أو ذاك.

وما يعطي للحملة الانتخابية قوتها في رحاب السوق، هو ما يحوزه السوق ذاته من مكانة رمزية في المخيال الجمعي، ففيه توثق العهود غير القابلة بالمرّة للنكث، وفيه يكون "الإلزام الملحة" عن طريق آلية الإطعام والإنفاق، كما أنه يتيح التواصل مع فئات عريضة من الناخبين، مما يسهل رواج المعلومة بين مختلف الفخدرات بأقل المصاريف الممكنة. إن السوق، بهذا الشكل والجوهر، ليس مؤسسة اقتصادية لإنماء

الرساميل المادية للأعيان، وإنما هو "نسق ثقافي" للتبادلات الرمزية والإجراءات المادية التي تفيد في إدامة البناء والتحصين الضروريين للوجاهة الاجتماعية.

وإذا كان المجال الرحماني عموما قد عرف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اتساعاً أو تراجعاً، تبعاً لقوة أو ضعف القبيلة وعلاقتها مع المخزن أو مع باقي القبائل الأخرى، فإن هذا المجال سيعرف خلال القرن العشرين تحولات أخرى، لا تتصل فقط بمحدود الحضور القبلي، بل بصيغ التسلك وأنماط الاستغلال والتفاعل مع المجال، وهي تحولات لا تنفصل عن الشرط الكولونيالي وبناء الزعامات التقليدية والقائدية، فضلاً عن معطيات مغرب ما بعد الاستقلال.

إن القبيلة كواقعة سوسيوسياسية، تسعف في فهم آليات تشكل وبناء السلطة محلياً، كما أنها تفيد أيضاً في ملاحقة شروط إعادة إنتاج وصياغة أشكال السلطة حسب التحولات التي عرفها زوج "الإنسان والمجال" كزوج مفصلي في الدرس والتحليل. فإذا كان إميل دوركهايم يلح على أن الإنسان هو، وبالضرورة، نتاج للمجتمع¹⁴⁸، فإنه، قبلاً وبعداً، نتاج للمجال الذي يستوطنه.

لكن وبالرغم من كون هذا "الزوج" على درجة مهمة ومؤثرة في مستوى التحليل، فإنه يلوح غير كاف لقراءة العلاقات والممارسات التي تنكتب فوق المجال، والتي تصير تاريخياً، من توقيع وحسم مجموعة من العوامل الخارجية والداخلية، وهذا ما يستوجب اعتبار مقولة "المجال والإنسان" كعتبة تحليلية وليس كمطمح غائي للتفكير في قبيلة الرحامنة.

¹⁴⁸ Emile Durkheim, Les règles de la méthode sociologique, PUF, Paris, 1977. p106 et 108.

الفصل الخامس:

الرحامنة والمخزن حالة المد والجزر

لم تسلم علاقة الرحامنة بالمخزن من ذلك التصور المبني على التعارض، والذي هيمن على مختلف الدراسات الكولونيالية، فكثيرا ما لاحت هذه القبيلة في الكتابات الاستعمارية وحتى كتابات ما بعد الاستقلال كقبيلة سائبة ومتردة وألا علاقة تربطها بالمخزن غير واقعة الانتماء إلى بلاد السبية في مقابل بلاد المخزن، لكن ثنائيات التعارض لا تصمد أمام حالات، تؤيد وجود علاقات مستمرة بين المخزن و قبيلة الرحامنة.

لهذا وبالرغم من تركيزنا على "سوء العلاقة" بين الرحامنة والمخزن خلال القرن التاسع عشر، فإن ذلك لا يعني انضباطا تاما لذلك التصور الكولونيالي، بل يتأسس على اعتبار هذه الوقائع السوسيوسياسية، كعناصر فاعلة في إعادة صياغة وترتيب "الاجتماعي" داخل المجال. فقراءة هذه الوقائع لا تسعف في كشف محدودية نظرية التعارض الكولونيالية، بل تساعد في فهم شروط إنتاج وإعادة إنتاج الاجتماعي وباقي مظاهر التطور السلطوي.

لقد كانت السلطة المخزنية تطرح نفسها كقوة لإعادة النظام إلى الحقل الاجتماعي عبر محو علامات الفوضى والاختلال، لكنها كانت تبدو عاجزة في كثير من الأحيان عن الاضطلاع بهذا الدور، كان الانشغال متمحورا حول بسط النفوذ والسيطرة على كل القبائل، لهذا ظلت عبارة "السلطان الذي يحكم فوق صهوة الجواد" مميزة للتدبير السياسي لمغرب تتنازعه الزوايا والقبائل والمخزن.

أولا: سجل القبيلة:

بحكم موقعها الجغرافي الذي يعد معبرا للحركات المخزنية والمحلات السلطانية، وبحكم قربها من مراكز كمدينة مخزنية، ومجاورتها لعدد من قبائل الجيش (الشراردة، الأوداية..)، فقد انبثت الكثير من صيغ التفاعل مع معطيات النسق المخزني، بل إن الرجوع حتى إلى المخزن السعودي يبرز أن

العلاقة مع أعلى مستويات التدبير المخزني كانت قائمة، وهو ما يظهر في علاقة المصاهرة التي تشلت في زواج السلطان السعدي محمد المهدي الشيخ من للا سحابة الرحمانية¹⁴⁹، وهو ما تواصل مع المخزن العلوي منذ القرن التاسع عشر إلى الآن، ويصيف متعددة¹⁵⁰.

إلا أنه لا يمكن القول بأن هذا النوع من المصاهرات السلطانية يعني انتقالا بالقبيلة من سجل إلى آخر، خصوصا إذا علمنا أن هذه المصاهرة تكون تقريبا مع جميع القبائل، بحكم أن هذه الأخيرة لا تتردد في تقديم بناتها كهدايا للسلطان خلال بعض المناسبات.

لكن هذه العلاقة لا تمنع من طرح التساؤل حول حدود استفادة القبيلة من هذه المصاهرة أو "العطف المخزني" الذي يبرز في "ظواهر التوقير والاحترام"¹⁵¹ التي استفاد منها عدد من أسباط الرحامنة قبلا؟ فإلي أي حد يتم توزيع واقتسام هذه "الثروة الرمزية" داخل المجال الرحامي؟

لا يتحدد الحضور المخزني فقط في مستوى علاقات فردية وفوقية، بل يتحقق عبر امتداد وتحذر اجتماعي ينفذه القياد والأعيان، فعن طريقهما معا يتمكن المخزن من تحذير موقعه وفاعليته، الشيء الذي يفقد فرضية التعارض قوتها التحليلية، ففي القبائل التي يتم احتسابها ضمن "بلاد السية" يسجل المخزن حضوره عن طريق ممثليه من الزعامات المحلية والدينية، فالأمر يتعلق بقبائل ذات خضوع قليل للمطالب المخزنية¹⁵²، وهو نوع من الخضوع لا يحتمل القطيعة كما تم استعماله في السوسيولوجيا الكولونيالية.

¹⁴⁹ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 62.

¹⁵⁰ يمكن أن نذكر هنا أيضا محمد الزوين بن القائد عبد الله الرحامي كان صهر السلطان محمد بن عبد الله على أخته البتول الرحمانية، وقد تكلف بهام سفارية حتى في عهد المولى سليمان، والقائد عبد الحميد بن الفاطمي الرحامي الذي عين باشا لمدينة مراكش، بإيعاز من الصدر الأعظم باحماد.

¹⁵¹ يعرف عبد الرحمن بن زيدان هذه الظواهر بكونها "وثائق تضمن للمتبعين بها التوقير والاحترام والرعي الجميل المستدام، بحيث لا يسامون بمكروه ولا تنتهك لهم حرمة بوجه من الوجوه، والاستيضاء بهم وإخراجهم من غمار العامة، حتى لا يسامون بوظيف ولا يكلفون أدنى تكليف وزكواتهم وأعشارهم يدفعونها للضعفاء من أقربائهم".

أنظر: عبد الرحمن بن زيدان، إنحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص. 99.

¹⁵² عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيتان بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 25، الرباط، الطبعة الأولى، 1995، ص. 222.

تعتبر الرحامنة من القبائل التي عرفت علاقتها بالمخزن مداً وجزراً مستمرين، ودون أن يفضيا إلى قطيعة تبرز توصيفها بالقبيلة السائبة، إنها علاقة/ نتيجة طبيعية لما كانت تعرفه السلطة المخزنية ذاتها من ارتباطك تدييري، انكشف أكثر فأكثر في هزيمة إيسلي سنة 1844 وتطوان سنة 1859. وتواصل في السياسة الجبائية التي أثقلت كاهل مجموع القبائل، وأنتجت حركات احتجاجية من صميم المجتمع المغربي، تظاهرت في السببة كاحتجاج سياسي واجتماعي.

فما تكون هذه القبيلة غير السائبة وغير المخزنية في آن؟ إنها قبيلة تنتمي إلى شرطها التاريخي والسياسي، وإذا كنا قد رأينا في الفصل السابق حركيتها المجالية من الصحراء إلى الحوز، فإن مساءلة علاقتها بالمخزن يحيل على حركية سياسية ومجالية أيضاً، فالرحامنة ليست بقبيلة من قبائل الكيش، كذلك التي كانت تجاورها من أمثال ولاد دليم والشراردة والودايا... فقد كانت تكتفي بالمساهمة في تمويل الجيش المخزني تماماً كما هو الأمر بالنسبة لقبائل النائية، إلا أن دينامية مجالها، كمجال عبور وفعل مخزني، ستفرض عليها الانخراط كلياً أو جزئياً في تفاعلات النسق المخزني بدءاً من مفتتح القرن التاسع عشر.

إن وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1790 ستدخل البلاد في أزمة سياسية إلى بداية القرن التاسع عشر، سببها صراع أبنائه الأربعة: اليزيد، هشام، سليمان وحسين حول الحكم، وهكذا فقد بايعت فاس مولاي اليزيد، وبايعت تارودانت مولاي سليمان، ودخل الرحامنة على الخط، مبايعين مولاي هشام، لكن الطاعون جاء لينهي الحرب بين الإخوة فقد رحل ثلاثة منهم إلى دار البقاء ليبقي مولاي سليمان.

لم تكن الرحامنة لتكتفي بـ "التفرج" على أزمة انتقال الملك، بل إنها كانت تبحث لنفسها باستمرار عن موقع و"استفادة" ما في مستويات التدبير السلطوي، وهذا يؤكد أن قيادها وأعيانها كانوا في تفاعل دائم مع معطيات النسق، وفي إطار هذا التفاعل سندلحظ تأرجحاً بين الموالات والمعارضة، "فقد قام الرحامنة بثلاثة تمردات كبرى خلال القرن التاسع عشر... وقد كان عنف التمردات يستمد قوته وطول نفسه من "وفرة أعدادهم وقوة شوكتهم"¹⁵³.

¹⁵³ وهي تمردات لا تقتصر فقط على العهد العلوي بل تعود إلى العهد السعدي "فقد هاجمت القبيلة السلطان مولاي زيدان السعدي سنة 1619 كما هاجمت السلطان عبد المالك السعدي سنة 1628 داخل المنطقة التي تواجدت بها بين أسفي ومراكش" أنظر: مجموعة من الباحثين، تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق، ص 4284.

لقد عرف المغرب القرن التاسع عشر العديد من الأزمات التي كانت تنتهي بمجاعات وأوبئة وفتن عارمة، بل إن واقع الأزمة، كما يقول عبد الله العروي، بات مكرسا بمتواليات السنوات، "بمعدل ثلاث سنوات من الصعوبات في كل عشرية تقريبا، فعلى امتداد سنوات 1850، 1857، 1863، 1869، 1878، 1881، 1904 و1911، عاش المغرب على إيقاع أزمات خانقة عرفت ذروتها في سنتي 1863 و1878"¹⁵⁴.

إن هذه الأزمات الناتجة عن الجفاف وتراجع المحاصيل الزراعية، وارتبكات السلطة المخزنية، وتفاعلات القبائل والزوايا معها، ينجم عنها غير قليل من الاضطرابات والقلقل الاجتماعية. وهو ما يفيد بأن المغرب القرن التاسع عشر قد انتهى إلى "غاية كبيرة من الانحدار"¹⁵⁵ كما يؤكد محمد المنوفي.

لقد أدت الغرامة الحربية التي فرضت على المغرب عقب هزيمة إيسلي إلى إفراغ مالية المخزن من كل مدخراتها، كما كان تدهور الأوضاع الأمنية وتراجع هيبة المخزن، إضافة إلى قسوة الظروف المناخية وتوالي سنوات الجفاف سببا في قيام التمردات القبلية التي عمت عدة مناطق من المغرب.¹⁵⁶

و بالطبع فإن السلطة المخزنية لا تجد بدا من تدبير الأزمة، غير الاتكاء على القبائل لمدها بالجبايات والمداخل اللازمة لتجاوز حالة العسر، فكثيرا ما كانت تلجأ إلى الرفع من قيمة الضرائب وتنظيم "حركات"¹⁵⁷ لتطويع القبائل التي ترفض أو لا تقدر على الاستجابة لكل الكلف المخزنية.¹⁵⁸

أمام تعجز واقع السببية وإعلان القبائل عدم اعترافها بالكلف المخزنية¹⁵⁹ نهى السلطة المركزية إلى التذكير غير قوادها وميعوثها بضرورة إبراء الذمة بأداء ما على القبيلة من واجبات، لكن "عددا كبيرا

¹⁵⁴ Abdellah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op.cit.p.54-55.

¹⁵⁵ محمد المنوفي، مساهمة في ندوة "لماذا القرن التاسع عشر؟"، مجلة المشروع، العدد 9، سنة 1988، ص.69.

¹⁵⁶ دنيال شروتر، تجار الصويرة: المجتمع الحضري والأميرالية في جنوب غرب المغرب (1844-1886)،

ترجمة: خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 1997، ص.152.

¹⁵⁷ "لقد قضى السلطان مولاي الحسن فترة من حياته يجول على رأس جيشه، وقد أقام ثكنات حتى ببعض

السهول لتهدئة القبائل المضطربة، وفي سنة 1874 قام بحركة ضد آيت أومالو، وفي سنة 1875، كان عليه

تهدة قبائل الرحامنة وأولاد بوسع، وآيت شعروش (زيان)، بني مكيلة، آيت شحمان، وآيت سيكرن

وآيت إيسري سنة 1888 و قبائل زمور وغياثة في سنة 1889، والريف ومنطقة البيغاز سنة 1894".

أنظر: Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, op.cit.p.192.

Henri Tiersat, Histoire du Maroc: des origines à l'établissement du protectorat français, Editions

Afrique, Casablanca, 1949, p.335.

¹⁵⁸ "لقد ضرب السلطان مولاي الحسن رقما قياسيا في عدد رحلاته وحركاته التي كانت بمعدل واحدة في

السنة، حتى اشتهر بأن عرشه كان هو صهوة جواده"

أنظر: مصطفى بوشعراء، علاقة المخزن بأحوال سلا: قبيلة بني حسن 1860-1912، مرجع سابق، ص.62.

من الكلف كان يفوق طاقة القبائل، فتواجهها في كثير من الأحيان بالرفض، إذ كثيرا ما تنكرت في الوثائق المخزنية عبارات "الانحراف عن الخدمة" أو "عدم الانقياد للخدمة" أو "التمنع عن أداء الكلف"¹⁶⁰.

ومع استمرار الرفض القبلي يكون اللجوء إلى "الحركة"¹⁶¹ خيارا لا محيد عنه، إلا أن هذا الخيار العسكري لم يكن يجدي دوما في استراتيجية التعامل مع القبائل، وهو ما كان يوجب الارتكان إلى طرائق أخرى من الاشتغال كتوجيه الرسائل الإنذارية إلى القياد والأعيان وتوظيف الصراعات بين القبائل القوية واستعمال سلطة الزوايا والشرقاء.

¹⁵⁹ تعني الكلف لغويا تحشم الأمر على مشقة، وهي تدل على ضريبة غير دينية تتمثل في تقديم مجهود عضلي أو مادي لفائدة المخزن، وتسمى بالطابع الإلزامي (يستثنى منها أصحاب الظواهر العساكر)، كما تتميز بالتنوع الكبير، وعموما تصنف الكلف إلى أعمال مجانية أو كلف مالية أو مساهمة في الحركة. أنظر: نعيمة الوزاني المراح، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1979، ص. 67.

و من بين الكلف التي أوردها أحمد التوفيق متحدثا عن التحصيلات التي يأخذها المخزن، نجد: أعشار الحبوب أعشار الزيتون، زكاة المواشي، زكاة المعادن، الجزية، الفروض والوظائف، هدايا العيد، الصلات والملاقات، الذعائر والغنائم، التكاليفات، التسخيرات والتنفيزات، مؤونة المحلة، مؤونة الدار العالية، المكوس، العلف ومؤونة الكشينة السعيدة، الرعي، العسكر ومساهمة الحركات بالمال والرجال.

أنظر: أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق ص. 500.
¹⁶⁰ فاطمة العيسوي، كلف البوادي في القرن التاسع عشر، في كتاب: البادية المغربية عبر التاريخ، تنسيق: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 77، الرباط، الطبعة الأولى، 1999، ص. 144.

¹⁶¹ "الحركة مصطلح مخزني - يسكون الرأى - وتعني شبه الغزوة أو المسيرة العسكرية والمشارك فيها يسمى الحاراك، وقد احتفظت الكلمة في اللسان الدارج بمعنى يرتبط بالفرس والركض به.. وتعني الحركات تلك العمليات العسكرية التي تنظمها السلطة المركزية لإثبات سيادتها على البلاد... وكانت الحركة مثلا في عهد السلطان المولى الحسن تضم ما بين 15 ألف إلى 170 ألف رجل، وفي إحدى الحركات الحسنية، نجد أن عدد المشاركين ناهز 15 ألف و900 شخص موزعين كالآتي: 8000 من العسكر و1500 من المسخرين 1000 من رماة الحناطي البرانيين والداخلين (المقصود أصحاب الحرف الموجودين داخل القصر وخارجه) 400 من الحمار و1000 من الراجلين و400 من أصحاب الحيل وغيرهم... ولقد كانت هذه الحركات تستهدف تأديب بعض القبائل إما لطغيانها وتعديها أو من أجل استخلاص الضرائب، فمن أجل السبب الأول تذكر حركة المولى عبد الرحمن ضد بني موسى الذين قتلوا عاملهم أحمد بن زيدوح، وحركة المولى الحسن ضد زمرور الذين قتلوا نائب عاملهم أحمد بن المودن الفرجي، وحركته ضد بني مطير الذين هجموا على مكناش وحركته ضد بني يزناش الذين أجبروا عامل السلطان بن الشليح على التنازل لصالح بن الشرشة سنة 1876، أما الحركات من أجل تحصيل الضرائب فنذكر منها الحركة على زمرور سقي 1843 و1843، وعلى تافيلالت سنة 1854 وعلى الرحامنة سنة 1875 وعلى سوس سنة 1886"

أنظر: مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلة المغرب، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص. 3379-3380.

ثانياً: التمرد القبلي:

إلا أن الحركة لا تؤول فقط إلى إنهاء واقع "الانحراف عن الخدمة" و"التنصع عن أداء الكلف" فقط، بل تعزز بالاقتصاص، الذي يتسوزع على فرض الغرامات واقتطاع الأراضي، فرداً على ثورة الرحامنة لسنتي 1861-1862 قامت السلطة المخزنية بسحب¹⁶² مجموعة من أجدود الأراضي من بلاد الرحامنة، وهو ما حدث قبلاً خلال سنة 1845 بمنح أراضٍ رحمانية لأيت إيور وأخرى للأودايا على ضفاف وادي تانسيفت سنة 1851.

يشير الضعيف الرباطي إلى أنه "في بداية عهد السلطان مولاي الحسن، قام طرف من قبيلة الرحامنة على عاملهم محمد بن بلة"¹⁶³، وهو تمرد مرير قبلياً بتعذر أداء الكلف المخزنية، وواقعة الارتباك السياسي الذي تعرفه البلاد أثناء انتقال الحكم. لكن السلطان الذي اشتهر بـ "الحكم فوق جواده" سيتوجه إلى الرحامنة "حاركا" ومقتصا.

وفي هذا الصدد يقول الناصري بأنه "لما قضى السلطان- أعزه الله- سنة العيد نهض إلى مراكش، فلما قرب من زاوية بن ساسي بين بلاد الرحامنة وزمران، نزل هناك على الرحامنة، وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وتمرد، فوظف عليهم الأحوال ما أثقل ظهورهم، وفرض عليهم من العسكر والحيل ما امتحنوا في أدائه، ولم يبق عليهم حتى أدوا جميع ذلك، وحتى خرج الأشراف والمنتسبون من أهل مراكش إلى السلطان للشفاعة فيهم، فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وأرحل عنهم، فدخل مراكش آخر ذي القعدة 1292 الموافق آخر دجنبر 1875، وكانت مدة مقامه على الرحامنة ستة عشر يوماً"¹⁶⁴.

¹⁶² يقول الناصري في هذا السياق بأنه "في سنة 1861، تمرد الرحامنة فحاصروا مراكش أربعة أشهر حتى أوشكت على الاستسلام، فاستنهض المخزن قبائل السراغنة لمواجهتهم، إلا أن جموع المتمردين (نحو 5000 رجل) كانت شوكتهم أقوى. وبعد أن فرغ السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان من فتنة "الروكي" دخل بلاد الرحامنة يوم 31 ماي 1862 في محلة قوامها 9000 رجل ومجهزة بـ 14 مدفعاً ومدفع "هاون" صغير، ورمت المدفعية المتمردين بسبع قذائف خلقت أعداداً من القتل والجرحى، ثم أمر بإلقاء ثلاث قنابل على قرية بزاوية ابن ساسي فتشتت المتمردون، وقدم 30 رئيساً من رؤسائهم الخاضع وأثقلوا بالأغلال، وكعقاب لهم، كان الجيش المخزني يمتاح مزروعات الرحامنة ونهب في ابن ساسي الأكباش والشييران والشعير والدجاج والملابس، حتى أن بعضهم اقتلع نعالي الخيول الميتة. وبعد أن أخذ المخزن من رجالها 2000 من العسكر، استحوذ على أجزاء غنية من بلادهاهي من أخصب البلاد وأزكاها، وأنعم بأخري على قبائل احمر وعبدية ولماينة وحريل وبما تبقى على أفراد من دائرة المخزن كما تراهي جيرانهم على أراض متاخمة لحدودهم متذرعين بغضب المخزن على العصاة".

أنظر: أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، 126.
¹⁶³ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، دراسة وتحقيق: محمد البوزيدي الشبيخي، الجزء الأول، دار الثقافة، البار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ص. 382.

¹⁶⁴ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، 165.

لم يكتف السلطان الحسن الأول بالحركة والتغريم بل عمد إلى آلية الضبط عن طريق التقسيم، فقد تم توزيع القبيلة على تسع قيادات تُكَلِّف قيادها بتجميع الضرائب وتوفير العنصر البشري لتدعيم الجيش المخزني، فضلا عن اضطلاعهم بأدوار حفظ الأمن وتأمين الطرق العابرة لجلال الرحامنة في اتجاه مراكش.

الرد المخزني في أعقاب هذه الانتفاضات يصكون فاسيا، ولا يتحدد في إثقال الكاهل بالغرامة، بل يعمد إلى ضرب الحصار على المجال الرحامي من جهة الجنوب، والمنع من التردد على مراعي الدير، وانتزاع الأراضي الخصبة من الرحامنة واقطاعها لقبائل أخرى منافسة لهم.

لكن تعاطي المخزن مع تمردات الرحامنة لم يقتصر على انتزاع الأرض، بل سيمتد إلى توسيع التمثيلية المخزنية، ففي عهد السلطان سيدي محمد كان هناك قائدان عاملان على الرحامنة وهما القائد محمد بن بلة والقائد العربي بن الشرقي، إلا أنه في العهد الحسني سيتم تعيين ثمانية قياد، وفي العهد العزيري سيتم تقسيم التراب الرحامي إلى عشر إيالات، عملا ببدأ "مزيديا من التقسيم من أجل مزيد من الضبط".

و الواقع أن السلطة المركزية، وبمضاعفتها، كما يقول محمد الناجي، من عدد القياد واثارتها من الأشياخ والأمناء ودعوتها لكبار الموظفين إلى المشاركة في ذلك كله، كانت تقرر النخبة القروية الجديدة وترسمها¹⁶⁵. فالتعيين يفيد في إنتاج النخب وتحديد مآلات القاعدية والعينية.

ثالثا: انتفاضة بن الطاهر:

إلا أن هؤلاء القياد الجدد¹⁶⁶ الذين اختارهم المخزن الحسني بعناية خوفا من احتمال التمرد والانحراف عن أداء الخدمة، سوف يكون بينهم القائد مبارك بن الطاهر بن سليمان الرحامي¹⁶⁷ الذي مارس مهامه كقائد في مناطق متفرقة كالريف وفاس ودرعة التي فر منها هاربا إلى الرحامنة، خوفا من ردة فعل المنتفضين ضد ممثلي المخزن، وبحكم انتمائه إلى الرحامنة، فقد استعان به باشا

¹⁶⁵ محمد الناجي، التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب (ق 16-19)، ترجمة: عبد الرحيم حزل، منشورات جذور، الرباط، الطبعة الأولى، 2004، ص. 117.

¹⁶⁶ نذكر منهم: القائد الناجم اليكوتي الرحامي، القائد المهدي الزيري، القائد محمد الاغشاوي الرحامي، القائد عيسى بن مبارك الرحامي، القائد إبراهيم بن أحمد الرحامي، القائد إبراهيم بن الحسين الرحامي، القائد العربي بن الشرقي الرحامي وعبد الحميد بن الفاطمي الرحامي، هذا الأخير الذي سيواجه متزعم انتفاضة سنة 1894.

¹⁶⁷ عمل قائدا على القبيلة من 1884 إلى 1889 ثم بعثه مولاي الحسن إلى الريف فولي على قبيلة إقلعين ثم عينه على تازة فوادي درعة، وبعد وفاة مولاي الحسن عاد من درعة إلى قبيلته، التي دخلها موقدا من أجل تهدئة المنتفضين فتحول بعدا إلى قائد للانتفاضة.

مراكش "ويداً" لتهديته المنتفضين، لكنه لما التحق بهم، موفداً من "ويداً"، محاولاً ثنيهم عن مهاجمة مراكش، سيصير منهم، بل ومتزعمهم. وبالنظر إلى جرأته وتجربته الطويلة في تدبير الهوامش، فقد أهله كل ذلك لتزعم الانتفاضة واستمالة قبائل السراغنة وزمران واحمر ومسفيوة للانضمام إليه ومهاجمة مراكش ومحاصرتها.

تزعم بن الطاهر انتفاضة الرحامنة سنة 1894 احتجاجاً على عقد البيعة للمولى عبد العزيز، وتنصيبه سلطاناً للغرب، وهو وقتئذ دون سن البلوغ، عوض أخيه الأكبر الأمير مولاي احمد الذي ظل يشغل مهام الخليفة السلطاني حتى الشهور الأخيرة من عهد والده، فقد استطاع متزعم هذه الانتفاضة القائد بن الطاهر أن يجمع حوله العديد من المقاتلين من الرحامنة والسراغنة وبلاد احمر وغجدامة وفتواكة وأولاد عمران والغوانم من دكالة، كما تمكن من مهاجمة مراكش.

ولقد احتفظت الذاكرة الشعبية بمجملته من القصائد الزجلية التي توثق لهذه المرحلة، والتي تعكس بدايات التمرد ودواعيه:

كتبت بربة وصيفتها ليا
و مولاي عبد العزيز ما عطائيش الجواب
وما كاين حق فمراكش
وما كاين حق فمراكش
ووجدوا العدة ووجدوا العدة
و شرجو الخيل للغة
هجموا على القبائل الشاحخة
وداو ليكم العولة
وداو ليكم العولة
وابني وربي والمدينة
والرجالة ماتوا
و كالوا للخلفية: آرا البارود آ لولاد¹⁶⁸

++

ولأن بن الطاهر كان بحاجة إلى شرعية انتفاضته، فقد "طرح أمام أنصاره" "سبئية" لـ لا زينب أم المولى محمد، بدعوى أنها هي من منحت الرحامنة غطاء رأسها، حدادا على عرش ابنها المغتصب بتدبير من

¹⁶⁸ إدوموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، مرجع سابق، ص. 283.

أحمد بن موسى¹⁶⁹، وبالنظر إلى دلالة تحلي أم الأمير عن غطاء الرأس وتسليمه إلى الرحامنة، فإن الانتفاضة سينظم إليها الكثيرون من أفراد القبائل الأخرى فقد تداخل الشرف بالعرض، بالمصالح والمنافع التي قد تنأى لهذه القبائل بعد نجاح الانتفاضة، وتمكين الأمير من العرش.

إلا أن المخزن العزيمي كان لهم بالمرصاد، ففي أواخر سنة 1895، وقبل أن تحل المحلة السلطانية بأرض الرحامنة، تم الانتهاء من انتفاضة بن الطاهر وتم إلقاء القبض عليه، بعدما التجأ إلى ضريح الولي سيدي علي بن إبراهيم بتادلة، وفي أعقاب ذلك ألزم الرحامنة بأداء ذعيرة مالية قدرها 400 ألف ريال، وألف فارس بكل اللوازم، وألفين من الرجال للخدمة في الجيش، كما "صودرت أملاك الرحامنة بمدينة مراكش (حوالي 457 داراً)¹⁷⁰.

لم يكتف المخزن فقط بإخماد هذه الانتفاضة، بل عمد إلى اتخاذ مجموعة من التدابير الاحترازية خوفاً من احتمال ميلاد انتفاضة أخرى، وفي نفس الآن تقديم "درس سلطوي" لباقي القبائل المجاورة التي "اعتلت" بعدوى الانتفاضة، و"انحرفت" هي الأخرى عن الخدمة، كالسراغنة وزمران واحمر وعبد، وقبائل الكيش من الأوايا وإداو بلال وحربيل وأيت امبور. ولهذا كان التعامل مع الرحامنة في أعقاب هذه الانتفاضة يروم وأد معالم الانتفاض وتقديم العبرة¹⁷¹ لمن يريد أن يعتبر.

وعن هذا الفعل المخزفي المزروح يقول المختار السوسي بأنه "أمرت الرحامنة أن يعطوا المرهونين أولاً فيأتي الفارس، فيؤخذ فرسه وسلاحه إلى مخزن السلاح ثم يذهب به إلى السلسلة حتى وصلوا مئات، ثم فرقت فيالق الجيوش ثمانية، كل فيلق على طرف من القبيلة، وأديرت الجيوش بأرض الرحامنة وزحفت الفرق من كل ناحية فالتهمت كل ما في الرحامنة، فقتل من قتل وأسر من أسر...

¹⁶⁹ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن، مرجع سابق، ص. 24.

¹⁷⁰ زين العابدين العلوي، المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، الجزء الأول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2007، ص. 224.

¹⁷¹ من الوسائل المفيدة في تقديم هذا الدرس السلطوي، كان المخزن يعمد إلى قطع الرؤوس وتعليقها في أبواب المدن، بعد تمليحها من طرف اليهود، (ولهذا سميت أحيائهم بالملاح، فهم الذين كانوا يختصون بتمليح هذه الرؤوس، حتى تبقى معلقة، ودون أن تصدر عنها رائحة تزكم الأنوف)، وفي هذا الصدد يشير عبد الله حمودي إلى رسالة من سيدي محمد بن عبد الرحمان مؤرخة بسنة 1871، بعد أن حقق نصراً على قبيلة الرحامنة، تقول: "هذا، ويصلحكم ما قطع من رؤوس قتلائهم لتعلق بباب المدينة، ويعتبر بها المعتصرون ويتذكر بها المتذكرون". أنظر:

عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، مرجع سابق، ص. 87.

ونهب من نهب، لقد رأيت سلاسل نصف من فيها أموات يجرحهم من لا يزالون أحياء ثم في مراكز
يعزل الأموات فيدفنون، ويذهب بالأحياء إلى الدفن في السجون¹⁷².

فقد ألزموا بدفع دعيرة مالية قدرها 400 ألف ريال و1000 فرس بلوازمها و2000 من
رجالهم للخدمة في الجيش المخزي، فضلا عن تقديم ما بين 1500 و2000 من رجالهم للزج بهم في
السجون، والذين طيف بهم في أنحاء المحلة السلطانية تحت وإبل من الشتائم والسخرية، فكانوا
يشدون من لحيمهم حتى إنه لم يبق على وجوههم سوى بعض الشعيرات، ثم جعل الحدادة الأغلال
والقيود القوية في أرجلهم واقتيدوا في مجموعات من 15 إلى 20 أسير¹⁷³. فقد كان المخزن "يريد إقتال
كاهلهم جدا حتى لا يفكروا في التمرد من جديد"¹⁷⁴.

يقول المشرفي في هذا الصدد: "قبض على نحو الألف من قبيلة الرحامنة المتعصب بهم، وبعده
أمر بتفريقهم على السجون، فوجه منهم لسجن فاس عددا دخلوا على أسوأ حال، محمولين على البغال،
كالخشب بالأخراج كل اثنين على بغل، وكل واحد منهما يعين الخرج معادلا لأخيه، وهم مصفدون في
الحديد تقشعر منهم الجلود مع ما هم عليه من الشعث والاصفرار والتحول من أثر العذاب والجوع.
وكذلك وجه عددا لرباط الفتح، بقصد السجن، وكذلك لسجن تطاوين وسجن الصويرة، دون ما أبقاء
بسجن مراكز، وبقوا بالسجن إلى أن مات جلهم به"¹⁷⁵.

لكن فشل الرحامنة في انتفاضتهم وهجومهم على مراكز خلال تمردهم ضدا على بيعة
مولاي عبد العزيز، لم يكن بسبب قوة وبأس المخزن، وإنما بسبب تمكن المخزن من تفريق
صفوف المتحالفين وجزل العطاء لمن يشارك إلى جانبه، فقد "كان كل من حارب إلى جانب المخزن
بمراكش يأخذ إعانة وكان الجريح يمنح 500 ريال تعويضا، وكانت دية القتييل تبلغ 1000 ريال تعطى
لذريته"¹⁷⁶. فالاستفادة من المساهمة في القضاء على تمرد الرحامنة كانت عالية بالنسبة لعدد من
القبائل والقياد في أحواز مراكش. فعميس العبدى البحاتري مثلا غدا من "أصدقاء الصدر الأعظم

¹⁷² محمد المختار السوسي، المعسول، الجزء العشرون، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1960، ص. 21.

¹⁷³ لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912، ترجمة: محمد
ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999، ص. 92.

¹⁷⁴ لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية، نفس المرجع، ص. 93.

¹⁷⁵ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البنية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير
المتناهية، دراسة وتحقيق: إدريس بوهليلة، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،
الرباط، الطبعة الأولى، 2005، ص. 227.

¹⁷⁶ زين العابدين العلوي، المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، مرجع سابق، ص. 223.

باحمد بعد أن شارك في عمليات القضاء على السبيبة، ولما تم التغلب على ثورة الرحامنة جازاه المخزن بتعيينه قائدا على مجموع قبائل عبدة ودكالة والشياطمة¹⁷⁷.

رابعا: قضية السخوط:

بالنظر إلى ثقل هذه الغرامات، سرت في مجموع التراب رواية تقول بأن الرحامنة هم "مساخيط مولاي عبد العزيز"، وأنه لما حل ببلادهم وطلب ماء جيء له بالماء في بلغته، للتدليل على أن الغرامات الثقيلة لم تترك لهم حتى الكوب المناسب لتقديم الماء للسultan.

في إطار عملية التنازب بالألقاب بين القبائل المغربية يوصف الرحامنة بأنهم مساخيط مولاي عبد العزيز، ويقال دكالة صباغين الحمير، سرغن برغن، عبدة جراحين الكبد عمر حرهم ما يهدا عمر ضيفهم ما يمشي شعبان، الشاوية هاوية، الجبلي والمرأكشي ديرو قدامك لا ديرو موراك، بني احسن بني حسك. وهي كلها توصيقات تستند إلى حكايا مختلفة تعبر عن ماضٍ ثقيل من الحروب والنزاعات حول الأرض والماء والسيادة.

لكن ثمة روايات مضادة تقول بأنهم "مساخيط مولاي اليزيد" وليس مولاي عبد العزيز، ذلك أن مولاي اليزيد الذي لم يدم حكمه سوى سنتين 1790-1792، لم تباعه قبائل الحوز، بما فيها الرحامنة، التي بايعت الأمير هشام "باتفاق قبيلة عبدة ودكالة وأهل الحوز وأهل مراکش... وبحضور كبراء الرحامنة وأهل سوس مع أولاد دليم وغيرهم"¹⁷⁸.

وإذا كان الناصري في الاستقصا قد تناول الحرب التي نشبت بين المولى هشام وأخيه المولى اليزيد، بنوع من "الاقتصاد اللغوي"، فإننا سنجد الضعيف الرباطي مستقيضا في وصف انتقال المولى اليزيد إلى مراکش وعبره لوادي أم الربيع.

فالناصري يقول بأنه "ساءت ظنونهم به، وانفسدت قلوبهم عليه، ولما رجعوا إلى بلادهم، تمشت رجالاتهم بعضها إلى بعض، وخب الرحامنة في ذلك ووضعوا. وانفقت كلمتهم مع أهل مراکش وعبدة وسائر قبائل الحوز، فقدموا المولى هشام بن محمد للقيام بأمرهم، وآتوه ببيعتهم وطاعتهم.

ولما اتصل خبير ذلك بالمولى اليزيد وهو محاصر لسبتة، ألقع عنها، وسار إلى الحوز، فشرذ قبائله، ووصل إلى مراکش، فدخلها عنوة، يقال إن دخوله إليها كان من الباب المعروف بباب يغلي، ثم استجاش عليه المولى هشام قبائل دكالة وعبدة، وقصده بمراكش، فبرز إليه المولى اليزيد، ولما ألقى

¹⁷⁷ مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 26، الرباط، الطبعة الأولى، 1995، ص. 166.

¹⁷⁸ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، ص. 76.

الجسمان. انهزم جيش المولى هشام، وتبعهم المولى يزيد، فأصيب برصاصة في خده، فرجع إلى مراکش يعالج جرحه، فكان في ذلك حتفه¹⁷⁹.

إلا أن الضعيف الرباطي سوف لن يتعامل مع هذا الحدث بنفس "الاقتصاد اللغوي"، بل سوف نجده يخصص صفحات طوال لتأريخ الحرب بين المولى هشام والمولى يزيد، بل إنه سيستفيض أكثر في تأريخ عبوره لوادي أم الربيع.

فمن أجل الاقتصاد من رافضي البيعة تحرك مولاي يزيد في اتجاه مراکش، لمواجهة الأمير هشام، لكن أهل الحوز بدؤوا يرددون أن الحاج بلا عزوز، وهو من أولياء مراکش، قال بأن "اليزيد لن يخوض في ماء وادي أم الربيع". وشاع في كل الأرجاء أن عبوره لهذا النهر فيه شؤم ومصيبة، وبذلك لما اقترب اليزيد من النهر تفرق من حوله العبيد، فسخط عليهم وعلى الرحامنة، وقال "إنا بالله أستعين، والله لأقطعن وادي أم الربيع ولو مع عشرة من الحبل"¹⁸⁰.

ويوثق الضعيف الرباطي هذا الحدث بالآتي: "وفي يوم الأربعاء، وهو أول يوم من جمادى الثانية من السنة السادسة بعد المائتين (1206)، قطع وادي أم الربيع السلطان السعيد والخليفة الرشيد، مولانا اليزيد، وذلك يوم الأربعاء المذكور، وقطع معه البعض من دائرته، فالتقى بعبد الله الرحمانى وأخيه بالثلاثين، وبمراكش ثم رجع للمحلة وهو عند القطوع يدي رجله في ما وادي أم الربيع ويقول: "أين قول أهل مراکش وبلا عزوز السفية، فها قدي يخوض فيه"، وهو يحرك في الماء برجله"¹⁸¹.

وبالنظر إلى حادثة موت المولى اليزيد بمراكش، وشيوع أخبار "سخطه" على الرحامنة وكل من اصطف ضده، مباحاً أخاه المولى هشام، فإن الذاكرة الشعبية تردد عن الرحامنة أنهم "مساخيط مولاي اليزيد"، لكونه سخط عليهم لدى عبوره وادي أم الربيع، وأيضاً لكونهم من بين المتسببين في وفاته، باعتبارهم من أهم القبائل التي شابت "عدوه" المولى هشام، علماً بأن "انتصار" الرحامنة للمولى هشام، سرعان ما انتفى بعد مقتل عاملهم القائد أبا محمد عبد الله بن محمد الرحمانى¹⁸².

¹⁷⁹ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق، ص. 109.

¹⁸⁰ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص. 417.

¹⁸¹ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص. 417.

¹⁸² يقول الناصري: "ولما قتل القائد عبد الله، خلعت الرحامنة طاعة المولى هشام، وباعت أخاه المولى حسين بن محمد، وزحفوا به إلى مراکش، فلم يرح المولى هشام إلا طبعهم تفرق حول القصبة، وأرهقوه وأعجلوه عن ركوب فرسه، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي، فعاذ به وثابت إليه نفسه، وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى اسفي. ودخل المولى حسين قصر الخلافة بمراكش فاستولى على ما فيه من الذخيرة والأثاث متاع المولى هشام ومتخلف المولى اليزيد، فاضطر أهل مراکش حينئذ إلى مبايعة المولى حسين والخطبة به، وكان ذلك سنة ثمان مائتين وألف".

وعسوما فهذا التوصيف الذي ما زال يتردد إلى الآن، متوزعا بين "مولاي عبد العزيز" ومولاي اليزيد، فهو يعبر عن هذه العلاقة المتوترة بين القبيلة والسلطة المركزية، خلال عسر انتقال الحكم، واختلال موازين القوى، والتي لا يمكن تفسيرها حصرا بنطلق تعارضي يحتمل القطيعة بين "سجل السبية" و"سجل المخزن".

خامسا: البادية والمدنية:

من خلال تأمل هذه الوقائع يبدو واضحا أن العلاقة مدينة/ بادية توظف أيضا تفاعل قبيلة الرحامنة مع مدينة مراكش تحديدا، ففي مختلف التمردات التي عرفتها القبيلة تكون مراكش محالا لتوقيع وتسجيل القوة، كما أنها في حالات السلم تظل محالا أثيرا لاستعراض الواجهة الاجتماعية، وتوفير حاجيات القبيلة من حيث الملابس والمأكول والمشرب، وهذا يعني أن علاقة الرحامنة مع مراكش تجاوزت تلك الخطاطة القائلة بأن "البادية تخصصت عادة في الإنتاج الفلاحي، والمدينة في الإنتاج الصناعي، لتكون العلاقة بينهما علاقة تبادل اقتصادي"¹⁸³، فليس هذا الشرط المنفعي التبادلي هو ما يؤسس العلاقة ويبررها، فتمتد عناصر أخرى تتعلق بما هو سياسي ثقافي يهم النسق في مجموعه.

إن العلاقة بين البوادي والمدن بالمغرب كانت تتأثر بتقلبات الطبيعة والحكم، ففي لحظات الجفاف لا تتردد قبائل البوادي التي تعاني عسرا في المعيش، في الهجوم على المدن، على اعتبار أنه يتوفر لها الرخاء، وهو ما كان يحدث باستمرار في علاقة قبائل "لعرّب" مع مدينة الرباط¹⁸⁴، وقبائل عامر وحسين مع مدينة سلا، وقبائل الحياينة مع مدينة فاس¹⁸⁵، وهو ما تتكرر، بشكل أو بآخر مع الرحامنة في علاقتهم بمراكش¹⁸⁶.

أنظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق، ص. 128.

¹⁸³ رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص. 136.

¹⁸⁴ أنظر: عبد الفتاح الزين، العلاقة بين المدينة والبادية بمحور الرباط، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الموسم الجامعي: 1986/1987، غير منشورة.

¹⁸⁵ أنظر: عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل ينانون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، مرجع سابق.

¹⁸⁶ يقول الناصري بأنه "لما كان السلطان سيدي محمد رحمه الله يبلاد الغرب، مشغولا بأمر الإصينبول وحربه على تطاوين، ثار عرب الرحامنة بالحوز وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش، فأغاروا عليه وانتهبوه، وسلبوا المارة وأرياب الجنات. وقطع الرحامنة ما حول الأسوار من الأشجار، واحتطبوها وحصدوا الزروع في الفدن، واغتصبوها واشتد الحصار. ودام الحال إلى أن فرغ السلطان من حرب الإصينبول وقتنة الروكي، فوجهه وجهته إلى مراكش. فلما قرب منها تحزب الرحامنة وأجمعوا على حربه، فأنمازوا إلى ناحية الرميطة والأودية وزاوية بن ساسي ليحولوا بيته وبين الدخول إلى مراكش، فهاجم عليهم وأوقع بهم وقعة. ثم عفا عنهم بعد أن انتزع منهم بلاد آيت سعادة وغواطم والأودية وهي من أخسب الأراضي وأزكاها".

أنظر: أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، ص. 126.

ففي الأمثال الشعبية الراجحة بمراكش والرحامنة، والتي يجتهد فيها كل طرف لتأكيد "نقاء نوعه" واجتماع كل ما هو سلبي في ذلك الآخر، نكتشف التباس هذه العلاقة وإنشاءها على تاريخ من الهجومات والغرامات والمصادرات. فالرحامنة كثيراً ما يرددون عن المراكشيين أمثالا تشير إلى الخبيث والبخل من قبيل "المراكشي ربيع وكريع" و"المراكشي ديرو قدامك لا ديرو موراك"، أما أهل مراكش فيرددون عنهم أنهم "مساخيط مولاي عبد العزيز" وأنهم "عشرة في عقيل"¹⁸⁷ و"الرحماني والغار ما نورهم باب النار".

وهي أمثال تعبر عن تخوف دائم من هذه القبيلة التي لم يتردد محاربوها في هجوماتهم على مراكش في الدخول إلى حمامات النساء، كما يؤكد الضعيف الريايطي قائلاً بأنه في "عهد الأمير سيدي محمد بن عبد الله دخل الرحامنة على حمامات مراكش وتكشفوا على النساء"¹⁸⁸، كما يذكر عبد الرحمان بن زيدان أنه خلال انتفاضة الرحامنة سنة 1894 "ثار البعض من عتاة الرحامنة وراموا نهب مراكش"¹⁸⁹.

يخبرنا إدموند دوتي عن "سوء أحوال" هذه العلاقة قائلاً بأن "الصراع بين الرحامنة والسكان الحضريين لمراكش قديم"¹⁹⁰، ونسب ذلك فإن المراكشيين يمارسون بعض طقوس الاستجفاف¹⁹¹، ضدا على طقوس الاستسقاء، فمن مصلحة الحضريين بمراكش أن تكون المحاصيل هزيلة أو سيئة، ليجتاح البدويون إلى وسطاتهم وبالتالي رفع أثمان المواد الغذائية¹⁹².

ستظهر هذه العلاقة الملتبسة بين الرحامنة ومراكش حتى في مستوى الهجرات الداخلية خلال سنوات (اليون) التي ستعجه شمالا نحو الدار البيضاء والرباط بدرجة أعلى، خلال الفترة الاستعمارية، وهو ما سيظهر في تسمية عدد من أحياء الصفيح الكبرى بهاتين المدينتين باسم القبيلة،

¹⁸⁷ يفسر هذا المثل من قبل المراكشيين على أساس أن الرحامنة لهم إمكانيات ذكاء محدودة، وأن عشرة منهم يتوفرون على عقل واحد، فيما تشير الروايات المحلية إلى أن هذا المثل له علاقة مباشرة بنتائج انتفاضتهم سنة 1894، فقد تم حينها اعتقالهم من طرف المخزن، وكانوا يساقون إلى سجون مراكش، ويجمعون عشرة في عقال واحد، للتدليل على أن المخزن أسر الكثيرين منهم ولم تكن تتوفر له حتى القيود الكافية لكل واحد من الأسرى، وهذا كله يسر في اتجاه تأكيد سلطة المخزن وسوء عاقبة كل خارج عن طاعته ومنحرف عن خدمته.

¹⁸⁸ محمد الضعيف الريايطي، تاريخ الضعيف الريايطي، مرجع سابق، ص. 277.

¹⁸⁹ عبد الرحمان بن زيدان، إنحاف أعلام الناس بحمال حاضرة مكناس، الجزء الرابع، الرباط، الطبعة الثانية، 1990، ص. 445.

¹⁹⁰ إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، مرجع سابق، ص. 297.

¹⁹¹ كأن يأخذوا مثلاً، حسب دوتي، أنية فخارية بها زيت، ويضعونها تحت سقف عبرته قطرات المطر، وينزل منه الماء، أو تحت خيمة، وعندما تمتلئ الأنية تدفن، ويتوقف حينها المطر، كما يصنعون في مراكش محراثا صغير ويربطون به قفا ويحرقون به حقلا، من أجل إيقاف المطر

أنظر: إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، مرجع سابق، ص. 298.

¹⁹² إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، مرجع سابق، ص. 297.

تماما كما هو الأمر بالنسبة لدوار الرحامنة بسيدي مومن بالدار البيضاء ودوار الرحامنة بدواري الكورة والكورة ببيعقوب المنصور بالرباط. فيما لا نكاد نلمس "تسجيلا وتحفيظا محاليا" لإسم القبيلة بمراكش¹⁹³، بالرغم من واقعي القرب الجغرافي والعمق التاريخي.

إلا أن ذلك لم يمنع من حصول هجرات إلى مدينة مراكش، خصوصا في ظل "باشوية" القائد عبد الحميد، فقد وصلوا حينها إلى تكوين فخدة هامة من ساكنتها، وقد ذهب بهم الأمر، يقول دوفي، إلى أن اعتبروا امتزاجهم بأهل المدينة تم بكل سهولة ورسميا، ما دام قائدهم عبد الحميد عين باشا على مراكش¹⁹⁴.

إن علاقة البادية/ المدينة لا تفترض في حالة الرحامنة/ مراكش، نفسيرا خطيبا بتأسس على المعطى الاقتصادي فقط، بل تحتل تفسيراً آخر يتداخل فيه السياسي والثقافي والنقسي والتاريخي¹⁹⁵، فالمدنية وكما يقول عبد الرحمان المودن، "تجسيد ووسيلة للسيطرة المخزنية، ومن ثم فإن مواجهة القبيلة تتخذ طابعا سياسيا. فالمواجهة تكون تعبيرا عن صراع اجتماعي واقتصادي"¹⁹⁶. وتكون أيضا عبر استعمار تاريخ نفسي اجتماعي من التمثلات والتمثلات المضادة، التي تتجاوز في انطراحها الزوج مدينة/ بادية، إلى القبيلة/ نسق عام.

¹⁹³ نستقي من هذه الملاحظة ما يهم القيادة والأعيان، الذي تمكنوا بفضل رساميلهم الرمزية والمادية من "التحفيظ الرمزي" لأسماء أرقه وحومات في مراكش، فقد جعل العديد من قياد وأعيان الرحامنة من قاع المشرع بالمدينة العتيقة بمراكش محالا خاصا بهم، يمارسون فيه شرعهم الخاص، ومنه كانت تسميته بالمشرع، بحيث كان يحظى بنوع من الاستقلال الذاتي عن سلطة باشا مراكش، بل إن الرواية الشفوية تؤكد أن مخازنية مراكش، كان يفرض عليهم إزالة "الشاشية" عن رؤوسهم كلما هموا بالدخول إلى هذه الحومة، وقد أقام في هذه الحومة كل من القائد عبد الحميد والقائد البربوشي والقائد ولد العظم والقائد ولد الحسن والقائد العيادي الذي شيد بعروة الزوين رياضات فاخرة قوتت أخيرا مستثمرين مغاربة وأجانب وصارت تحمل اليوم إسم "قصر سليمان"، ومن الدروب المتفرعة اليوم عن قاع المشرع نجد درب عبد الحميد، درب المدرسة (التي بناها القائد العيادي)، درب الحبس (استعمله العيادي لحبس الرحامنة)، درب بن رحال (سائق القائد العيادي).

¹⁹⁴ إدmond دوفي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، مرجع سابق، ص. 299.
¹⁹⁵ يجب ألا ننسى هنا أن من قضى على انتفاضتهم سنة 1894، وهو القائد عبد الحميد بن الفاطمي الرحماني، الذي كان مقربا من الصدر الأعظم أحمد بن موسى المعروف بـ "باحماد"، ستمت مكافاته على حربه على الرحامنة، بتعيينه باشا لمدينة مراكش، والذي لن تأخذه رحمة بقبيلته التي يتحدر منها، فقد قام بمصادرة ممتلكات أفرادها داخل مدينة مراكش، وفرض الذعائر، وعامل الناس بقسوة بقيت عالقة بأذهانهم، وأقتل كاهلهم بضرائب تؤدي عن كل فرد، لم يستثن منها النساء والأطفال. أنظر:

Edmond Doute, Marrakech, op.cit.p.397

¹⁹⁶ عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص. 373.

ذلك أن تمردات وانتفاضات الرحامنة لا يتوجب فهمها من داخل مقرب اقتصادي يبحث عن الغائب في البادية/ الحاضر في المدينة، وإنما هي حركات مجالية وسياسية تروم إعادة كتابة تاريخ النسق وفق نمط جديد من توزيع واقتسام الثروة الرمزية قبل المادية.

فالانتفاضات، وبالرغم من حركيتها المجالية في اتجاه المدينة، أي في اتجاه "خارج القبيلة"، فإنها كانت بمثابة رد فعل على ما يجري "داخل القبيلة"، ضدا على ما كان يمارسه ممثلو المخزن من إكراه وعنف اتصالا بجمع الضرائب التي تتعالى قيمتها وترتفع أصوات المطالبة بها، كلما كانت هناك أزمة أو ضائقة مالية يعاني منها المخزن المركزي، لكن اللجوء إلى الانتفاضة والتمرد لم يكن أول الخطو في تدبير ردود الفعل القبلية، فالوثائق التاريخية تفيد أن الرحامنة كانوا يعتمدون على تدخلات الشرفاء والأعيان لإبلاغ المخزن بمعاناتهم وتطلعاتهم.

ولعل هذا ما دفع ميشو بلير إلى القول بأنه "عندما لا يرتاح الأعيان للقائد سواء عندما يبالغ في طلباته، أو يمتنع عن إشراكهم في امتيازاته، فإنهم يعارضونه ويطالبون المخزن بتعويضه"¹⁹⁷، وفي مستوى آخر فإن الزاوية تتدخل للشقاعة والحوول بينهم وبين العقاب المخزني، تماما كما حدث في أعقاب مهاجمتهم لمراكش، وهو ما يؤكد الضعف الرباطي، متحدثا عن الأمير سيدي محمد بن عبد الله الذي خرج للرحامنة، "فرد سيدي أبو العباس الشراي لمراكش وصبره وقال له: أنت صاحب مراكش وغيره وأنت ستطلع جبل مسفيوة... لا يقدر أن يحاربك أحد منهم وأنت صاحب الوقت، وأنتها في قبيلة الرحامنة، فإنهم ميمونك"¹⁹⁸، ولربما هذه الواقعة وأخرى مثلها، هي التي ستساعد الزاوية الشراية على تقوية نفوذها الديني والسياسي بالمجال الرحماني. وهو ما سنعرض إليه بعدا بتفصيل في ثقل المقدس الزاوياتي.

سادسا: الرحامنة والسراغنة:

لم تكن العلاقة بين القبيلة وجاراتها على نفس المستوى من الأداء في كل الأحيان، فالسياق هو الكفيل بإنتاج الفعل والتفاعل السياسيين لكل قبيلة، فسياقات هذه العلاقة لم تكن خطية وسكونية، بل كانت تصطبغ برهانات امتلاك المجال وتدبيره، كما أنها ترتعن أساسا إلى دينامية ثلاثية الأبعاد تحيل على القبيلة في مستواها الداخلي، والقبيلة الأخرى، فضلا عن السلطة المخزنية التي كانت بتدخلاتها وتحالفاتها مع طرف ضد الآخر، تحدد شكل ومحتوى العلاقة الممكنة.

¹⁹⁷ Michaux Bellaire, Le Gharb, In: AM, vol. 20. 1930. p. 148.

¹⁹⁸ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، مرجع سابق، ص. 277.

تتأثر العلاقة بين القبائل في مستوى آخر، بالوضع الذي توجد عليه السلطة المركزية، سواء في لحظات انتقال الحكم، وظهور بعض المشاشة على تدبيرها وتحكمها في المجال، أو مستويات تمثيلها المحلي عن طريق القياد، ما يدفع إلى البحث عن إمكانات جديدة لتوسيع المجال على حساب الجوارات، هذا بالإضافة إلى آليات تسجيل الحضور المخزني المركزي عن طريق "الحركة" و"المحلة"، الشيء الذي يفرض ترتيبا جديدا للمجال، لا بد وأن ينعكس على طبيعة العلاقات القبلية.

في هذا السياق كانت العلاقة بين الرحامنة والسراغنة تتأرجح بين حالة وأخرى مضادة لها، فحينما تظهر القبيلتان معا في إطار تحالف أكبر، تماما كما هو الأمر بالنسبة للحلف الكبير الذي جمع بين الرحامنة والسراغنة ومسفيوة وعبد وهاجر وغجدامة وقطاوكة وأولاد عمران والغوانم من دكالة خلال انتفاضة مبارك بن الطاهر، وحينما آخر تظهر القبيلتان في وضعية التناحر والتعارض كما حدث قبلا خلال تمرد سنة 1861، والذي يقول عنه الناصري: "في سنة 1861، تمرد الرحامنة فحاصروا مراكز أربعة أشهر حتى أوشكت على الاستسلام، فاستنهض المخزن قبائل السراغنة لمواجهةهم"¹⁹⁹.

إلا أنه يتوجب التذكير في البدء بأن علاقة الرحامنة بالسراغنة، لم تكن دوما على درب التنافر والتناحر، فالتوتر الذي ينشأ بين القبيلتين، قد يعقبه أو يسبقه انفراج معين تفرضه معطيات الوضع الخاص والعام، كما أن هذا التوتر لا يعني البتة القطيعة التامة، فالتبادلات الرمزية والمادية تستمر ضدا على حالة الصراع، خصوصا فيما يتعلق بزيارة الأولياء وتبادل المنافع الاقتصادية وحتى السياسية، فالسراغنة تتوفر على ولين يمكن إدراجهما ضمن خانة الأولياء من ذوي الإشعاع الوطني، وهما بالتحديد بوي رحال²⁰⁰ وبويا عمر²⁰¹، والذين تؤكد الرواية الشفوية أن الرحامنة من أكثر القبائل التي تزورهما و"تعمر" موسميها. كما أن تخصص السراغنة في إنتاج زيت الزيتون يفرض تبادل المنافع.

¹⁹⁹ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، 126.
²⁰⁰ هو الولي الصالح أبو العزم محمد بن أحمد بن الحسن بن القاضي السلافي الشهير بسيدي رحال البدالي (لقب بسيدي رحال باعتباره كان دائم الترحال والتجوال، والبدالي لكثرة تبدل أحواله)، ولد عام 890هـ، أصوله من قرية تدعولت المشهورة بوادي آقا، والد البدالي مدفون بجاميد الغزلان، تتلمذ على يد الشيخ سيدي عبد العزيز النياح، عاش في أواخر السولة الوطاسية وأوائل الدولة السعيدية، وقد عاصر سيدي رحال البدالي مجموعة من الأولياء والصالحين نذكر منهم عبد الله بن احسان دفين تامصلوحت، سيدي عبد الرحمان المجذوب، سيدي عبد الله الغزواني وسيدي أحمد بن موسى.

أنظر: الحسن شوقي، سيدي رحال البدالي: مساهمة في تاريخ الأولياء بالمغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2008، ص12.

²⁰¹ هو الولي الصالح هو سيدي عمر بن سيدي عبد العزيز بن الشيخ الأكبر سيدي رحال البدالي الشهير ببويا عمر مول المري (صاحب المرأة) ولد خلال العقدين الأخيرين من القرن 16 عشر الميلادي وبقي أميا إلى أن بلغ الأربعين من عمره حيث شذ الرحال للحصول العلم إلى زاوية تامكروت وتتلذذ على يد مؤسسها

من جهة أخرى فعندما نستحضر العلاقة الصراعية أو التحالفية بين الرحامنة والسراغنة، فإن هذا الاستحضار لا يدعو إلى التسليم بمبدأ "الانسجام" الداخلي، أي أن الأمر يتعلق بمواجهة قبيلية/قبيلية، تؤكد التضامن والوحدة الداخلية لكل طرف، فالصراع أحيانا يكون داخليا أكثر منه خارجيا، كما أنه يكون أحيانا حدوديا دون أن يهم الأطراف البعيدة.

نفيدنا الأماكينية في اكتشاف تاريخ المجال، بل إنها تمكننا من قراءة توتراته وتفاعلاته، خصوصا في مستوى الجوار، الذي يحيل على مجالات قبيلية أخرى، فعندما نبحث مثلا في أصل تسمية "لمحرّة"²⁰² وهي إحدى الجماعات الحدودية مع إقليم قلعة السراغنة، فإن الرواية الشفوية تؤكد أن التسمية تحيل على "الأرض المحررة"، أي التي تم تحريرها²⁰³، بعد أن كانت محتلة من طرف دخيل "مستعمر" لها، ما يعكس جانبا من التمثل الضمني للسراغنة في المخيال المحلي.

إن امتلاك المجال والرغبة في توسيعه، يظل في كثير من الأحيان، هو الشرط الموجب للصراع بين الرحامنة والسراغنة، وفي هذا الصدد يخبرنا بن زيدان بأن السلطان الحسن الأول في حركته الأخيرة التي كانت بعدها وفاته سنة 1311 هـ/ 1894 م، نجد أن السلطان اجتاز أيضا على قبائل السراغنة، حيث خيمت محلته بتاملالت، وقام من هناك بزيارة الولي سيدي رحال، وبعد ذلك رجع لينهض جيوشه للسير، وصادف ذلك وقوع نزاع بين فلاحي تملالت وبرابيش الرحامنة، وبعض سكان إيالة القائد العسولي بسبب خلاف على أرض فلاحية مما أدى إلى تدخل السلطان لفككه، وهكذا قام بتأديب المهدي الزبيري قائد البرابيش²⁰⁴.

سيدي محمد بن إبراهيم الأنصاري، وكان من المتفوقين، ما جعل سيدي محمد يورثه دربالده، وبعد وفاة هذا الأخير تولى من بعده خلفه سيدي محمد بن ناصر أمور الزاوية الناصرية الذي أجاز بويا عمر ومنحه امرأة لها شاع أن لها خصائص علاجية تهم عالمي الإنس والجن.

أنظر: الحسن شوقي، بويا عمر: مساهمة في تاريخ الأولياء بتساوت، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى، 2007، ص. 15.

²⁰² وهي جماعة قروية تابعة من الناحية الإدارية إلى دائرة سيدي يوعثمان، قيادة لوطاه، ويحدها شرقا إقليم قلعة السراغنة (الجماعة القروية أولاد زراد وكتاوة) جنوبا جماعتي عكرمة ورأس العين وغربا جماعة أولاد أملول وشمالا الجعافرة وسكورة الحفيرة، وتتكون من الدواوير التالية: دوار أولاد ناصر، دوار أولاد إبراهيم، دوار أولاد إبراهيم لعواشرة، دوار أولاد سالم، دوار أولاد عامر، دوار أولاد عامر، دوار أولاد عمرو، دوار أولاد القبي، دوار أولاد عبد الله، دوار أولاد علي، دوار أولاد غنام، دوار أولاد سعيد.

²⁰³ كان التلاميذ المغاربة إلى حد قريب يطلقون على العطلة الضيفية بـ"التحرير"، وتحررتنا، وهو التوصيف الدال على نهاية الدراسة وبداية العطلة، على اعتبار أن الدراسة تحتل تقيدا وتقييدا معينا ومخصوصا للفعل الاجتماعي الحر والتحرر، بل و"تضبطه" ضمن بنية مؤسسية وأجندة زمنية محددة بقواعد لا يسكن تجارزها بالمرّة.

²⁰⁴ عبد الرحمن بن زيدان، إنحراف أعلام الناس بمجال أخبار حاضرة مكناش، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 117.

لقد أثرنا قبلا علاقة الرحامنة بالمدينة (مراكش تحديدا) وبدا واضحا أنها لم تكن تنضبط لنفس الخلفية الخطية والسكونية، وأنها تتحدد بالشرط السوسيوسياسي العام، وهو ما يكاد ينسحب أيضا على علاقة الرحامنة بالسراغنة، فالشرط هو المحدد، وإن كان التوتر ثابتا أو متغيرا. ففي مستوى التمثيلات والتمثيلات المضادة، يتردد كثيرا في الرحامنة قول توصيفي لحالة السراغنة بضرر نوعا من العداء التاريخي، وهو المثل القائل "كونوا من الشهود السراغنة من جنس اليهود" أو "كونوا شهود السراغنة يهود". وفي مقابل ذلك يرد السراغنة بـ "الرحامنة مساحيط مولاي عبد العزيز" أو "الرحامنة مساحيط سيدنا" أو "الرحامنة مساحيط دار المخزن" أو "الرحامنة عشرة في عقيل".

سابعا: بلاغة العيبة:

تورخ الثقافة الشعبية المحلية في مستوى غناء العيبة الحوزية، لكثير من هذه الوقائع التي تميز العلاقة المتوترة بين المخزن والرحامنة والحجارات القبلية الأخرى، ففي معركة سيدي بوعثمان الشهيرة التي انهزم فيها الشيخ أحمد الهبية ماء العينين في مواجهة المستعمر الفرنسي في شتنبر 1912 بسبب التقدم الذي كانت تحرزه فرنسا بشريا وعتادا، وأيضاً بسبب تأمر "القياد الكبار" عليه، كما تحكي هذه العيبة عن مخلفات انتفاضة الرحامنة التي تقاومت مع بروز القائد العبادي كحليف استراتيجي للمستعمر الفرنسي.

هذه القصيدة لم تبق حakra على قبيلة الرحامنة، بل صارت "الشيخات" ترددها في كثير من القبائل المغربية التي بدأت تعرف سلطة ونفوذ القياد الكبار، وتقول كلماتها:

هزيت عيني ليك آربي
حطيت عيني وافرح قلبي
والي بغا الله كاع بغينا
يا ما اضربتو ما اقتلتونا
ياك صكونا صاكونا
ياك صاكونا للزيتون
ياك تم ناض الريتول
وحق واحد فينا ما هاني
اللي تهرس ها الكراس
والي نفرم يبقى تم
والي تحف ها شربيل
والي تعرى ها سلهاي
والي بغا اللامة يتعاى

تحزموا وكونوا رجالة
 ياودي كونوا عوالين
 مشات برا لغم الجمعة
 لا خزانة لا عود بقا
 وفين عزك ألقصبة
 وآيت عطا وآيت بوزيد
 غوث الشلحة في الجبال
 دارتها نوضة وزغاريت
 بين الجبال وبين الطرقات
 وفي ساعة ولات غمام
 ورا الصابرة ولات احريز
 وافين ايامك آين جرير
 ياك الغبرا والكور ايطير
 ياك الغبرا واكصاص الخيل
 وفين ايامك أأاربع
 كان موسم ولا حركة
 لا خزانة ولا عود ابقا
 وفين ايامك أبو عثمان
 اكادات النار بلا دخان
 ورا الطرايش كي بلعمان
 ورا الموق كيف الذبان
 ورا العسكر حابس الببيان
 ورا الخواجة مزوق لولاد

إن هذه القصيدة، كما كتابات الإخباريين تؤكد أن الرحامنة تعرضت لعنف محزني واستعماري فائق القوة، منذ إخماد انتفاضة الرحامنة وإلى غاية دخول المستعمر الذي واصل تدمير هذه القوة عن طريق سياسة القبياد الكبير. وإن كانت في الأصل تؤرخ لمعركة أربعاء الصخور بتاريخ 24 غشت 1912 التي كانت أن تلحق الهزيمة بالفرنسيين، ومعركة 31 غشت 1912 بين جرير، فضلا عن معركة سيدي يوعثمان من نفس السنة، والتي انفرض فيها على جيوش أحمد الهيبة التراجع إلى الجنوب، بالرغم من ارتباطها بهذه الأحداث كما تشير إلى ذلك الرواية المحلية، فإنها تكشف أيضا بعضا من المحن التي عانتها القبيلة جراء انتفاضة بن الظاهر.

الفصل السادس:

القائد العيادي مسارات القائية

لماذا القائد العيادي بالضبط؟ ما الميرر الموضوعي للاشتغال عليه في سياق الحديث عن ثلاثية "المخزن، الزاوية والقبيلة"؟ وهل المغزى من استحضاره هنا هو تقديم النموذج المخزني والقبلي في آن، على اعتبار أنه من أنجال القبيلة؟ أم الهدف هو اتخاذ كـ "متن" لقراءة تحولات القبيلة وانهاءات العينية عبر هذا القائد/ النموذج؟

لا ننكر أن استحضار هذا النموذج يحتمل أكثر من قراءة، ولا يتحدد ضمن مسعى واحد، لكن استحضاره هاهنا يظل مبرراً، وإلى حد بعيد، بما حازه الرجل من رساميل رمزية ومادية، وما أنتجه، أو ساهم في إنتاجه، من أوضاع ومآلات رحمانية. فمن يكون القائد العيادي؟

أولاً: ميلاد قائد:

هو ميلود بن الهاشمي بن مبارك بن محمد بنزاوية الذي اشتهر باسم القائد العيادي²⁰⁵ (1880-1964)، ينتمي إلى فخذة الشلالكة الواقعة غرب أربعاء الصخور، يتحدر من أسرة مخزنية تقلب أفرادها في عدد من المناصب المخزنية المحلية، كان محارباً كوالده الهاشمي بن مبارك الذي اشتهر كرجل حرب خلال الحركات الحسنية، وكان يعمل كرقاص (ساعي برید) بين ابن عمه الشيخ أحمد بن محمد الكراوي والقائد عبد الحميد الرحمانى براكش، وبممارسة هذه المهنة تمكن العيادي من التعرف على بعض أسرار الخدمة المخزنية.

لكن المصادر تشير إلى أن الرجل كان يمتحن الزطاطة واللصوصية من حين لآخر، ألم يقل عبد الأحد السبتي بأن الزطاطة تعني رسم المرور، الذي يحصله الخواص أو ممثلو السلطان، وسواء كانت

²⁰⁵ عمر الإيوري، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجاً، مرجع سابق، ص. 166.

الحماية بالخفر أو بإقامة النزائيل فإن التحصيل يتطور إلى ابتزاز²⁰⁶، إلى الدرجة التي تنهأى فيها الفروق والحدود بين الزطاط وقاطع الطريق. ولعل هذا ما دفع ماكسويل إلى اعتباره "قاطع طريق محترف"²⁰⁷، وهو ما يذهب إليه فردريك وإيسجيرير الذي يجربنا أن العيادي "كان من قبل قاطع طريق شديد البأس، فتعقل ثم صار يرتبط بسلطاننا العسكرية"²⁰⁸.

من "الرقاص" إلى "الزطاط / قاطع الطريق"، فالقائدية أخيراً، ينكتب مسار غير عادٍ لرجل خير الحرب وتفاعل مع معطيات الحركة المجالية والسياسية لقييلته، واستفاد قبلاً من الثروة الرمزية والمادية لأسرته التي تقلبت في الخدمة المخزنية، وإن على صعيد المشيخة، الشيء الذي يساهم في إنتاج القائدية أخيراً كآمالٍ مبرر بعدد من الشروط والرساميل الفردية والعائلية والقبلية.

لكن ما سيقوده إلى هذه القائدية، بخلاف أسلافه، هو الانتقال من المحلي إلى الوطني، وذلك بنوع من التدرج، وهو انتقال فرضه الانتماء إلى مجال محكوم بالتحالف والتهديد والعبور المخزني (المحلة أو الحركة) والقبلي. لهذا وجد العيادي نفسه يتحالف مع الكندافي بعد أن تأمر عليه كل من المتوكي والكلّاي، ثم سيكون مطلوباً منه أن يبرز قوته لما دعاه المخزن، وباقي القياد الكبار، إلى مواجهة تمرد الروكي بوحماره، منتقلاً إلى تازة التي تعرضت فيها القبائل الحوزية للهزيمة يوم 22 دجنبر 1902.

إلا أن تأييد العيادي للمولى عبد الحفيظ في حلف يضم القائد المدني الكلّاي أيضاً سيكون المدخل الرئيس لتوطيد القائدية وإعادة بنائها، خصوصاً في اللحظة التي هاجمت فيها الرحامنة وكلّالة²⁰⁹، ومن ينتمي إليهما في إطار الحلف الحفيظي، المحلة العزيزية التي كانت متوجهة إلى مراكش، وذلك يوم 20 غشت 1908، حيث تم إرغامها على التراجع إلى الشاوية، وهو ما كان سبباً رئيساً في سطوع نجم المولى عبد الحفيظ، الذي لم يتردد في تعيين العيادي قائداً بموجب ظهير شريف مؤرخ في الخامس من يناير 1909.

لكن هذا التعيين الرسمي لم يكن يحمل إيذاناً ببسط النفوذ على مجموع تراب الرحامنة، فالمولى عبد الحفيظ عمد إلى تعيين قياد آخرين بالرحامنة، بمعنى أنه عين منافسين/ أعداء احتياطين،

²⁰⁶ عبد الأحد السيدي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص. 314.

²⁰⁷ Maxwell G, El Glaoui: Dernier seigneur de l'Atlas (1893-1956), Fayard, Paris, 1968, p.78.

²⁰⁸ فردريك وإيسجيرير، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق، ص. 305.

²⁰⁹ يقول فردريك وإيسجيرير في هذا الصدد: "لقد هرع الكلّاي وقياد الرحامنة وسمي الطيب الكندافي، على الرغم من معاداته للكلّاي، بحكم أنه حليف للرحامنة، بموجب ما يسمى باللفف للأنحياش إلى مولاي عبد الحفيظ".

أنظر: فردريك وإيسجيرير، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق، ص. 142.

للرجل، ومنهم على وجه الخصوص القائد عبد السلام البريوشي، وهو ما لم يكن لبستيفه العيادي، ولا حتى باقي منافسيه، فالزمن آنئذ يقتضي "القيادة الكبرى"، وتحديدا في مجال متناخم لقواد كبار كالكلاري والمتوكي والكندافي والعبيدي.

القائد البريوشي سيحاول، وفقا لهذا الطرح، أن ينتهي من منافسه العيادي، وهو ما جعله، بمساعدة كلاوة، يغير عليه في قصبته المسماة "القليلة" التي انتهبها وحاول تهديهما، فما كان من العيادي إلا أن فر إلى مراكش، ليعيد حساباته من جديد، ويغير من أدائه السياسي والاجتماعي، خصوصا وأن المستعمر الفرنسي قد حل بالبلاد. وهو المستعمر الذي ينتصر لسياسة التهذنة عن طريق تدعيم القياد الكبار.

القائد العيادي منظما وليمه على شرف كبار ضيوفه الأجانب



المصدر: وثائق خاصة لعائلة العيادي

لهذا لم يكن القائد العيادي ليمتوقع ضد الاستعمار، بل كان من أصفائه الذين منحتم فرنسا "وسام الشجعان" اعترافا بدوره بتيسير الدخول الفرنسي إلى مراكش، ونظرا لهذه المكانة التي بات يحتلها لدى المستعمر فقد دُعي إلى اجتماع القياد الكبار مع المقيم العام، وذلك يوم 11 أكتوبر بمراكش 1911، وهو الاجتماع الذي حضره العبيدي والكلاري والمتوكي والكندافي وعشرة قياد آخرين من الجنوب.²¹⁰

²¹⁰ فردريك وإيسجرير، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق ص 305.

و كما باقي القياد الكبار الذين كانوا يتنافسون على إظهار الخدمة والقرب، فقد شارك إلى جانب المتوكي والكللاوي والكندافي في ملاحقة جيش أحمد الهبية إلى مدينة تارودانت سنة 1913، هذه الخدمات المتتالية التي قدمها للمستعمرستجعله سنة 1919 يحظى بـ "وسام التقدير" من الحكومة الفرنسية ويستدعى على إثر ذلك لحضور احتفالات النصر بباريس في الرابع عشر من يوليو من نفس السنة.

لكن عقلية "الزطاط / قاطع الطريق" لم تغادره بالمرّة، لهذا كانت قراراته تحتل المد والجزر، والفعل ورد الفعل، لهذا سيقراً القائد العيادي الرسالة ميكراً، وسيبقى بأنه من غير المألوف الاستمرار في خدمة المستعمر ومحاربة الكللاوي. فابتداء من خمسينيات القرن الفائت سيرفض العيادي التسليم بواقع تنصيب سلطان جديد هو محمد بن عرفة، سينظم "حركة" في نفس يوم التنصيب إلى مراكز واجه فيها رجال الكللاوي.

هذا الموقف سيكون له دور بارز في إعادة بناء وإنتاج الوجهة الاجتماعية لأنجاله وأحفاده²¹¹ في مغرب الاستقلال، وسيسمح جانباً من "جبروت" القائد وتحالفه مع المستعمر، لدى صناع القرار على الأقل، وبسبب إقدام فرنسا على اعتقاله ونفيه ثم فرض الإقامة الإيجابية عليه بمدينة الدار البيضاء، فإن الكثير من التمثلات السابقة سوف تتعرض لإعادة الصياغة. لكن بالمقابل ستستمر تمثيلات أخرى ترى فيها "ظالماً وقاطع طريق" ما زالت تحافظ على اشتغالها في المجال الرحماني، إنه منطق التمثل والتمثل المضاد، الذي يكاد يحضر باستمرار في الحديث عن الشخصيات التي كان لها دور ما في خلخلة البنية الاجتماعية. فعندما نتأمل هذه العيطة الحوزية مثلاً، سوف نلاحظ مدحاً لفضائل القائد العيادي:

هزيت عيني ليك يا ربي
وحطيت عيني وافرح قلبي
دوزها قايد في القياد
دوزها القايد العيادي
وكملها حجة في النبي

²¹¹ لقد تم تعيين بعض أبنائه وأحفاده في مناصب مهمة، فابنه الحاج أحمد العيادي عين قائداً ممتازاً على الرحامنة، وابنه السعيد عين قائداً بأبي الجعد، والحاج الهاشمي العيادي قائداً بدكالة والشاوية وجباله، هذا الأخير اختار العمل السياسي بعد تقاعده ليصبح رئيساً لجمعية أربعماء الصخور ومنها إلى البرلمان، ويمكن الحديث أيضاً اليوم عن حفيدته النائبة البرلمانية فتحة العيادي عن حزب الأصالة والمعاصرة، التي كانت صحافية قبلاً بجمعية الريان جريدة حزب التقدم والاشتراكية الناطقة بالفرنسية، والتي شكلت مع فؤاد عالي الهمة وخاله حميد نرجس الثلاثي البرلماني الذي فاز بالانتخابات التشريعية 2007 بدائرة الرحامنة.

مول القفطان الكبيرتي
 لحكاما بالفيريتي
 مول الشراجم الشبية
 مول الثريات الوردية
 ورا الخادم تمشي وتجي
 ورا العبد يعيط سيدي
 ورا اولادو كيف البيران
 ورا اعبيدو كيف المجديان
 وياك قايدي في البيرو
 والي بغاتو ليام تديرو
 صايك العودة بالمجدول
 ولا حسدتوه ديرو كيفو²¹²

ثانيا: تجذير القاندية:

وبما أن كل سلطة هي في واقع الأمر "في حاجة إلى عنصرين متفاعلين: العنف والرضا، والقوة الأقوى ليست هي عتف المسيطرين، بل رضا المسيطر عليهم"²¹³، فإن القائد العيادي سيستثمر جيدا هذين العنصرين في تجذير مكانته عن طريق آليات اجتماعية متعددة تتوزع على إشهار واستعراض قوته المادية والرمزية وتبرير الانصياع إليها والتفاعل معها، ولما في التويضة التي استحالَت سخرة، أو الإطعام الذي يبدو أسطوريا، والعلاقات مع الاستعمار الفرنسي أمثلة دالة على ثنائية العنف والرضا التي تعضد السلطة وتجذرهما. وتساهم بذلك في شرعنة السلطة التي يمكن اختزالها في "تحويل القوة إلى حق والطاعة إلى واجب ضروري"²¹⁴.

²¹² وردت هذه القصيدة بصيغة مخالفة للرواية الشفوية، وذلك في كتاب: حسن نجحي، غناء العبيطة: الشعر الشفوي والموسيقى التقليدية في المغرب، الجزء الأول، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007، ص. 203.

²¹³ محمد ضريف، النسق السياسي المغربي المعاصر، أفريقيا الشرق، البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، ص. 68.
²¹⁴ ناصر السوسي، أسس استراتيجية "مخزنة" المجتمع المغربي، مساهمة في دراسة النسق السياسي المغربي المعاصر، 1956/1999، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، غير منشورة، ص. 15.

إن التصدي للنظام القائدي وملحقاته (الشيخ، المقدم، الجراي)²¹⁵ في إطار الانشغال السوسيولوجي، يفترض بحثاً في النشأة والامتداد²¹⁶، وهذا ما يضعنا بالتبعية قبالة سؤال إشكالي يتعلق بأسباب هذه النشأة وإرهاصاتها الأولية، فهل النظام القائدي نظام سلطوي محلي الصنع؟ أم أنه نموذج استعماري يعتبر نسخة رديئة أو جيدة للنظام الفيودالي؟ أم ماذا؟

من خلال استقراء نموذج القائد العيادي، يمكن الخروج بملاحظة أساسية، نجعلنا نستعيد ما أثاره روبرت مونتاني قبلاً، وهو يقول بأن هؤلاء الكبار "يكمرون بعيداً عن المخزن ثم يطحنون في أن يصبحوا رؤساء مخزنيين بشرط الاعتراف بوضعيتهم"²¹⁷. لكن مع التأكيد على أن القائد العيادي كان يواصل تقوية حضوره داخل المجال الرحمانى، في تمام تام أو جزئي مع ما يصدر عن السلطة المخزنية، فهو لم يكن ليكر بعيداً كلياً عن أنظار المخزن ودونما التقاط لإشاراته، في حين يظل الاعتراف الرسمي بقايدته مطلباً يتوجب العمل على بلوغه ببذل جهد أكبر، على صعيد الخدمة المخزنية والقرب والقربانية.

على الخادم المخزني أن يمثل نفسه كخادم وفي يمكن أن يقدم نفسه قرباناً لفائدة السلطة المخزنية، وألا يضيئه في ذلك شيء، لهذا لم يكن مستغرباً أن تلجأ الرسائل السلطانية إلى استعمال عبارات من قبيل "محب جنابنا الشريف، خديمتنا الأوفى، خديمتنا الأرضي، المتعلق بالأهداب الشريفة"، علماً أن هذا القاموس يستعمل أيضاً في المتن الزاوياتي والضرائحي "خديم السيد" و"خديم المقدم" و"خديم الشيخ".

فلاشتغال المستمر للمخزن على الرمزي والطقوسي ساهم في بناء مجموعة من الإرواليات المؤسسة لمسكنات الخدمة المخزنية، وفي إطار هذا التكثيف تحضر القربانية كعنصر مؤسس لهذه الخدمة، فليس مطلوباً من النخبة المخزنية إلا أن تهب نفسها كلية وتضعها تحت تصرف من هو أعلى رتبة وسلطة، "فالمرید من خلال وضع نفسه تحت تصرف الشيخ يعمل على التقرب أكثر من مركز السلطة، أي أنه يصبو للمساهمة في صنع القرار"²¹⁸، وهو ما يحقق له نهاية انتماء مؤكداً لسجل نخبة النخبة.

²¹⁵ وهو آخر شخص في الهرمية المخزنية، كثيراً ما يتم إهماله بصدد الحديث عن النسق المخزني، تماماً كما هو الأمر بالنسبة للبراج. والجراي كما يدل على ذلك إسمه، فهو شخص يكلف بتبليغ فحوى القرارات المخزنية، وهو لا ينتهي من الجري، من مكان لآخر، حتى تصل الرسالة على فائق السرعة، ويكون بالتالي عند حسن ظن رؤسائه.

²¹⁶ عبد الرحيم العطر، تحولات المغرب القروي: أسئلة التنمية الموجهة، منشورات دفاثر الحرف، سلا، الطبعة الثانية، 2012، ص. 65.

²¹⁷ Robert Montagne, Les berbères et le makhzen, op.cit.p.141.

²¹⁸ عبد الله حمودي الشيخ والمرید مرجع سابق، ص. 29.

إن علاقات المد والجزر التي كانت تربط المخزن بالقبائل تعد مسؤولة إلى حد ما عن بروز كثير من الظواهر والحالات المجتمعية، ففي ظل هذه العلاقات تنبثق تضامانات مصاحية، وتظهر زعامات جديدة، وتتأسس علاقات جديدة أيضا.

وبما أن النظام القائدي، حسب بول باسكون، يتأسس على زعامة أو رئاسة متجذرة، فإن هذا يدفعه إلى القول بأن المخزن عمل على تعميم ظاهرة تقوية الرئاسة على شكل قايديية²¹⁹. وهو ما يجعله يتحفظ على طرح روبير مونطاني الذي اشترط ميلاد القائدية بوجود قبيلة مستقلة نسبيا تعين بنفسها رؤساءها، وتختار ممثلا عن أسرة قوية ليتسلم قيادتها²²⁰. علما بأن معطى الاستقلال التام عن السلطة المخزنية هو مجرد انعكاس لأطروحة التعارض التي بصمت السوسيولوجيا الكولونيالية. ففي كثير من الشواهد التاريخية، نقرأ تعيينات لقياد يتكلفون بتمثيل المخزن حتى في تلك المناطق التي وصفت، في هذه السوسيولوجيا، أنها بلاد السببية أو بلاد الجمهوريات المستقلة، فالاستقلال "القبلي المزعوم إنما هو جد نسبي، فما هو إلا وضعية جزئية عابرة"²²¹.

إن المخزن محتاج إلى من يحصل له الضرائب من القبائل، ومحتاج إلى من يمثل في أعماق هذه القبائل، ومن يضمن له جباية هذه الضرائب، ومن يضمن نفوذه الرمزي. وبالطبع فرؤساء القبائل مؤهلون أكثر من غيرهم إلى القيام بهذه المهمة.

يجسد احتلال الموقع القائدي نوعا من الامتداد المخزني، متيحاً بذلك فرص التسلط والاعتناء، وبهذه الطريقة يصبح القائد ممثلاً للجهاز المخزني ومنخرطاً في منظومته ومكرساً لسلطته في حدوده الترابية التي تتوسع وتتقلص حسب الحروب والمنافسات المستمرة مع باقي القياد الآخرين الذين يطمعون أيضا في كسب رضا المخزن بواسطة تطويع المزيد من الأراضي.

وبما أن القائد كان يعي جيدا بأن رضا المخزن عنه يرتبط بمدى تحصيله لأكثر قدر ممكن من الضرائب التي يأخذ عنها نسبة مائوية، فقد كان لا يتورع هو وملحقاته (الشيخ، المقدم، الجراي) عن إرغام الناس على أدائها بأساليب العنف والإكراه، التي تعبر عن سلطوية مطلقة تستمد "شرعيتها" من المخزن المركزي، فهذا الأخير هو الذي دعم سلطة القياد، وساهم في توسيع صلاحياتها، إلى الدرجة التي أصبح فيها كل قايدي، وكل تابع له يتوفر على قدر كبير من النفوذ في النظام القائدي، ويستفيد من

²¹⁹ بول باسكون، الفترات الكبرى للقائدية، تعريب: زبيدة بورجيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، الرباط، العدد الخامس والسادس، 1981، ص 71.

²²⁰ بول باسكون، الفترات الكبرى للقائدية، نفس المرجع، ص 70.

²²¹ بول باسكون، الفترات الكبرى للقائدية، مرجع سابق، ص 70.

الامتيازات كل حسب إمكانياته²²². خصوصا في المجال الحوزي الذي شبهه بول باسكون بثنابة رقعة شطرنج، يتفاعل فيها ويتنافس فيها كل من العيادي والكلاوي والمتوكي والكندافي وحتى العبيدي، على اعتبار أن "تحليل التتابع البالغ التعقيد للتحالفات الدائرة بين كبار القياد، يجعلنا نعتقد أن الحوز والمناطق الأطلسية حيث توجد قواعدهم للانطلاق كانت بالنسبة لهم رقعة شطرنج يلعبون فيها لعبة التوازن الحساس"²²³.

سيؤثر هذا الأداء السياسي للقياد في حركية القبيلة وتفاعلها مع محيطها الخاص والعام، وسيساهم، ضمن عناصر أخرى، في خلخلة البنيات الاجتماعية للمجال، فالقائد العيادي وبسبب علاقاته وممارساته التي كثيرا ما وصفت بالعنف والإكراه، سيدفع بكثير من آل الرحامنة إلى النزوح نحو المدن الكبرى. طبعاً هناك عناصر أخرى كالجفاف وجاذبية المدينة وإغراءها، لكن يظل نموذج القائد العيادي سبباً رئيساً ضمن هذه العناصر التي أنتجت فيما بعد فراغات سكانية لافتة في المجال الرحماني.

إن المجاعات وارتفاع الأسعار التي عرفها عام البون مثلاً كانت وراء إنتاج هذه الفراغات السكانية، فقد وجد الكثيرون من سكان القبيلة أنفسهم مجبرين على الهجرة باتجاه المدن الكبرى هرباً من الجوع والتهاب الأسعار الذي نكتشف بعض ملامحه في وثيقة (بحوزتنا) يتحدث فيها صاحبها عن المجاعة التي أملت بالرحامنة.

إذ يقول الفقيه المولودي بن العربي العزوري (صاحب الرسالة) في رسالة موجهة إلى أحد أبناء عمومته المقيم بفاس: "واعلم حفظك الله ورواك أننا ما رأينا مسغبة ولا جائحة كهذه، فالجيف في كل مكان، وصار الغلاء الكثير في الحبوب، وفي سائر ما يؤكل من لحم وإدام وغيره، واشتد الجوع حتى أكل الناس الجيف، فعبرة الشعير التي كانت بعشر فرنكات غدت بألف فرنك... فنسألك أن ترسل لنا بعضاً مما أعطاك الله".

ويستمر الفقيه المولودي في تذكير ابن عمه بارتفاع الأسعار مؤكداً بأن عبوة²²⁴ القمح غدت ب 2000 فرنك، فيما اللحم انتقل من 10 فرنكات للكيلو إلى 150 فرنكاً، ففي تلك المجاعة التي وسمت بـ "عام البون" والتي كانت لها علاقة بتداعيات الحرب العالمية الثانية واستتبعات السياسة الفرنسية، اعتباراً لكون الطعام حينها كان يقدم عن طريق "وصلات"، فقد عرفت الرحامنة هجرات

²²² بول باسكون، نفس المرجع، ص. 70.

²²³ بول باسكون، نفس المرجع، ص. 86.

²²⁴ العبوة هي وحدة للقياس، وهي مكيل لوزن الحبوب، وتساوي ما يناهز 12 كيلوغراماً.

كثيفة نحو المدن الكبرى. إن هذه الوضعية، مضافا إليها ما حدث قبلا منذ دخول الاستعمار، ستخلخل البنية العقارية والتراثية بالمجال الرحامي، فعن طريق تحفيز التملك العقاري عن طريق ظهير التحفيظ العقاري لسنة 1913، فإن الإدارة الاستعمارية، لم تعمل على إلغاء نظام القياد والأعيان، بل عملت على تقويته، والدفع به في الاتجاه الذي يخدم مصالحها الامبريالية، وهو ما ساهم فعلا في تكريس سلطتها، بحيث اتسعت أسماء الكثيرين من القياد²²⁵ الذين ساهموا في خلخلة المسار التاريخي لمناطق نفوذهم.

فمنصب القائد في البادية كان مصدر إثراء كبير، ولربما وقع على حساب المحكومين²²⁶، ولهذا كان القائد يبدو منشغلا في كل حين بتوسيع مجال نفوذه الترابي، لأن القوة تقاس هنا بالأرض التي يجري تنزيل القوة فوقها، لأن الأرض تعد علامة إشهار واستعراض لهذه القوة، فالوظائف الرسمية للقائد والشيخ سهلت للمبعوض، إن لم نقل الكل، مراكمة الثروات وتوسيع الأراضي²²⁷، فعبارة "بلادو على حد الشوف" التي كثيرا ما يجري استعمالها في القرى المغربية، لا تكشف فقط عن حدود الملكية، وإنما تشهر وتعلن القوة الرمزية والمادية للمالك.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار، أنه في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، "فكل استيلاء على الأرض يعني حكم رجلا وكم ضريبة يجب اقتطاعها"²²⁸، إلا أنه في سياق هذه المنافسة حول السيطرة على المجال، وكما يقول بول باسكون "تنسحق القبيلة، وتشتت"²²⁹. لهذا تواترت الهجرة القسرية من مجال الرحامنة إلى الدار البيضاء والرباط بدرجة أعلى. فالهجرة القروية التي عرفتها قبائل الرحامنة لم تكن فقط بسبب الجفاف، وجاذبية المدينة، لكن كانت أيضا، بسبب قهر القياد والكلف المخزنية ونزع الملكية والسخرة.

²²⁵ من بين هؤلاء القياد: عيسى البحاتري بمنطقة عبدة، العيادي بالرحامنة، الكلاوي بالحوز، وقد راصم هذا الأخير ثروة هائلة يقول عنها بول باسكون: "فبعد تنفيذ الحجز سنة 1958 كان مجموع الملكيات القروية المسجلة في الحوز وحده يغطي مساحة تبلغ 11400 هكتار مسقية وأسر الكلاوي تملك أكثر من 16000 هكتار في الحوز. وقد قدرت مساهماته في الأعمال الصناعية بليبارين من الفرصات سنة 1956... وقد حكم مباشرة أو بواسطة أبنائه طيلة 44 سنة عددا من السكان يفوق المليون نسمة إلى حدود سنة 1955".

أنظر: بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، مرجع سابق، ص 72-73.

²²⁶ مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 81.

²²⁷ Michaux Bellaire, Le Gharb, op.cit. p 105.

²²⁸ بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، مرجع سابق، ص 86.

²²⁹ بول باسكون، نفس المرجع، ص 87.

و في هذا الصدد يبرز روبرت مونتاني بأن الهجرة القروية المكثفة باتجاه المدن، والتي عرفها المغرب في ثلاثينيات القرن الماضي تعود إلى عاملين مركزيين: الأول يتمثل في الجفاف الذي عرفته البلاد والذي سيدفع الساكنة إلى الهجرة نحو الشمال ومن القرى إلى المدن، وقد نعت مونتاني هذه الحركة بأنها تشبه حركة الجراد وهو يتجه شمالا مدفوعا بغريزته الطبيعية، أما العامل الثاني، فيرجعه إلى استبداد القياد الكبار واتساع الاقتصاد المسالي وتجريد الفلاحين من أراضيهم من طرف الفرنسيين²³⁰.

بعد الاستقلال²³¹ لم تتغير وظيفة القائد وملحقاته، وإن لاحت متغيرة جديدة وهي "اللاتجذر الاجتماعي" للقائد، فضلا عن التكوين المعرفي الذي أصبح يتسلح به القياد الجدد الذين يتخرجون من مدرسة استكمال تكوين الأطر بالقيظرة، وبذلك فهو لاء القياد "سيصبحون لأول مرة بعد الاستقلال يتقاضون أجرة... بدلا من النسبة المئوية التي كانوا يحصلون عليها من الضرائب المجبية لصالح المخزن أو الاستعمار... سيصبحون موظفين تابعين للدولة المركزية، ولوزارة الداخلية بخاصة"²³². وهو ما عيّد طريق المؤسسة أمام الظاهرة القائدية، على الخط الذي رسمه لها المخزن والاستعمار، ولكن وإن كانت بأشكال مؤسسية جديدة، فثمة وظائف جديدة لكن بـ"جينات" بدء وامتداد تقليدية.

و إذا كانت حركية القبيلة، في علاقتها بالمخزن وباقي القبائل، قد لاحت على هذا النحو من التركيب، فماذا عن الزاوية والاحتفاء بالمقدس؟ كيف يتم تدبير هذا الأمر في المجال الرحماني؟ وأي أدوار لعبها الفاعل الزاوياتي في سياق هذا الحركية؟ ذلكم ما نرمي إلى اكتشافه في الفصل الموالي.

²³⁰ Robert Montagne, Naissance du prolétariat Marocain, Editions Peyronnet Paris, 1952 p 136.

²³¹ بتاريخ 20 مارس 1956 صدر ظهير شريف يمنع القياد من أخذ الضرائب، وفق ما كان معمولاً به في مغرب القرن التاسع عشر.

²³² محمد جوسس، المقدم والشيخ وجهان للسلطة، جريدة الاتحاد الاشتراكي، بتاريخ 24 دجنبر 1994.

الفصل السابع:

ثقل " الزاوية " الاحتفاء بالمقدس

لم تكن الزاوية بمعزل عن حركية المجال الرحماني، في مختلف مراحلها وتحولاته، ففي كل الديناميات المجتمعية نجد استحضارا أو استحضارا للمقدس الزاوي، فالعلاقة بين "المقدس والديني مطاطية وحركية، وليست تعاضدية ومتوازنة، فمكونات العالم الديني ليست غائبة عن مجال المقدس، سواء على مستوى الوعي أو السلوكيات"²³³.

في حركية القبيلة المجالية والسياسية، وفي علاقاتها مع أفرادها وباقي القبائل الأخرى، ثمة ارتكان إلى المقدس في التدبير والتفاعل، فإعادة الإنتاج تظل محكومة في كثير من الأحيان بالقدرة على استثمار المقدس وتوظيفه، ولهذا لا يبدو غريبا أن يصكون "المستوى السياسي/السلطوي في المجتمع المغربي، قد حاول أن يوظف كل المستويات الأخرى"²³⁴ من أجل تدعيم وجوده، ولهذا فقد اعتمد على العنصر الديني بشكل أهم، "فالعلاقة السياسية بالديني تتميز بنوع من الجدلية، فالسياسي يستمد مشروعيتها من الديني، بما يتضمنه من دلالات رمزية"²³⁵.

إن حضور المقدس في المجال يظهر في المساجد والأضرحة والزوايا، كما يظهر في أشكال التعاقد والطقوس والممارسات الفردية والجماعية، وهو ما سيجري تجذيره مجاليا ومؤسستيا بعد الانتقال من "الحيمة إلى النواة"، كتعبير دال على معطى الاستقرار.

خلال مروره بالرحامنة تمكن إدومند دوتي من إحصاء ثلاثة عشر ضريحاً وهي: سيدي عبد الله بن ساسي، سيدي البهليليل، سيدي أحمد بنغوز، سيدي بناصر، سيدي عبد الكريم، بابا عيسى السلموني، سيدي أحمد الركبي، سيدي ناجي، مولاي عمر، سيدي أحمد الكرن، سيدي عبد الله بو العوينة، سيدي

²³³ نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005، ص. 21.
²³⁴ رحمة بورقية، العرف والعلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد السابع، 1984، ص. 173.

²³⁵ رحمة بورقية، العرف، العلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، نفس المرجع، ص. 173.

مفتاح، وضريح أولاد الزعرية²³⁶. فضلا عن تأكيده على وجود خمس قباب بين جريس وهي: سيدي عبد الرحمان وسيدي بن عزوز وسيدي أحمد بناصر وسيدي أحمد المراكشي وسيدي أحمد بن الصديق²³⁷.

فالمجال الرحماني لم يكن ليختلف عن باقي مناطق المغرب التي تغطيها شبكة مكثفة من الأماكن المقدسة التي تتشكل رمزيتها وتتمظهر قدسيته مثلا في أشجار، ينابيع، أحجار...، بل إن هذا المجال سيعرف عددا كبيرا من الأضرحة والمساجد²³⁸، وسيعرفه وهذا ما سنثيره بعدا، حضورا قويا للزوايا. فهل الحركة السياسية التي عرفها مجال الحوز عموما تعبر هذه الحركة الدينية التي تلوح في ظاهرة الصلاح والأولياء التي برزت أكثر في هذه المنطقة؟ أم أن الحاجة إلى "المقدس" تكون أكثر في مجالات الحركة والصراع والتدافع، من أجل امتلاك المجال والتحكم في موارده وعائلاته الرمزية والمادية؟

يشير عبد الكبير الخطيبي إلى أن "الضيق الاقتصادي الشديد، تلازمه عصبية قوية ونظام قوي للدفاع عن الذات"²³⁹، والواقع أن المجال الرحماني، وكما رأينا قبلا، هو مجال معطوب من الناحية الجغرافية، فباستثناء منطقة البحيرة فإن باقي مناطق الرحامنة تعرف شحا في الإمكانات الطبيعية، ومجتمع بهذه المواصفات في حاجة إلى ما يعضده ويدعم وجوده المهدد دوما بإكراهات الطبيعة والجوار القليل.

فهناك "تشابه بين الضيق الاقتصادي الشديد وثقافة مرتكزة على قيم قوية، فهذه الأخيرة تعوض الأولى وتحديث التوازن داخل النظام الاجتماعي، وبهذا الشكل يحتاج إلى إيديولوجيا وإلى دين"²⁴⁰، فمن خلال استدعاء علاقة الرحامنة بعدد من شيوخ الزوايا والأولياء والأشراف الذين لعبوا أدوارا دينية وسياسية في نفس الآن، يتأكد أن الشرط الجغرافي، مرة أخرى، سيجعل القبيلة تبحث عما يضمن لها الاستمرار والتماسك.

إنه الجواب السهل الذي سنؤجل الحسم فيه إلى حين اكتمال الصورة عن علاقة الرحامنة بتقنيات المقدس المجالية والسلوكية، والتي سنتناولها في المستوى وفق مدخلين وهما التعاقدات والتضامانات ثم الحضور الزاوياتي.

²³⁶ Edmode Doute, Marrakech, op.cit.p.290.

²³⁷ Edmode Doute, Marrakech, op.cit.p.305.

²³⁸ عدد المساجد مثلا في مجموع إقليم السراغنة مثلا يصل إلى 1764 مسجدا، فيما باقي مكونات جهة تانسيفت الحوز لا تتجاوز 766 مسجدا بمراكش و1245 مسجدا بشيشاوة و1607 مسجدا بالحوز و1631 مسجدا بالصويرة

أنظر: مجموعة من الباحثين، تقرير الحالة الدينية في المغرب 2007-2008، منشورات المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009، ص.51.

²³⁹ عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1980، ص.175.

²⁴⁰ عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، نفس المرجع ص.175.

أولاً: التعاقدات والتضامانات:

في مجال محكوم بجوارات لا تحتل السلم دائماً وفي مجال مكتسب بالقوة أولاً، لا يكون السبيل إلى تحسين المجال ممكناً إلا بالدخول في تعاقدات وتضامانات عرفية مع هذه الجوارات، وهي تعاقدات تتم في الغالب برعاية المسؤولين عن تدبير المقدس، من صلحاء وأشرف وشيوخ زوايا، إنها مسنودة بثقل المقدس، وهذا معطى آخر يكشف هشاشة أطروحة التعارض بين "العرف والشرع".

ومن الأعراف التي كانت تضبط العلاقات فيما بين الأفراد بالرحامنة، توصلنا إلى مخطوط (محوّزنا)، يضم بعض الجزاءات المترتبة عن بعض المخالفات التي يتم ارتكابها، وهي الجزاءات التي تضر وتعلن بدورها الترتاب الاجتماعي القائم في القبيلة²⁴¹:

- من سرق شيئاً فعليه أربعة من مثل هذا الشيء.
- من سرق غنماً، يرد ما سرق أو يؤدي ثمنه ويزيد على ذلك ثلاثة رؤوس من الغنم أو ثمنه، ولا يقيم بالرحامنة لمدة عام.
- من سرق شيئاً من ضريح أو زاوية أو جامع يغرم بمائة مثقال ويرد ما سرق ويزيد على ذلك سبعة أو يؤدي ثمنه.
- في حالة اغتصاب امرأة حرة تعطي مائة ريال (نصاف) وصدّاق تلك المرأة.
- من أكره المرأة المتزوجة على الزنى يدفع مائة مثقال وتعريكية²⁴²، ولا يقم بالرحامنة، وإلا فدمه مهدور.
- من دخل بيت أحد أو خيمة أو دار أو زاوية على وجه الخديعة فعليه 50 ريالاً، 25 لرب البيت و25 لـ "اجماعه".

²⁴¹ سؤال الترتاب الاجتماعي في الجزاءات يحيلنا أيضاً على دية العبد في تافيلالت: وهو ربع كيلو من فلفل أسود، فقد جاء في وثيقة (محوّزة الباحث أحمد وبخمان) عن جزاءات القتل ما يلي: "من قتل عبداً يعطى لأهله ربع كيلو من فلفل أسود، ويعطى لصاحب العبد ثمن شرائه من السوق".

²⁴² وهي شكل من أشكال "العار" تلقية القبائل عموماً في حضرة الولي الصالح أو حتى في طريق المحلة السلطانية طلباً للأمان أو توثيقاً للمهود والأحلاف والأوقاف، كما يلجأ إلى استعماله الأفراد لتسلافي العقاب وطلب الصفح، ويتأسس هذا الطقس على تقديم ذبيحة للضريح تأكيداً لوثوقية الحلف وقُدسية الطلب، وبالطبع فمن "ري عليه" هذا العار الكبير، ليس بمقدوره رده أو رفضه، لأن اللعنة ستحل به، إن هو قام بذلك. وسميت بالتعريكية لأن من يريد رميها يفترض فيه أن يقوم بتمرير السكين على عرقوبي النور من خلاف رجله، حيث يسقط أرضاً من شدة الألم، وما على من "ري عليه" العار، إلا أن يقوم بذبح النور حتى لا يتعذب أكثر، وبذلك فقيامه بعملية الذبح يعد قبولاً.

- من تعدى على زاوية أو مسلم يغرم ب 12 ريالاً.
- من ضرب أحداً بخنجر فعليه "تعريكية" ودية الجروح ومؤونة المجروح.
- إذا ظهر حمل في امرأة ولم يكن لها زوج، فإن أهلها يعطون 100 ريال وتحرق خيمتها وتطرد من وسط القبيلة.
- من قتل أحداً من القبيلة يعطي 100 ريال وتحرق خيمة القاتل ويرضي أهل الدم، والرضى يكون بتعريكيتين، واحدة لأهل الميت والثانية للجماعة والدية سبعة من الإبل أو 20 من الخيل أو 100 من رؤوس الأغنام.
- من نعت للعدو شيئاً من مال القبيلة فيعطي خمسين ريالاً نصفاً وتحرق خيمته ويغرم ما ذهب به العدو.

و الواقع أن هذه التعاقدات والتضامات لا تكشف عن أنظمة تدبيرية قانونية صرفة للتحالف واستغلال المجال، بل إنها تفيد في قراءة جملة من التمثلات والممارسات الاجتماعية والثقافية والسياسية سواء بالنسبة لقبيلة الرحامنة أو مجاوريها، إنها نسق ثقافي ثري يعكس تاريخاً من التفاعل بين الإنسان والمجال.

أ- معمار القبيلة: يتوزع التنظيم الاجتماعي لقبيلة الرحامنة على مجموعة من الوحدات الاجتماعية والمجالية، التي تجد "تبرير" انتظامها في تاريخ من التفاعل الثقافي والسياسي مع واقعي الترحال والاستقرار، وهو انتظام ينتقل من "الخيمة" كأصغر وحدة اجتماعية إلى القبيلة الكبرى، التي لم تعد تظهر اليوم، كوحدة سياسية، وإنما تلوح كتمثلات وإدراكات تمتد إلى الخطاب والممارسة:

الخيمة: وهي الأسرة الكبيرة المكونة من أبوين وأبناء متزوجين وذريتهم، أو من إخوة وأزواجهم وأولادهم، يكونون مجتمعين في مسكن واحد أو مجموعة مساكن متقاربة، يستدل عليهم بخيمة فلان (خيمة الناجي مثلاً) إشارة إلى الأب أو الجد المؤسس، أو يشار إليهم بالأصل القبلي (خيمة السريغي، خيمة العبدى...)، كما يمكن أن يشار إليهم بأوصاف وانتماءات مهنية (خيمة الصناك، خيمة الشيخ...)، وفي حالة وجود أسر لعبت فيها النساء أدواراً تاريخية فالتسمية تخضع للتأنيث (خيمة ولاد الزعري، خيمة الرحمانية...). إن ما يميز الخيمة الرحمانية هو كونها تجمع عدة أجيال من سلالة أب واحد، يسكن أفرادها في دار واحدة، وإن تعددت المساكن وطغت "ثقافة العزيل"، فكلها تفيد من مجال واحد وتستعمل الأملاك ذاتها.

لعظم: وهو مجموعة من الخيام، من ثلاثة إلى عشرة أو أكثر من ذلك بقليل، يعتقد في أن أرباب الخيام يتحدرون من جد مشترك، أو على الأقل وفدوا إلى المجال من مكان واحد. والعظم يحيل

من حيث مقابلة المجالي/ الترابي على الدوار الذي يأخذ تسميته، والتي تشير في الغالب إلى الجد المشترك أو الأصل الأول (أولاد ابراهيم، ولاد غنام، أولاد حريز..). لكن وبالرغم من هذا التقابل الترابي، فإن العظم لا يكون دائما "متملكا" للدوار، فقد يكون في الدوار الواحد أكثر من عظم، أو يتوزع العظم الواحد على أكثر من دوار.

الفخدة: أو الفرقة وهي مجموعة عظام يعتقد أنها تنحدر من جد مشترك أكبر، مشكلة بذلك وحدة اجتماعية كبرى يطلق عليها الفخدة أو الفرقة، وهي بذلك تحمل اسم هذا الجد (لبريكين من بريك، البرابيش من بربوش، الجعافرة من جعفر..)، وللفخدة حدودها الترابية التي يتوجب احترامها من لدن الفخدات الأخرى، لأنه في حالة التهديد، فإن الفخدة تشكل وحدة عسكرية تدافع عن مجالها ورموزها.

الخمس: وبالرغم من كون الخمس والربع مجرد تقسيم جبائي، فإن الرحامنة يعتبرون أن تقسيمهم إلى أخماس لم يكن اعتباطيا، لكنه يظل ميرا بانتماءات علائقية تؤكد لها الامتزاغات بين الفخدات، مما يدعم التواشج والتقارب الإنسي والانتمائي للفخدات المشكلة لكل خمس، لكن الملاحظ في الأخماس الرحمانية أنها غير متساوية، لا من حيث المجالات الترابية ومن حيث عدد الفخدات المكونة لكل خمس.

القبيلة: وهي الوحدة الاجتماعية والسياسية الأعلى في التنظيم الاجتماعي للرحامنة، والتي يعتقد أن تستند في انبثاقها وتطورها إلى فرضية الجد المشترك، ولو كان وهميا، وتتكون قبيلة الرحامنة من أخماس وتوزع على مجال ترابي محدد، وتنظم فخداتها في تحالف وتعاون كما كان هناك تهديد، والتي تلتئم حول رموزها الدينية والثقافية التي تؤسس لتضامنها واستمرارياتها.

ب- اجماعة: تعد "اجماعا" مؤسسة تنظيمية محلية مرتبطة بالدوار (أو الدشر أو القصر كما في الشمال والجنوب المغربي) الذي يأوي عددا من العائلات المتحدرة مبدئيا من جد مشترك، ومنتمية بالضرورة لنسق قبلي واحد، إذ يوكل إليها أمر السهر على تنظيم المشترك الجمعي لهذه العائلات وفق مقارنة تشاورية تنضبط إلى التمثيلية والمشاركة التامة للعائلات المشكلة للدوار²⁴³. وهي مؤسسة غارقة في القدم عرفتها أغلب القرى المغربية وفق تسميات مختلفة معبرة عن الانتماء المجالي والقبلي، كما عرفت المدن أيضا بصيغ مختلفة في الشكل لا الوظيفة، تماما كما هو الأمر بالنسبة للحنط.

يعد الدوار الترجمة المجالية لـ "اجماعا" في الرحامنة، وعموما فهو يدل على "مفهوم سوسيو مجالي قاعدي متجذر في أرياف السهول والهضاب الأطلننتيكية والداخلية بالمغرب، ويتكون من مجموعة أسر تربط أفرادها عادة علاقات إنسانية نمت وتوطدت بفعل تضايف مجموعة من العوامل في مقدمتها

²⁴³ عبد الرحيم العطري، تحولات المغرب القروي، مرجع سابق، ص. 75.

القرابة العائلية سواء كانت موروثية أو مستحدثة نتيجة المصاهرة، ثم المصالح المشتركة وتبادل المنفعة التي يفرضها الجوار والتعايش²⁴⁴.

يتكون الدوار في الغالب من 20 إلى 30 كائونا أو خيمة أو دارا، يوحدهم الانتماء لنفس المجال الجغرافي وتربطهم علاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية بحكم قوة هذا الانتماء، الذي يستوجب تنظيميا وضبطا اجتماعيا وعلائقيا بالضرورة، وهو ما يتطلب في مرحلة متقدمة من التفاعل الاجتماعي والصراع والتنافس حول المصالح، مؤسسة كفيفة بالتحكيم والتدبير والتصرف العام للقرارات، ففي هذا السياق لاحت "جماعة" كمؤسسة تشاورية في البدء ثم إلزامية وتوجيهية في تدبير رهانات المشترك والجمعي.

إن الجماعة الممثلة لآل الدوار تتكون من كل رؤساء العائلات الذكور، وفي حالة انتفاء الذكور المؤهلين عمريا²⁴⁵ للمشاركة في اجتماعات الجماعة، وذلك بالنسبة لبعض العائلات التي تسيطرها النساء، فإن الممثل في هذه الحالة يكون ذكرا من أقربائها كالحال أو العم. فهذه الجماعة التي يفترض فيها أن تمثل كل أفراد المجتمع المحلي، لا يشارك فيها فعلا إلا الرجال المتزوجون والقادرون على حمل السلاح، مما يقصي العزباء والحامسة والعبيد (إن وجدوا)، كما توجد عمليا بين أيدي الأعيان الذين يتناوبون على إدارة مجلس الجماعة²⁴⁶، وعليه فأشغال "جماعة" يترأسها في الغالب أحد الأعيان، الذي يحوز رساميل مادية ورمزية تمنحه نفوذا وتأثيرا في الناس.

تلتزم جماعة في دواوير الرحامنة بشرط المناسبة، وإن كانت قبلا تنتظم وفق منطق أسبوعي، وآخر يومي عقب صلاة المغرب وقراءة الحزب في انتظار العشاء. إلا أنها اليوم لم تعد تجتمع إلا بمناسبة الأعياد والمواسم، أو في حالات موجبة للاستعجال، ومن منطلق خارجي أكثر ما هو داخلي (يليعاز من القائد مثلا، وذلك للمشاركة في استقبال رسمي).

و تختص الجماعة وظيفيا بتدبير المشترك من ماء وأرض ومجال مقدس، كما تقرّر عمليا في العلاقات مع المستويات القبلية الأعلى، إنها بهذا المعنى مؤسسة تنظيمية توظف العيش المشترك عبر تقنين الري واستغلال أراضي الجموع والاتفاق مع فقيه الشرط لتأمين فعالية الحقل الديني والتعليمي، كما أنها تلوح كمؤسسة للتحكيم من خلال رأب الصدع والبت في النزاعات بين آل الدوار، وفي

²⁴⁴ محمد الأسعد، التحولات المعاصرة للسكن الريفي: حالة هضبة بنسليمان، في كتاب: دينامية المجالات الفلاحية بالمغرب، تنسيق: موسى كرزازي، محمد الأسعد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 121، الرباط، الطبعة الأولى، 2005، ص. 52.

²⁴⁵ أي أولئك الذين ينطبق عليهم مفهوم حد الصايم الذي يعني كل البالغين القادرين على المشاركة في الأعمال الاقتصادية والدفاعية الخاصة بالجماعة.

²⁴⁶ مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلة المغرب، الجزء الثاني عشر، مرجع سابق، ص. 418.

مستوى ثالث تقدم نفسها كمؤسسة دفاعية تنافح عن مصالح الجماعة بالتعامل مع المستويات القبيلة الأعلى وتدير مسألة الحدود والمراعي مع "اجماعات" الدواوير الأخرى.

و بسبب انتقال كثير من المجالات من سلطة "اجماعة" إلى سلطة الدولة، وظهور "السياسي" كوافد متنام بالدوار، فإن الزمن البيوي تقلص من حياة الجماعة، ولم يعد متاحا إلا يسقف اشتغال محدود وقرارات غير ملزمة في الغالب، إلا زمن المناسبة وزمن الحاجة. إنه الزمن المغلق الذي يوازي الانغلاق العلائقي والارتكاس الوظيفي.

لم يكن للغريب عن الدوار أو القبيلة أو حلفائها مكان ما في دوار الحنيشات بجماعة ليريكيين مثلا، فحتى من كان يقدم نفسه كخماس، لم يكن ليقبل بسهولة، عليه أن يكشف عن انحذاره القبلي الذي يتوجب أن يكون غير بعيد عن دوائر الأخلاف، فلم تكن المنطقة قبلة للمنحدرين من مناطق فضية كسوس وتافيلالت ورجالة إلا بدرجات قليلة ومعزولة في الغالب، لقد حافظ دوار الحنيشات لزمن طويل على تركيبته البشرية المتجانسة بفعل قرابة الأصل أو المصاهرة. لكن مع ظهور ضيعات الديك الرومي بالدوار صار الغريب "مبالكا" رمزيا للمجال، ومعجلا بـ"انحذاء" الجماعة، واقتصار لحظات "إحيائها" على شرط المناسبة فقط.

فالجماعة تلتئم لأن القائد يأمرها بالاحتفال بمناسبة وطنية، لهذا تجتمع وتحسم في طبيعة المشاركة التي تكون في الغالب بالفروسية، كما أنها تجتمع، كما حدث في بعض الاستشارات الانتخابية لأن "المخزن" يريد منها أن تصوت لصالح فلان، على اعتبار أنه من "حزب سيدنا" أو أن "المخزن باغيه ينجح".

إن التحولات التي مست مؤسسة اجماعة بدوار الحنيشات لا تنفصل بالمرة عن مجموع التحولات التي عرفها المجال والإنسان في المجتمع القروي، فالمستويات الرمزية والمادية لهذا الدوار لم تسلم من التغير سواء من الناحية الاجتماعية لتدبير البيوي أو في حدود العلاقات والقيم والمعايير التي تضبط إيقاع هذا البيوي.

ج- الرطاطة: مجال الرحامنة هو مجال عبوري يربط بين عدد من المدن، إنه مجال السفر والتجارة والحركة والمحلة أيضا، لهذا كان من الضروري أن تشتهر فيه مجموعة من النزلات التي يأخذ فيها المسافر قسطا من الراحة، ليواصل سفره، فبدها من مشرع بن عبو أو مشرع الشعير كما عرف في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذي يؤثر على عبور نهر أم الربيع، تتوالي النزلات من صخور الرحامنة إلى بن جرير فنزلة لعظم ثم سيدي بوعثمان، وتفسر كثرة النزلات في منطقة الرحامنة بإكراهات

المناخ التي تستوجب توقفا من حين لآخر، فلا الإنسان العابر لهذا المجال ولا دواب الضرع والظھر يقدرّون على المشي لساعات طوال ودونما توقف، هذا فضلا عن معطى اللصوصية الذي يستوجب الرظاطة والنزالة.

إن الرظاطة حسب تحريج عبد الأحد السبيتي كانت "عنصرا ينتمي إلى شبكة من الأعراف الاجتماعية والسياسية التي ابتكرها المجتمع القبلي من أجل تنظيم السلم والتضامن وحماية الطارئ والغريب"²⁴⁷، وهذا التأمين سوف يتوزع بالطبع على كثير من المقتربات التي تنفرع إلى التدبير المحلي المخزني وآليات النفوذ القبلي والديني المتمثل في الشرفاء والزوايا، لكن سوف تعرف الرظاطة نوعا من التحوير منذ أواسط القرن العشرين، لتنتقل من معنى حماية المسافرين في الطرق المخوفة إلى معنى الرشوة.

فالرظاطة تعني "حماية المسافر أو ما يؤدي مقابل تلك الحماية، وقد تعني رسم المرور الذي يحصله الخواص أو ممثلو السلطان، وسواء كانت الحماية بالخفر أو بإقامة "النزاي" فإن التحصيل يتطور إلى ابتزاز، مثلما تدل الرظاطة في بعض الأحيان على ثمن النجاة، أي ما يبتزّه قاطع الطريق من المسافر خلال هجومه على مسافر، أو قافلة، أو حي داخل المدينة. فالرظاطة إذن، حسب سياق الاستعمال، تدل على ثمن الحماية أو الإتاوة أو الجباية أو المكس أو الرشوة أو استغلال النفوذ"²⁴⁸.

إن اختلال منطق أمن الطرق وصياغة بعض أشكال تأمين السفر وتعارض الأدوار من جانب القوى القبيلة والسلطة المخزنية يرجعه السبيتي إلى ثلاثة عناصر على الأقل وهي: حركية السلطة المخزنية من خلال الحركة وتعدد العواصم، ثم حركية المجموعات القبيلة لأسباب تعود إلى إكراهات المناخ أو جاذبية المرعى أو القرارات الأمنية للحكام، هذا فضلا عن عنصر حركية التحالفات بين المجموعات القبيلة أو بين المجموعات القبيلة والمخزن²⁴⁹. وهو ما يصكاديلوح بشكل أو بآخر في المجال الرحاني الذي ظل متأرجحا بين اختلال وتوازن أعلته شروط سياسية وجغرافية وثقافية متعددة.

وإذا كانت الرظاطة تشير إلى نوع من التعاقد الرمزي بين القبيلة والمخزن وباقي القبائل، فإنها تظل مسنودة بثقل المقدس، ففي مستوى التدبير المخزني أو القبلي أو الزاوياتي، يكون هناك اشتغال دائم على حماية عابر السبيل أو الغريب وفقا لما تؤسسه الثقافة الدينية من ضرورات "إكرام الضيف وحمايته" و"إماطة الأذى عن الطريق".

د- الحَاوَة: حيوية المجال الرحاني وارتفاع عوامل التهديد المحيطة به ستفرض على الرحامنة الدخول في تحالف الحَاوَة مع قبائل السراغنة وزمران واحمر وعبدّة ودكالة، أما قبائل الكيش من

²⁴⁷ عبد الأحد السبيتي، بين الرظاط وقاطع الطريق، مرجع سابق ص. 313.

²⁴⁸ عبد الأحد السبيتي، نفس المرجع ص. 314.

²⁴⁹ عبد الأحد السبيتي، نفس المرجع ص. 313.

تختلف عن نظام السخرة الذي يفيد عملاً سرياً وغير مؤدى عنه، والمثير جداً أنها ما زالت حاضرة وفقاً لهذا الفهم، وبصيغ متعددة، وإلى حد الآن، في كثير من مناطق الرحامنة.

ي- المشارط: تعدد تسميات القائم بهذه المهمة في المجال الرحماني، فهو "الفقيه" و"العابد" و"المشارط"، و"الطالب" و"الفقيه" و"فقيه الشرط"، وكلها مسميات لمعنى واحد يحيل على الشخص المكلف بتدبير المجال الديني داخل دوار معين، بناء على تعاقد بينه وبين "الجماعة" يضمن حقوق وواجبات كل طرف.

الرحامنة يضعون حداً فاصلاً بين "الشريف" أو "الصالح" وهذا "المشارط"، فالأول يتوفر على رأس مال رمزي مهم يرتبط بالشرف والصلاح، فيما الثاني يتوفر على رأس مال متواضع يقتضي التفاوض معه في مستوى التعاقد الذي يربطهم به. فالشريف لا يناقش ويتم العمل بنصائحه وتعليماته ويجري قبول تحكيمه دوماً، فيما المشارط لا يسمح له أحياناً التدخل في شؤون "الجماعة"، فهو يعمل لديها، ولا حق له في تجاوز مقتضيات التراتب الاجتماعي، وإن كان يتوفر على شرعية دينية تؤهله لتدبير المقدس.

يكتسب المشارط تسميته أساساً من الشرط، حيث تربطه شروط عمل قابلة للتفاوض، مع "الجماعة"، والذي يكون في الغالب من خارج القبيلة، فهو من جهة يتخص بإقامة الصلاة وتعليم الأطفال أصول القراءة والكتابة وحفظ القرآن والسهر على ممتلكات المسجد، إلا أنه يقوم بالإضافة إلى ذلك، وهذا غير خاضع لأساسيات التعاقد الأولى، بكتابة "السيوب" و"الحروز" ولم لا "صرع الجن" ومداواة بعض الأمراض.

أما من ناحية "الجماعة" فإنها تتكلف بتوفير المأكل والمرقد للفقيه، كما تمكنه من عائد²⁶¹ سنوي ممثل في محصول الأرض المخصصة للمسجد، تضاف إليها الهبات غير التعاقدية والتي ترتبط بالعادة والزيرة والرفود و"واجبات" كتابة "السيوب" و"تخراج السلكة". فالفقيه مسؤول من الجماعة، ويتوجب في كل حين الاهتمام به والسؤال عنه، خصوصاً إذا أثبت كفاءته في تحفيظ الصبيان والإفتاء والإبراء من الأمراض.

ثانياً: الحضور الزاوياني:

إن مسألة المجال الرحماني في حركيته السياسية يفترض فتح نقاش آخر حول الحضور الزاوياني، وأدواره في ضبط أو تسريع هذه الحركية، خصوصاً عندما نعود إلى المصادر التاريخية التي أفردت مساحات شاسعة من اشتغالها للحديث عن الرحامنة وعلاقتهم بزاوية الشراذي وزاوية

²⁶¹ هناك أيضاً عائد أسبوعي يتخذ تسميته من يوم السوق، حيث يمسى في أغلب مناطق الرحامنة بـ "ثلاثية" أو "لاربعية"، نسبةً، على التوالي، إلى سوقي الثلاثاء بين جرير والأربعاء بصخور الرحامنة، ويعني هذا العائد مساهمات نقدية وعينية تقدمها الأسر، عن طريق الأبناء، إلى الفقيه، من أجل مساعدته هو الآخر على التسوق.

الأودية وولاد دليم وحربيل... فالتحالف معها كان يخضع في الغالب لمتغيرات سياسية مرتبطة بانتقال الحكم وعسر الاستخلاف. فيما التحالف مع القبائل الأخرى، وإن كان سياسيا في بعض الأحيان، فإنه يظل اجتماعيا واقتصاديا في الغالب، ارتباطا باستراتيجيات الرعي والانتجاع.

لكن الطاطا أو "الحاوة" بالتعبير الرحماني لا تحتل دوما الاتجاه نحو المكون الخارجي، فهذا النوع من التحالف يتم أيضا بين نفس مكونات القبيلة الواحدة بل وبين دواويرها الصغرى، وهو ما يؤكد مبعوث مسن²⁵⁰ وهو يحكي عن الحاوة بين دوار الحنيشات ودوار الحجر البيضا المنتمين معا للبريكين. كما أن أشكال التحالف لا تهتم، في التزاماتها بمجموع القبيلة، فقد تهتم فخذات محدودة منها، تماما كما هو الأمر للحلف الذي كان يربط القائد الكندافي ببعض فخذات الرحامنة، حسب ما أورده فردريك وإسجرير²⁵¹.

و الطاطا حسب رحمة بورقية هي "إرساء علاقات تحالف بين قبيلتين أو أكثر يدعمها طابع شبه ديني ومقدس"²⁵² وهي تتم على أساس تبادل منفعي معلن وغير معلن، يروم اقتسام احتمالات الاستفادة من المجال، وفي الغالب فالطاطا يتفاوض بشأن "بنودها" و"شروطها" قبلًا، ليتم الإعلان عنها في حفل كبير يستدعى إليه الأعيان والعوام، من كلتا القبيلتين أو الفخذتين أو الدواوين، وبعد ذبح الذبائح وشرب الحليب، يتم تكوين²⁵³ علاقات قرابية وهمية، لكنها ملزمة ومؤثرة، بين الأفراد من كلا الجانبين، والذين يصيرون حاملين لصفة جديدة وهي "أوطاطا" أو "الحاوة"، التي تفترض التزاما باحترام مقتضيات هذا التحالف، وإلا فإن الغضب الإلهي سيحل بمن يخل بها. "فالقراية تصنع هنا صنعا"²⁵⁴، وتغدو ملزمة لمن ينضوي تحت لوائها، فكل "فرد من أفراد إحدى فرق القبائل ملزم

²⁵⁰ يتعلق الأمر بالحاج العلالي الرحماني (74 سنة)، دوار الحنيشات، مقابلة بتاريخ: 16 غشت 2009.

²⁵¹ فردريك وإسجرير، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق، ص. 41.

²⁵² رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص. 96.

²⁵³ تتعدد طقوس تكوين هذه العلاقات القرابية، التي يجري تصنيفها في إطار الحاوة، ويقيد مبعوثونا المسنون بأن هناك طريقتين على الأقل، تحفظ بهما الذاكرة الرحمانية، الأولى تتم عن طريق بعثة نعال ممثلي كلا الفخذتين، وإعادة توزيعهما من جديد، بحيث يؤخذ اعطائهما نعل من الفخدة الأولى ونعل من الفخدة الثانية، وعليه فصاحبي النعلين بصيران بقوة هذا الاختيار أخوين يجري عليهما وعلى ذويهما "قانون" الطاطا. أما الطريقة الثانية والتي يؤكد المستجوبون المسنون أنها كانت الأكثر استعمالا، فتتم عن طريق الإرضاع، إذ تجتمع مثلا فخدة ألف وفخدة باء خلال موسم أو في حضرة ضريح معين، ويتم توزيع الأطفال الرضع لكلا الفخذتين على مكانين منعزلين، فتذهب نساء الفخدة ألف إلى إرضاع أطفال الفخدة باء، والعكس صحيح، وعليه، فيسبب هذا الإرضاع المشترك ينشأ توصيف جديد وهو "الرضيعة" و"خوت في الرضاعة"، الشيء الذي يؤسس لحقوق ويحدد واجبات والتزامات، تتأطر بالجساية والانتماء وتحريم العنف والزواج في حالة الأخ وأخته في الرضاعة، وهو ما يجعل الفخذتين، تجدان نفسيهما في إطار حلف تضامني معضد بأصرة "الحاوة".

²⁵⁴ أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان، مرجع سابق، ص. 383.

بواجبات التحالف تجاه كل أفراد الفرق الأخرى²⁵⁵، واختيار كبش الفداء وشرب الحليب كطقس مؤسس للطاطا، لا يخضع للمصدفة، بل هو ناتج عن دلائلها الرمزية والدينية.

إن الدخول في الطاطا يعني فيما يعنيه إكرام "الأخر" في حال تفضله بزيارته، وعدم مسه بأي سوء، فالطاطا تسمى أيضا بالخواوة، مما يجبر الأفراد الذين أصبحوا أخوة، على الالتزام بالالتزامات نفسها التي تقتضيها الروابط العائلية الحقيقية، داخل العائلة نفسها من حماية الأخ والجدوة إليه وقت الشدة²⁵⁶ إنها علاقة قرابة وهمية ومصطنعة لكنها ملزمة ومؤثرة في صياغة المآل القبلي.

يطلق الرحمانى على من يربطه معه "إلزام" الطاطا، "خيا" أو الخاوة، فيما أبناؤه يعتبرونه خالهم، في تأثير مباشر على تحريم أية علاقة بين "الغريب/ الخاوة" والزوجة، فمناداة الأطفال عليه بالخال، يضعه رمزيا في موقع الأخ الذي تحرم عليه واقعة أخته جنسيا.

و بسبب هذه الطاطا فقد تمكنت القبيلة من تأمين وتجهيز وجودها في المجال الحوزي، كما تمكنت من مقاومة الظروف المناخية الصعبة التي تفرض عليها البحث المستمر عن الكلأ والماء، فهذا التقنين الاجتماعي للعلاقات الداخلية والخارجية المرتكز بدوره على المقدس يحقق الاستمرار ولو في ظل شروط مهددة بالانحسار.

هـ- التوزيع: تعد التوزيع من أشكال التضامن السوسيواقتصادي التي أنتجها المجتمع المغربي للحفاظ على توازناته وتقوية آليات تماسكه واستمراره، تماما كما هو الأمر بالنسبة للتوزيع²⁵⁷، وإن كانت التوزيع في المجال الرحمانى قد حادت عن متنها الأصلي، وذلك بتحويلها إلى "توزيع إجبارية" أو "سخرة"، خصوصا مع القائد العيادي، فإنها بالرغم من ذلك تظل من أبرز أشكال التضامن والتحالف المحلي التي تكشف تاريخا من التفاعلات الاجتماعية بين الإنسان والمجال.

²⁵⁵ Capitaine Coursimaut, La "Tiatta", In. Les Archives Berbères, Vol.2, 1917, p.261.

²⁵⁶ رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص.96.

²⁵⁷ شكل تضامني انطلق في البدء لتلافي الخسارة الفردية وجعلها جماعية حتى يخف الضرر، كأن يكون أحد أفراد السوار مثلا مضطرا إلى ذبح بقرة تعرضت لحادث ما، فتشارك معه الجماعة في هذه الخسارة، يتمكن به مما يقلل من حجمها، على أساس أن يتم توزيع لحم البقرة بعد ذبحها على جميع المساهمين في ذبح الخسارة، إلا أن هذا المضمون المرتبط بالخسارة، لم يكن دائما محددا لفكرة التوزيع، فقد ارتبطت بالرغبة في الحصول على لحم أكثر يضمن أقل، حيث يهب مجموعة من الأفراد إلى شراء بهيمة وذبحها وتوزيعها، وهي عادة ما زال معمولاً بها لحد الآن في الرحامنة، كما تصادفها، في حدود، ببعض المدن الكبرى.

و في هذا الصدد يقول إدmond دوتي بأن "التوزيع عادة عامة في كل شمال إفريقيا فهي تماثل "تيمشرت" عند لغبيل، فهي تأخذ طابع مساندة اجتماعية حقيقية. تساهم في تقوية الرابطة الاجتماعية".

أنظر: إدmond دوتي، مراکش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، مرجع سابق، ص.242.

تعتي التوزيع نظاماً من العمل التضامني الجماعي خلال موسمي الحرث والحصاد، فبالنظر إلى محدودية الإمكانيات المادية والبشرية، لا تجد القبيلة بداً من الدخول في "فعل جماعي" لمجابهة إكراهات الحرث أو الحصاد الذي يستلزم وقتاً محدداً قد لا يقبل التأجيل، لهذا يتم توظيف أعداد "الزوجة" التي تمتلكها القبيلة لحرث مختلف الأراضي، وبشكل جماعي. كما أن التوزيع في الرحامنة لا تقتصر على زوجة الحرث أو سواعد الحصاد، بل تهم حتى حبوب البذر، ففي موسم الزرع يمنع الأعيان البذور لمن لا تتوفر له، لكن هذا المنح يظل مشروطاً برد الدين، "فكل خيمة ترسل أحد أعضائها، للعمل بصورة تطوعية في حقول صاحب الفضل (المانح)، أثناء فترة الحرث أو الحصاد، ولا يتقاضى العمال أي أجر مقابل ذلك، ويكتفي المستفيد من هذه العملية بإطعامهم"²⁵⁸.

تتخذ التوزيع ملمحاً آخر ارتباطاً بالمشروط أي فقيه الشرط الذي يسهر على تدبير الشؤون الدينية لـ "جماعة"، ففي أغلب الدواوير يقوم أفراد القبيلة بحرث أرض مخصصة لـ "المشروط" أو "الفقير" أو "المقدم" أو "العابد"، وهي كلها تسميات للقيمين على الفضاءات الدينية، وذلك بالاعتماد على التوزيع، كعمل جماعي تضامني.

لكن التوزيع ستعرف نوعاً من الانزياح عن بعدها التضامني التطوعي، لتستحيل ممارسة قسرية إجبارية، أي أنها ستتحول إلى "سخرة" مع بناء الزعامات المحلية وتراجع المقاعيل الرمزية لـ "جماعة". ففي شكاية²⁵⁹ كتبت في الأربعينيات من القرن الماضي يتضح أن التوزيع تحولت إلى نظام للسخرة مع القائد العيادي الذي اتسعت ملكياته العقارية، إلى الدرجة التي لم يعد بإمكانه تدبير اليد العاملة لحرثها وحصادها، فما كان منه إلا أن فرض على صغار الرحامنة، توزيعاً قسرياً، نقرأ بعض تفاصيلها في هذه الشكاية:

"كان الناس لدى تهاطل الأمطار الأخيرة في شدة الفرح ينوون قيامهم بالفلاحة في الوقت المناسب لها، إلا أن القارعة التي أصابتهم إذاك من لدن سلعة القائد العيادي، عاقته عن عملهم الفلاحي في وقته، وهي أن القائد أمر أعوانه بأن يذهبوا لكل ناحية من نواحي الرحامنة ويرغموا الفلاح على إتيانه بأزواجه أو وزجه المعدة للحرث ليعملوا التوزيع، وهكذا ظل عمله إلى أن قضى مآربه، وحين رجع الفلاح المسكين إلى أرضه وجد ري الأرض قد غصص"²⁶⁰. إن التوزيع بهذا الشكل لا

²⁵⁸ روبر أسمينيون، أعراف قبائل زايا، ترجمة: محمد أوزاغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007، ص. 41.

²⁵⁹ عمر الإيوري، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجاً، مرجع سابق، ص. 192.

²⁶⁰ عمر الإيوري، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي، نفس المرجع، ص. 192.

تصلوحت، أو عندما نلاحظ ميدانيا ذلك الحضور المتواصل لعدد من الزوايا كالناصرية والبيجانية والدراقوة والكتانية التي تتوفر على أتباع ومريدين في كثير من مناطق الرحامنة. لكن هل الزاوية تنتج من داخل القبيلة أو من خارجها؟ وما ضرورتها؟ وما هي آليات اشتغالها؟

إن القبيلة في حاجة دائما إلى الزاوية، ليس من أجل تدبير حياتها الدينية، بل، وهذا هو الأهم، من أجل إثراء علاقاتها وتقوية حظوظ مواجهتها للسلطة المخزنية، فالزاوية تتوفر، في غالب الأحيان على رؤساء رمزي تعددي يتكون من الشرف والعلم والصلاح والكرامة، وتتوفر أيضا على رؤساء مادي يتمظهر في الملكية العقارية والأموال والإعفاءات من الكلف المخزنية، بمعنى أنها تتكاد تتساهى مع المخزن في امتلاكه وسلطانه، فالأسس الرمزية للزاوية تبدو منافسة لتلك التي يستند عليها المخزن.

والقبيلة عندما تعلن الارتباط بزاوية قوية فإنها تبحث لنفسها عن سند روحي وسياسي، يمنع عنها "بأس" المخزن، ولهذا لم يكن غريبا أن يلجأ مترجم انتفاضة سنة 1895 القائد مبارك بن الطاهر إلى ضريح سيدي علي بن إبراهيم بتادلة²⁶²، بعد استشعار هزيمته، وأن يستقدم معه شرفاء الزاوية للشفاة له لدى باحماد²⁶³. وإن كان هذا "اللجوء السياسي/الزواياي" لم ينفعه أمام باحماد

²⁶² وإن كان إدموند دوفي يقول بأن الرجل "احتسب بزاوية سيدي الزوين ببلاد احمر، فطلب المخزن من الشرفاء قسليه، وكانوا يظنون أن الغطاء الذي يوجد فوق الضريح لا يمكن منه بسوء، فتصكك به الطاهر بن سليمان، فارتأوا إخراجه بجر "الزريبة" من تحته إلى خارج الضريح، وهنا أمسك به المخازنية وذهبوا به إلى مراکش". إلا أن المؤكد هو كون الرجل احتسب بضريح سيدي علي بن إبراهيم بتادلة وليس بسيدي الزوين.

²⁶³ أنظر: إدموند دوفي، مراکش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (1901-1902)، مرجع سابق، ص. 301. في هذا الصدد يقول لويس أرنو: "و ظهر قائد التمرد الطاهر بن سليمان، ملتفتا بغطاء ضريح سيدي علي بن إبراهيم رفقة شرفاء ومقدي الزاوية الذين جاؤوا به بأمر من السلطان، وقالوا لباحماد: أسيدي، دون إطالة كلام، إنه مذبذوب بالفعل، لكنه كان مدفوعا من أهل السوء من قبيلته، وقد استجار بحمانا وبجيدنا الذي تحترمه أنت أيضا، فلا يحق لك الآن أن تنتقم منه إنه في حمانا.

فأجاب الوزير: بالتأكيد، فأنا مثلكم أحترم سيدي علي بن إبراهيم، لكن ماذا تعتقدون أنه كان سيفعل سيدي علي بن إبراهيم، لو واجه في حياته متمردا مثل الطاهر؟ إنه كان سيقوده حتما إلى المخزن لينال عقابه، ولهذا أقول لكم لا تسامح مع هذا.

فقال الشرفاء: إنك فعلا على صواب ولو أننا لا نعرف ما الذي كان سيفعله سيدي علي بن إبراهيم في حياته، ولكن الأمر يتعلق بحرمته وحماء الشريف المقدس، فانظر في هذا الشقي وغطاء ضريح ولينا فوق ظهره، إن ديتك يمنعك أن تمسه بسوء، لقد جئنا إليك واستقدمنا هذا الرجل من منفاه لأننا كنا متيقنين من عفوك.

فقال باحماد: هل تمرد الطاهر بن سليمان ضد سيدنا أم لا أجيبي؟

- نعم لقد تمرد الطاهر

- أو لم يرد في حديث سيدنا محمد (صلم): فالذهب لا يأكل إلا الشاردة من الشياء، فالطاهر إذن نعمة ضالة لم يعد من حقها الالتحاق بقطيع الأوفياء فأزيلوا عنه هذا الغطاء الشريف الذي يلطحه بعرقه والذي لن يحببه من أي شيء.

الذي كان منشغلا بإظهار كفاءاته للمخزن العزيمي، لكن لو كان هذا اللجوء قد اختار وجهة زاوية أقوى أو اعتمد اللقاء المباشر مع السلطان، فحتما سيكون له مآل آخر. فكل قبيلة أو مجموعة من القبائل تضع زاويتها فوق كل سلطة²⁶⁴، لكن يبدو أن القائد بن الطاهر لم يختر جيدا الزاوية التي تفوق أو توازي سلطة المخزن في مجالات المقدس الرحامي.

يتوجب التمييز بين نوعين من الزوايا بالمغرب، نوع يهتم زوايا محلية الطابع، ذات نفوذ محدود من الناحية الجغرافية ونوع ثان يكون له التأثير خارج موطن مؤسسها الأصلي، مما يجعل نفوذها الروحي و السياسي ينسحب على المستوى الوطني، وهو ما حدث مع الزوايا الكبرى من قبيل الشراوية والخصالية والدراوية والوزانية والكتانية والشرقاوية²⁶⁵.

وإذا كانت الزوايا قد انطلقت في البدء كرباطات دينية تعيل وتكرم من يقصدها، فإنها ستتطور بعدا لأداء مهام الوساطة والتحكيم، بسبب ما تتوفر عليه من أسس رمزية تتمثل في الشرف والعلم والصلاح والكرامة والبركة، ومن مؤديات هذا التطور التوسط أساسا بين القبائل والسلطة المخزنية²⁶⁶.

يعتبر أحمد التوفيق أنه "في المناطق التي كان فيها تمثيل ضعيف للسلطة المخزنية، أو غياب لهذه السلطة، فإن الزوايا كانت تقوم فيها بالأدوار التحكيمية في النزاعات والخلافات بين القبائل"²⁶⁷، وهو ما يجعل المخزن يسعى إلى "مراقبتها واحتوائها حتى لا تتحول إلى خطر يهدده، وذلك بالاعتراف رسميا بالنفوذ الذي تحظى به داخل المجتمع المحلي ويتكليفها بالقيام بوظائف رسمية لصالح المخزن"²⁶⁸.

و هذا ما تم بالفعل، حيث جلد هذا الطاهر بعنف حتى كادت روحه تزهق، وجعل في اليوم الموالي في قفص من خشب وجعلت قضبانه من بنادق الرحامنة، ثم حمل فوق ظهر جمل وطيف به في جميع أنحاء المعسكر، وقذف بالقاذورات كالكلب، هذا إذن جزاءه²⁶⁹.

أنظر: لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية، مرجع سابق، ص. 92-93.

²⁶⁴ رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص. 41.

²⁶⁵ Georges Drague, Esquisse histoire religieuse au Maroc: Confréries et zaouâs Editions Pyronnet, Paris, p. 92

نشير إلى أن اللقب الحقيقي لجورج هو سبيلمان وليس دراغ، ولقد عملت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وفي إطار إعادة نشرها لتفانيس الحزانة، إلى نشر كتابه باسم جورج سبيلمان. أنظر: Georges Spillman, Esquisse histoire religieuse au Maroc: Confréries et zaouâs. Presentation: Jilali El Adnani, Editions FLSH. Rabat. Serie: Les Tresors de la bibliotheque. n. 7. 2011.

²⁶⁶ عبد الرحيم العطري، صناعة النخبة بالمغرب، منشورات وجهة نظر، الرباط، الطبعة الثانية، 2007، ص. 34.

²⁶⁷ أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص. 368.

²⁶⁸ عبد الجليل حليم، الزاوية والصوف: عودة الروحي أم التزوع إلى النفوذ السياسي، في كتاب جماعي: الزوايا في المغرب، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009، ص. 12.

في هذا المستوى من "تطبيع" العلاقات بين الزوايا والمخزن ستشتغل آلية ظواهر التوقيف والاحترام وإقطاعات الأراضي والعزائب والإعفاءات من أداء الكلف المخزنية، وهو ما يجعل "الولي الصالح" يتحول من زاهد متصوف ورجل دين وعلم إلى مستثمر في الميدانين الفلاحي والتجاري، وقد تقوده حيازته على رأس مال مادي إلى جانب الرأس مال الرمزي إلى الطمع في السلطة السياسية²⁶⁹، وهو ما تكرر في اشتغال عدد من الزوايا الكبرى بالمغرب، والتي لم تقتف فقط بممارسة وظائفها الدينية والتحكيمية، بل تطلعت إلى لعب أدوار سياسية في علاقتها بالمخزن والقبائل²⁷⁰. وهو ما حدث أيضا في تقاطع مع حركية المجال الرحامي من خلال نموذجي زاوية الشراي وزاوية تامصلوحت.

أولا: زاوية الشراي:

لم يكن الموقف المخزني من الزوايا يستند دوما إلى مقترب الإدماج والتطبيع، ففي اللحظة التي تتعارض فيها المصالح يكون الرفض والتهيش عنوانا لعلاقة الزاوية والمخزن، بل إن هذا الرفض يكون مسنودا بالمقدس مرة أخرى، عن طريق آلية الإفتاء التي تعتبر المد الزاوياتي بدعة وانحرافا عن تعاليم الإسلام.

وبما أن الحوز كان مجالا تتنازعه القبائل والسلطة المخزنية، فمن الطبيعي أن يحضر طرف ثالث في تدبير وإنتاج هذه العلاقات التنازعية، وهو بالضبط المكون الزاوياتي، فالحوز لم يكن فقط مجال قبائل وبيعات و"بيعات مضادة"، ولكنه كان أيضا مجالا لاختيار سلطة المقدس، في مستوى الزوايا والأوليائية، فلم تحل كتابات الإخباريين من تسجيل الحضور الذي تجسده هذه الزاوية أو تلك، أو هذا الضريح أو غيره.

و عليه فقد كانت الرحامنة كقبيلة حوزية منخرطة بدورها في سياق هذا الثقل والتأثير الزاوياتي، بل إن كثيرا من الأحداث التي عرفتها القبيلة في حياتها السياسية وعلاقتها مع القبائل

²⁶⁹ عبد الحليل حليم، الزاوية والتصوف: عودة الروحي أم النزوع إلى النفوذ السياسي، مرجع سابق، ص. 13.
²⁷⁰ في هذا الصدد تشير إلى أن المخزن العزيري كلف الزاوية الشراوية للتدخل من أجل إنهاء انتفاضة الرحامنة، حيث يقول ديل إيسكلمان بأن "السلطان أناب المقدم سيد الحاج العربي للتفاوض مع قبيلة الرحامنة التي انتفضت إثر وفاة السلطان مولاي الحسن، وحاصرت مدينة مراکش.. وقد صدر ظهير عزيري مؤرخ بـ 4 صفر 1313 الموافق 27 يوليوز 1895 يهنئ فيه السلطان مقدم الزاوية على ما قام به من تحقيق لشروط الأمان التي عادت بموجبها القبيلة المذكورة للخضوع لسلطة المخزن"، لكن المؤكد أن هذه الوساطة الزاويائية لم تكن هي التي أنهت انتفاضة الرحامنة، كما أبرزنا قبلا، بل إن السبب الرئيسي لإنهاء الانتفاضة هو استمالة المخزن للقبائل المجاورة وتفريق الأخرى المتضامنة مع الرحامنة، فضلا عن اختلال موازين القوى، فالرحامنة كانوا يقاتلون بالبنادق التقليدية، فيما المخزن كان يتوفر على المدافع وبمخصوص ما أثاره ديل إيسكلمان أنظر:

ديل إيسكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ترجمة: محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، ص. 150.

الأخرى والمخزن تحديداً، كانت تستند إلى أساس زاوياتي أو ضرائحي. وارتباطاً بهذا المسار، فقد كانت الرحامنة متفاعلة سلبيًا وإيجابيًا مع الزاوية الشراعية، التي بسطت نفوذها الروحي والسياسي على الحوز. وبما أن المولى سليمان من السلاطين الذين اتخذوا "موقفاً متشدداً" من الإسلام الزاوياتي، فإنه لم يكن مستبعداً أن يدخل في "حرب" مع الزاوية الشراعية، بسبب انتهاك "حرمة المقدس"، ذلك أن الزاوية الشراعية التي بدأت تتجذر وتقوي نفوذها أكثر فأكثر مع شيخها المهدي بن محمد حفيد شيوخها المؤسس أبو العباس الشراعي²⁷¹، تعرضت لما اعتبرته "انتهاكاً" لحرمتها، ولما كان سبباً رئيساً في إعلان الحرب عليها.

لكن وقبل الحديث عن هذا السبب الرئيس المقترح على عداوة القائد قاسم الشراعي وشيخ الزاوية المهدي، يبدو ضرورياً أن نبحث في الشرط المؤسس لهذا الحرب، والذي يمكن توصيفه بـ "قضية الأنفاض والمهاريس"²⁷²، ذلك أن الأمير مولاي هشام الذي كان يتنازع إخوته: مولاي سليمان ومولاي الحسين والراحل مولاي اليزيد في السلطة، ربما اضطر إلى بيع بعض ممتلكاته وتجهيزاته إلى الزاوية الشراعية لتحويل حربه ضد إخوته وحشد التأييد لمشروعه، فقد كانت تربطه علاقة قوية بهذه الزاوية، ولهذا فقد استحرم بها وذلك بسبب النفوذ الذي باتت تستأثر به في المجال الحوزي.

إلا أن السلطان مولاي سليمان الذي بدأت تحسم موازين القوة لصالحه، سيأمر مولاي هشام أن يخرج من الزاوية ويذهب لتاقيلا لت، فقد "حلف السلطان أن لا ينظر في وجه أخيه هشام وخيره بين أن يمشي لتاقيلا أو يمشي لمكناس ثم ويخ السلطان السيد محمد الشراعي وأمره برد الأنفاض التي عنده بالزاوية، والتي تركها مولاي هشام فيها، وأراد السلطان قبض الشراعي حتى يأتي بالأنفاض، فقال الشراعي للسلطان "إن مولاي هشام قد حبسها وأنت إن أردتها فأقدم عليها وخذها من هناك"²⁷³.

²⁷¹ مؤسس الزاوية هو "الولي الصالح العارف الناصح، ذو البرهان الواضح، العز الكامل الراسخ، بحر الأنوار، ومعدن الأسرار، وكهف الوفود والزوار، الشائع ذكره في الحواضر والبوادي، سيدي أبو العباس الشراعي، له زاوية على نصف مرحلة من مراكش، عليها مزارع، وله أتباع يتبعون له طريفته بتلك السواحي، وكذلك بفاس الإدريسية. وقد أخذ عن سادة من أشهرهم الإمام سيدي محمد بن ناصر الدرعي نفعنا الله به".
أنظر: محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والشافعي، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، الجزء الرابع، مكتبة الطالبي، الرباط. الطبعة الأولى: 1986. ص. 59.

²⁷² المهاريس هي المدافع، وقد اتخذت هذا الاسم لأنها شبيهة، من حيث الشكل والوظيفة، بالمهراس وهو الرعاء المجوف من الحديد أو النحاس الذي يذق فيه الطعام والتوابل، فهي أيضاً محفوفة ومصنوعة من الحديد والنحاس، أما الأنفاض فهي ما وقع من المتاع والشيء، وتدل الأنفاض والمهاريس في هذا السياق على مجموع الممتلكات التي باعها أو تنازل عنها الأمير مولاي هشام للزاوية الشراعية لقاء دعمها له في حربه ضد إخوته.

²⁷³ محمد الضعيف الرياطي، تاريخ الضعيف الرياطي، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 543.

لكن الضعيف الرباطي، الذي عرفناه منشغلا بالتفاصيل في قضية "عبور وادي أم الربيع" لا يخبرنا بشأن مآل أوامر السلطان برد الأنفاض، والحرب التي نشبت بين مولاي سليمان والزاوية الشرادية، ولهذا فإننا عندما نستتجد بالناصري لفهم ما حدث فإنه سيعتبر أن ما حدث هو ناجم عن عداوة القائد قاسم الشرادي وشيخ الزاوية المهدي.

يقول الناصري أن أحد المطولين لدى القائد قاسم الشرادي، التجأ إلى الزاوية الشرادية طلبا للحماية، فما كان من القائد إلا أن ألقى عليه القبض داخل الزاوية، وهو ما أثار حفيظة شيخها المهدي بن محمد، لتنتقل عداوة معلنة بين الرجلين، ستتحول بعدا إلى عداوة بين الزاوية والمخزن.

و يضيف قائلا بأن "السلطان ولى عليهم رجلا منهم إسمه قاسم الشرادي، فحدث بينه وبين المهدي ما يحدث بين المرابطين وأرباب الولاية، وكان ربما التجأ جان إلى زاوية المهدي فيقبض عليه القائد ويخرجه منها فاستحكمت العداوة بين القائد والمهدي"²⁷⁴.

سيستغل القائد قاسم الشرادي مناسبة وجود السلطان مولاي سليمان بمراكش لخيرته بأن الزاوية الشرادية ما عاد بالإمكان ضبطها، الشيء الذي يوجب "قص أجنحتها"، وهكذا فقد "شرح له حال المهدي وما هو عليه من التهور والسو بنفسه إلى المحل الذي لا يبلغه وأنه لا يستقيم أمر المخزن بتلك القبيلة معه، ولم يزل به حتى أعطاه السلطان مائتين من الخيل، أغار بها على الزاوية، فانتهبوها، على حين غفلة من أهلها، وجلهم غائب في أعماله، فتسامعوا بأن الخيل قد عاثت في ديارهم، وجاؤوا على العب والنل، وأوقعوا بخيل المخزن واستلبوهم من خيلهم وسلاحهم"²⁷⁵.

سمح السلطان لقائده بالهجوم على الزاوية، لم يقد إلى تحقيق النصر على الزاوية الشرادية، فقد لقي الجيش المخزني هزيمة قاسية، إذ عمد أتباع المهدي إلى سلب الفرقة المخزنية خيلها وسلاحها، وهو ما لم يستسغه السلطان الذي عاد إليه قائده وجنوده راجلين.

و بالرغم من طلب الشرادة لشفاة صلحاء مراكش، فإن عامل المدينة عمر بن أبي ستة وعامل الرحامنة القائد قاسم الرحامي، اللذين يكتنان غير قليل من الحقد للشرادة، كانا قد تمكننا من تأليب السلطان عليهم، وهو ما جعله يبعث إلى قبائل الحوز والغرب لإعلان الحرب على الشرادة.

²⁷⁴ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق، ص. 196.

²⁷⁵ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق، ص. 196.

وهكذا نشبت الحرب بين الجيش المخزني وقبيلة الشراردة، والتي انتهت أولى جولاتها بقتل القائد الرحامي وانهزام جيش المخزن، وقد لجأ الشراردة المنتشون بنصرهم آنشد إلى وضع رأس القائد فوق رمح، وهو ما أثار الذعر في قلوب محاربي باقي القبائل، الذين تفرقت بهم السبل، وتراجعوا خوفاً من بأس الشراردة، الشيء الذي جعل السلطان، في صبيحة اليوم الموالي للمعركة، يلقي نفسه لوحده مع جيشه المخزني في مواجهة الشراردة.

فكانت هزيمة السلطان و"أسره" وهو ما لم يعتبره الناصري أسراً حيث اعتبر أنه بعد محاصرة السلطان قريباً من مراكش، تقدم كبار الشراردة إليه طالبين منه أن يتحيز إليهم "لثلا تقصيبه، العامة، فاحجاز إليهم وكان راكباً على بغلته، فالتفوا عليه وساروا به إلى زاويتهم، وأنزلوه بالدار المعروفة عندهم بدار الموسم واحترموه وغدوا وراحوا في خدمته... وبقي عندهم ثلاثة أيام وحضرت الجمعية فصلها عندهم وخطبوا به ومن الغد ركبوا معه وصحبوه إلى مراكش إلى أن وصلوا إلى عين أي عكاز فودعوه ورجعوا، ومما قال لهم عند الوداع: "إن الذين أرادوا أن يفتحوا باب الفتنة على الناس، قد سد الله أبوابها برؤوسهم، يعني الرحامنة"²⁷⁶.

إن الهزيمة تغلف بالنصر في هذه الحالة، وهو ما انتهجه أيضاً المشرفي في تأريخه لهذه الواقعة، إذ يقول بأن السلطان "جد السير إلى مراكش ودخلها، ثم خرج منها لغزو أهل زاوية الشراذي فانهزم شر هزيمة، ثم عاد إلى مراكش، فرجع إليه المنهزمون عنه تائبين خاضعين وفي عفوه راغبين، فما وسعه إلا الإعراس عن أفعالهم الذميمة وطاعتهم السقيمة"²⁷⁷.

لعب الرحامنة خلال أزمة الزاوية الشراذية دوراً على قدر عال من الحساسية، فاشتركهم في الحرب على الزاوية كان بعد أن أقنعهم قائدهم قاسم الرحامي، بأن أراضي الحوز التي تقع في ملكية الزاوية ستكون من نصيبهم بعد الانتهاء من أمرها. وهو ما لم يحدث بعد أسر السلطان، من طرف الزاوية الشراذية "التي اعتبرت "سوء الفهم" بينها وبين المخزن من صنع الرحامنة لا غير"²⁷⁸. وهو ما أكد السلطان ذاته بالقول بأن فاتحي باب الفتنة هم الرحامنة الذين كانت رؤوسهم (قطع رأس قائدهم) خير مغلق لهذه الفتنة.

²⁷⁶ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق، ص. 197.

²⁷⁷ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الخلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 57.

²⁷⁸ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit. p. 197.

لكن بالرجوع قليلا إلى الرءاء سوف نجد أن الزاوية الشراعية لم تكن دوما على خط النقيض مع مصالح الرحامنة، بل إنها كانت تدافع عنها، وتعتبر "سندا روحيا" لها في مواجهة السلطة المخزنية، فالرحامنة كانوا من أكبر مريدي هذه الزاوية، خصوصا على عهد شيخها سيدي أبي العباس الشراعي، الذي أقنع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالعدول عن مهاجمة الرحامنة، لما بلغ إلى علمه، هجومهم على مراكزهم وتكشفتهم على النساء في الحمامات، إذ يقول الضعيف الرباطي في هذا الصدد: "وأنت صاحب الوقت وأنتها في قبيلة الرحامنة فإنهم هم ميمونك"²⁷⁹.

لكن "أسر السلطان" الذي انتهى بإنهاء الفتنة، كان إيذانا آخر بتعاظم نفوذ الزاوية، التي يبدو أنها لم تعد تلقي بالا للسلطان مولاي سليمان، إذ عمدت إلى نهب قافلته الملكية القادمة من صاكة الصويرة، وهي القافلة التي كانت محملة بسلع ثمينة، لعلها الحادثة التي أثرت فيها عميقا وعجلت بموته غما، وإن كان الناصري يؤكد أن قبائل ذوي بلال والشياطنة هي التي انتهبت صاكة الصويرة، فإنه لا ينكر كون هذه الواقعة كانت سببا في وفاة السلطان، إذ يقول "وكان فيها من الذخائر النفيسة والأموال الثقيلة شيء كثير، وهذه الواقعة هي التي هدت أركان السلطان المولى سليمان - رحمه الله - فاعتراه مرضه الذي كان سبب وفاته"²⁸⁰.

لكن لما جاء السلطان مولاي عبد الرحمان، فقد وعى جيدا أن ثمة منافسا شديدا "يسيطر" على الحوز وينافسه في شرعيته، خصوصا بعد واقعة "أسر السلطان" والاستيلاء على "صاكة الصويرة"، التي خرجت منها الزاوية الشراعية أكثر انتصارا ونفوذ، "فقد استفاد من تجارب مولاي سليمان مع الزوايا، متبنيا سياسة الاحتواء"²⁸¹، ولهذا فإنه لم يعمد إلى إعلان الحرب على الشراعية مباشرة، بل التجأ إلى "تطبيع" العلاقة معهم، فلما قدموا لبيعته، أصر على التأكيد لهم أن تقليب مواقع الماضي لا يفيد، فقد خاطبهم قائلا: "إن ما فات قد مات، وما نهب في أيام الفتنة فهو هدر، ومن الآن من فعل شيئا يخاف على نفسه"²⁸²، ولهذا فإنهم ما لبثوا أن ردوا ما كانوا قد نهبوه من صاكة الصويرة، لكنه لم يقبلها منهم، بل طالبهم بتجهيز مائتي فارس للمشاركة معه في حركة إلى درعة.

لكن إدماج الزاوية في الجيش المخزني، وتطبيع العلاقة معها، لم يكن ليمنع عنها واقعة الصرد والاستعلاء، فقد كانت حينها متجذرة النفوذ، ولهذا فإن المولى المأمون الذي ولاه مولاي هشام

²⁷⁹ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص. 277.

²⁸⁰ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق، ص. 202.

²⁸¹ Georges Drague, Esquisse histoire religieuse au Maroc: confréries et zaouïas, op.cit.p.92.

²⁸² أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، ص. 24.

على مراكش، لم تعجب قراراته المهدي زعيم الزاوية، فالقياد الذي عينهم المأمون سحاريون من طرف أتباع الزاوية، فقد "عمدوا إلى قوادهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم، فقبضوا عليهم وأودعهم السجن، وانتهبوا دورهم، ووصل المسافرون والتجار إلى باب السلطان مجردين عراة يشكون ما دهمهم من أمر الشرادة"²⁸³.

ولهذا فقد أعلن السلطان مولاي عبد الرحمان الحرب عليهم وخرب زاويتهم، كما عمد إلى تفريقهم وترحيلهم "مسلسلين في الأعناق نحو الرباط وفاس ومكناس وأزغار"²⁸⁴، فلم يكن ممكنا الاستمرار في مسار "التطبيع" مع المهدي الذي "عظم ناموسه، وتمسكن من جهله قومه، وكاد يتجاوزهم إلى غيرهم، حتى صار يعرض أو يصرح بأنه المهدي المنتظر.. فقد ظن المهدي والشرادة أن لا غالب لهم في الله"²⁸⁵.

لقد استمر القتال سبعة أيام، وفي اليوم الخامس تحديدا رى عليهم "مائتين وثمانين بنية، كلها في وسط الزاوية، تتفرقع عند نزولها، فتأتي على ما جاورها من جدار وغيره، حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الأحمر، وكانوا هم أيضا يرمون بالكور والبنب من المدافع والمهاويس التي استولوا عليها في حملة السلطان المولى سليمان"²⁸⁶.

و بالطبع فإن زاوية الشرادي لم تستطع الصمود طويلا أمام هذا القصف، الشيء الذي جعل شيخها المهدي يفكر في الحرب تطبيعا لما رآه في منامه حسب ما أخبر به أتباعه الذين توجهوا إليه بالسؤال "كيف تفر وتتركنا وأين ما كنت تعدنا؟ ليخبرهم قائلا: "أما أنتم فالذي أوريكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان، فلا تستنكفوا منها، وأما أنا فالذي عندي وسعته من آبائي أن الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام، ثم يستولي عليها السلطان الذي يجيء من ناحية البحر وهو هذا"²⁸⁷.

وبذلك فقد كان فرار المهدي إعلانا مباشرا لانتهزام الشرادة وتخريب زاويتهم، فقد "أمر السلطان بجمع الشرادة الذين بقوا بالقصبة، فجمع منهم نحو الألفين، وعائلت الجيوش في بيوتهم وأمتعتهم"²⁸⁸. ولأن السلطان يعلم جيدا ما أحقته الزاوية بمولاي سليمان، فإنه لم يكتف بتحقيق النصر عليها، بل عمد إلى تخريبها وتفتيل الشرادة من الحوز إلى مناطق أخرى، حتى لا تجتمع كلمتهم مرة أخرى.

²⁸³ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، ص. 24.
²⁸⁴ Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit. p.198

²⁸⁵ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، ص. 25.

²⁸⁶ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق، ص. 25.

²⁸⁷ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، نفس المرجع، ص. 25.

²⁸⁸ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، نفس المرجع، ص. 26.

وفي هذا الصدد يقول الناصري: "و اعلم أن الله سبحانه قد فتح علينا الزاوية الشرادية، وأهلك أهلها الظالمين، ولم تبق لهم باقية. ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها وتخريبها، وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل، ورحلت الناس بما وجدت فيها من الأثاث والذخائر والأنعام. ثم إن السلطان فرق مساجين الشرادة، فسجن بعضهم برباط الفتح، وبعضهم بمكناسة، وبعضهم بفاس، ثم مضى بعد نحو السنة، سرحهم، ونقلهم إلى بسط أزغار، وجمع إخوانهم من القبائل فضمامهم إليهم، ولا زالوا موطنين به إلى الآن"²⁸⁹.

لقد كانت الرحامنة حاضرة في مختلف المراحل السياسية التي شهدتها الزاوية الشرادية، وحتى في عملية تنقلهم إلى الغرب، ساهم الرحامنة بمجالهم، لأن التنقل مفاذه "شغور المجال" وإمكان "تملكه" من جديد. وإن كان باسكون يصر على أن ترحيلهم لم يكن على ظهور الجمال، وإنما كانوا "مسلسلين في الأعناق نحو الرباط وفاس ومكناس وأزغار"، فالعادة تقتضي ربط المساجين والمغضوب عليهم في عقال (ومنه جاء مثل الرحامنة عشرة في عقيل، كما رأينا قبلا)، وذلك بهدف الإذلال وتقديم العبرة لمن يعتبر.

ومهما يكن من أمر، فدخل الرحامنة في هذه الحرب، لم يكن بهدف الدفاع عن السلطان، بقدر ما كان انخراطا من أجل الأرض، وهو ما يؤكد بول باسكون قائلا، بأن الأمر لم يكن متعلقا "بأزمة سلالية بقدر ما كان منافسة حول أراضي نفيس، فقد صارت هذه الأراضي للشرادة ومنعت عن الرحامنة"²⁹⁰. فأمام تعاظم نفوذ الزاوية بدأ المجال الرعوي للرحامنة يتقلص، وأخصب الأراضي تنتزع منهم وتمنح للشرادة. وبذلك يمكن القول بأن "المصالح الرعوية هي المحرك الرئيسي لتمدات الرحامنة، وهي المتحركة في مناصرتهم لأي أمير، أو في تحالفهم أو معاداتهم لأية قبيلة"²⁹¹.

ثانيا: زاوية تمصلوحت:

في استدعاء انتفاضة الرحامنة لسنة 1895، يظهر كيف أن الزاوية لم تكن بمعزل عن الحركة السياسية للقبيلة، فعلى طول اشتغال هذه الانتفاضة تظهر ثلاثية "القبيلة، الزاوية المخزن" كعناصر مركزية في تدبير الصراع، منذ بدايته وإلى منتهاه مع لجوء متزعم الانتفاضة إلى ضريح سيدي علي بن إبراهيم بتادلة.

²⁸⁹ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، نفس المرجع، ص. 25.
²⁹⁰ Paul Pascon, Le Haouz de Marakech, Tome 1, op.cit p.198.

²⁹¹ عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرجع سابق، ص. 43.

فقبل اللجوء إلى آلية تفريق القبائل التي انضوت تحت لواء القائد مبارك بن الطاهر بن سليمان، اعتمد المخزن على وساطة زاوية تملوحت التي كانت حينها تمارس نفوذا روحيا على الحوز المراكشي، فقد تمكن الشريف المصلوحي الذي سيصير بعدا من "المحميين" البريطانيين، من الاجتماع بوفد "من أبرز رجال الزوايا ومن بعض أعيان مراكش ومحتسبها، وذلك بتنسيق مع القائد ويذا للتوجه عند الرحامنة والقبائل المؤازرة لها، تمهيدا لعقد الصلح معها"²⁹².

ولأن الزاوية تمتلك رساميل الشرف والبركة والصلاح والعلم، فإن تدخلاتها تلقى في الغالب القبول من القبائل، فالشريف الحائز على الشرف والبركة، لا يمكن رفع اللاءات في وجهه، خصوصا إذا استثمر هذا الشريف آلية العار الذي لا يمكن رده، فالعار "ثقل أو حمل معنوي يرمى به على الفرد أو الجماعة، ولا يمكن التخلص من ذلك الحمل أو الثقل إلا بالاستجابة للطلب المرافق للعار"²⁹³. فعندما يتقدم الشريف إلى القبيلة حاملا معه "لعلام" و"الكساء" الموضوع على قبر الجد المؤسس، فإن ذلك يعني رمي العار، الذي يتطلب الاستجابة، وإلا ستكون عاقبة الرفض كارثية بالنسبة للجميع، فتمت اعتقاد راسخ لدى الرحامنة وغيرهم أن "هناك انتقاما أو عقابا غيبيا يلحق بأولئك الذين لا يستجيبون بكيفية مرضية للطلبات التي ترفق بالعار"²⁹⁴.

لكن تدخل الزاوية المصلوحية في "قضية" الرحامنة لم يكن بهدف الوساطة المجردة من كل بعد مصالح، فالتوتر الذي كان يعرفه الحوز آنشد بسبب تمرد الرحامنة، يهدد في الأصل مصالح كبير الزاوية المصلوحية، ومصالح صديقه وصهره الغنجاوي، فقد كانا معا يتوفران على أراض خصبة بالحوز، ومعاملات تجارية مهمة في هذا المجال، وبالطبع فكل توتر بهذا المجال، لا بد وأن ينعكس سلبا على مصالحهما، لهذا كانت هذه الوساطة.

لكن هل تدخل الشريف المصلوحي في فتنة الرحامنة، كان بإيعاز من المخزن المركزي؟ أو من المفوضية البريطانية؟ أم هو بكل بساطة من أجل حماية مصالحه ومصالح صهره؟

يشير خالد بن الصغير إلى أن المصلوحي طلب فعلا مشورة ساتو البريطاني بطنجة، مجيبا إياه بأن أخبار فتنة حوز مراكش، وخاصة في الرحامنة وصلت إلى طنجة، ومفادها أن قبائل الرحامنة والسرارغة وغيرها تنوي التخلص من قوادها المخزنين، نظرا لما مارسوه عليها من تسلط وابتزاز.

²⁹² خالد بن الصغير، الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية: نموذجي الرواية الوزانية والمصلوحية، في كتاب جماعي: الزوايا في المغرب، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009، ص. 227.

²⁹³ ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب، ترجمة: محمد أعفيف، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 36.

²⁹⁴ ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب، نفس المرجع، ص. 36.

وحذر سائو المصلوحي من عواقب استمرار هذه الفتنة، ليس على حوز مراكش وما إليه من الأراضي الممتدة جنوبا فحسب بل على مصير المغرب قاطبة، فطلب منه استعمال نفوذه في المنطقة للمساهمة في إخماد الفتنة المشتعلة وإخضاع القبائل المتمردة لنفوذ السلطان الجديد²⁹⁵.

كما أن السلطان مولاي عبد العزيز دخل بدوره على الخط أمرا الشريف المصلوحي، على عادة أسلافه، بأن يوظف نفوذه الروحي، ويجاول تحقيق صلح بين قبيلة الرحامنة وقبائل السراغنة ومسفيوة المؤازرة لها، لاستتباب الأمن في المنطقة وتمكينه من الدخول إلى مراكش في أمن وسلام.

وبذلك فقد استجاب الشريف المصلوحي للتوجيه البريطاني والأمر المخزني معاً، ودونما تناليس بالطبع لاعتبارات مصالحه، فحاول أن يجمع وقدا من أبرز رجال الزوايا ومن بعض أعيان مراكش ومحتسبها، وذلك بتنسيق مع القائد ويذا للتوجه عند الرحامنة والقبائل المؤازرة لها تمهيدا لعقد الصلح.

لهذا لم يكن الشريف المصلوحي ليفشل في مهمة الوساطة، بالرغم من كل العراقيل التي وضعت أمامه بمراكش، فقد توجه بمفرده إلى الرحامنة، ليعود ومعه عدد من أعيان القبيلة إلى مراكش، فقد ذهب المصلوحي لوحده عند الرحامنة، وعاد إلى مراكش ومعه خمس وستون نفرا من أبرز رجال القبيلة، ثم سلمهم رسالة توصية إلى السلطان في فاس طلبوا فيها الأمان على أنفسهم وذويهم²⁹⁶.

لقد استبشر خليفة السلطان مولاي العباس والقائد ويذا بهذه النتيجة، فاتجه أعيان الرحامنة في طريقهم إلى فاس، إلا أن مبعوثين سرين سخرهم عامل مراكش بن داوود، تمكنوا من تخويفهم ومن زرع الشك بين ظهرانيهم، حين ذكروا لهم أن المخزن يستعمل وساطة المصلوحي للإيقاع بالرحامنة وتقسيمهم فور وصولهم إلى فاس، وترتب عن هذا رجوع وفد الرحامنة إلى قبيلتهم²⁹⁷، ليستمر التمرد ويفشل الشريف المصلوحي في مسعاه.

لكن أعيان الرحامنة فطنوا إلى أنهم كانوا ضحية مؤامرة من صنع بن داوود، لهذا فقد توجهوا من جديد إلى فاس، وعادوا منها إلى مراكش يحملون معهم رسائل سلطانية تؤكد أن مولاي عبد العزيز يصفح عنهم ويسمح لهم بأن يختاروا بأنفسهم قوادا صغارا لتدبير شؤون منطقتهم. وحين علم بن داوود بعودتهم، أمر بأن يغلق أحد أبواب المدينة في وجوههم، فاضطروا إلى استعمال باب آخر للدخول منه على خليفة السلطان مولاي العباس الذي كان مجتمعاً مع المصلوحي ومولاي عبد الملك

²⁹⁵ خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثانية، 1997، ص. 125.

²⁹⁶ خالد بن الصغير، الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية، مرجع سابق، ص. 227.

²⁹⁷ خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، مرجع سابق، ص. 127.

عم السلطان ومع القائدين السوسي وويدا. وعرض وقد الرحامنة الرسائل التي حملوها معهم من فاس على الخليفة السلطاني، إلا أن بن داوود رفض بلهجة شديدة أن يأخذها بعين الاعتبار، فأعلن عزمه على رفض المصالحة والاستمرار في مقاتلة الرحامنة بصفتهم لصوصا وقطاع طرق.

و أمام هذا الوضع الجديد لم يكن أمام الرحامنة سوى الرفع من إيقاع تمردهم وطلب الدعم من باقي القبائل الأخرى، اقتناعا منهم بعدم وجود جهاز مخزني يمكن الاطمئنان إليه والاعتماد عليه، لتشتد حدة التوتر بالحوز، وهو ما جعل الشريف المصلوحي يتدخل مرة أخرى ويكاتب السلطان محملا بن داوود مسؤولية ما يقع بالرحامنة والحوز عموما. لكن رسالة المصلوحي هاته ما كان لها أن تؤثر في السلطان، ما دام قريب بن داوود، أي الصدر الأعظم باحماد، هو "السلطان الفعلي".

و بالطبع فإن بن داوود، لما توصل بفحوى الرسالة التي كتبها المصلوحي عنه، لم يجد بدا من إعلان الحرب عليه بمساعدة قبائل أولاد بوسيع وأيت يمور، حيث هوجم يوم الثامن من ماي 1895 بمقر إقامته التي تعرضت للنهب والتخريب. مما اضطره إلى الفرار إلى الصويرة ومنها إلى طنجة، لرفع تظلمه لدى المفوضية البريطانية باعتباره من محبيها. لكن عامل مراکش بن داوود لم يكتف بمهاجمة المصلوحي وحده، وإنما وجدها فرصة سانحة للانتقام أيضا من صهره الغنجاوي، الذي يعد أيضا من كبار محبي بريطانيا²⁹⁸.

وفي ظل الاتهامات التي تبودلت بين الصدر الأعظم باحماد وبن داوود من جهة والمصلوحي والغنجاوي من جهة ثانية، والتي بلغ صداها إلى بريطانيا، كانت الرحامنة الأكثر حضورا في المراسلات، فباحمد يتهم المصلوحي والغنجاوي بأنهما دعما تمرد الرحامنة، وأنهما مسؤولان عن الفتنة التي يترعها القائد مبارك بن الطاهر بن سليمان، فيما يردان بأن مهمتهما تنحصر في الوساطة لا غير.

و عموما فالرحامنة وجدوا في الزاوية المصلوحية السند الروحي القوي، الذي يمكن الاعتماد عليه في مواجهة المخزن، بل إنهم كانوا، خلال هذا التمرد يترددون على زاوية المصلوحي ويودعون مواشيهم ويمتلكاتهم أمانة لديها، وحتى في اللحظة التي تسكن فيها المخزن العزيزي من إنهاء انتفاضة بن الطاهر، وفرض غرامات قاسية عليهم، فإن الفارين منهم لم يجدوا غير عزائب المصلوحي والغنجاوي ملاذا للاحتباء بها، خصوصا وأن الغنجاوي وجه رسالة إلى المخزن تتضمن لائحة طويلة بأراضي وعزائبه في المنطقة، ويحذر فيها من مغبة مسها أو مس اللاجئين إليها بسوء²⁹⁹.

²⁹⁸ خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، مرجع سابق، ص. 128.
²⁹⁹ خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، مرجع سابق، ص. 130.

و بما أن الغنجاوي كان من أكبر محبي بريطانيا فإن الصدر الأعظم باحماد سيطلب من الجهات البريطانية أن تأمره بأن يسلم اللاجئين من الرحامنة إلى المخزن، والذي قدرهم باحماد بأنهم يشكلون ثلث مجموع أفراد القبيلة، وأن من بينهم بعض "أراذل القبيلة وأجلافها" حسب تعبيره. إلا أن خالد بن الصغير يعترف بأن الوثائق لم تسعف في معرفة كيف توصل الطرفان إلى حل قضية اللاجئين من قبيلة الرحامنة إلى أراضي الغنجاوي³⁰⁰.

و مهما يكن من أمر فإن المخزن حينها كان قد تمكن فعلا من إنهاء تمرد الرحامنة، وأثقل كاهلهم بالغرارات وساقهم نحو سجون مراكش والصويرة "مسلسلين في الأعناق"، وبدا واضحا لكثير من آل الرحامنة أن الزاوية المصلوحية يمكن التعويل عليها فعلا، ولهذا لم يكن مستغربا أن نكتشف خلال التحري الميداني أن عددا مهما من المهوئين يصرون على زيارة زاوية تامصلوحت من حين لآخر.

لنتأمل الآن كيف تتطور سلطة الشريف/ الزاوية من الممارسة الدينية الصرفة إلى الوساطة والتحكيم القضائي والسياسي، وكيف يمتد النفوذ الروحي إلى مدارات النفوذ السياسي، الذي يجعل من هذه السلطة، سلطة فوق السلطة، تنجح فيما عجز فيه المخزن المحلي والمركزي.

لقد خلص ميشو بلير إلى أنه في حالة وجود سلطة قوية، ينحصر دور الزوايا في أداء وظيفتها الدينية، وفي ظل حكم مترهل تقفر الزاوية إلى المشهد السياسي، وعليه فتاريخ المغرب عند بلير يتجسد في تناوب التعاون أو التنافس بين المخزن والزوايا³⁰¹.

لقد كان من الممكن أن تنجح هذه الوساطة لولا وجود سلط مضادة أخرى، كانت ترى في "قص أجنحة" قبيلة الرحامنة ضرورة مخزنية، فبالرغم من انتقال أعيان الرحامنة إلى فاس، وحصولهم على "رسائل سلطانية" جاء فيها أن مولاي عبد العزيز يصفح عنهم ويسمح لهم بأن يختاروا بأنفسهم قوادا صغارا لتدبير شؤون منطقتهم³⁰²، فإن عامل مراكش عباس بن داود الذي لم يكن ليقبل نجاح وساطة الشريف المصلوحي، سيسعى جاهدا لرفض المصالحة مع الرحامنة، ضدا على الرسائل السلطانية.

و هو الرفض الذي جعل أعيان الرحامنة يعودون إلى قبيلتهم والتسليم بعدم "وجود جهاز مخزني فعلي يمكن الاطمئنان إليه للحصول على حقوقهم... ثم قرروا الانتقام لأنفسهم بأنفسهم،

³⁰⁰ خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، مرجع سابق، ص. 131.

³⁰¹ Michaux Bellaire, La Maison d'Ouezzane, in: Revue du Monde Musulman, Vol V, Paris, Mai 1908, p. 28.

³⁰² خالد بن الصغير، الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية، مرجع سابق، ص. 228.

وعقروا الذبائح على عتبات كل الزوايا المجاورة لأراضيهم، حتى يستقبطوا سكانها ويستفروهم للالتحاق بحركة التمرد، فاستجابت لدعوتهم ثلاث عشرة قبيلة³⁰³.

لنلاحظ مرة أخرى كيف تسجل الزاوية سلطتها ليس فقط في مستويات التحكم والوساطة، ولكن حتى في استثمار آلية العار، فالرحامنة، بعد استشعارهم لِعُسر المصالحة، لجؤوا إلى الذبائح على عتبات الزوايا³⁰⁴ والأضرحة التي تمارس نفوذاً روحياً على القبائل المجاورة. وعندما يكون العار مرتبطاً بسجل المقدس والنفوذ الروحي والسياسي، ويكون مقروناً بالذبيحة، فإنه لا يقبل الرفض أو التأجيل أو التلذذ، وإنما يستلزم الاستجابة العاجلة.

إنه "ثقل المقدس" مرة أخرى، ففي كل الديناميات الاجتماعية والسياسية نكتشف هذا الاختراق الذي يعتبره عبد الله العروي أنه كان يلمح أفقي وعمودي للمجتمع المغربي³⁰⁵، فقد عرفت نهاية القرن التاسع عشر حضوراً نوعياً للزوايا داخل المجتمع³⁰⁶، وهو حضور لافت تتحدث عنه المصادر لارتباطه أساساً بمحفل المقدس وانفتاحه المباشر على مزاحمة السلطة ومناقستها في أسسها الرمزية التي تستند عليها في بناء شرعيتها وضمان استمراريتها.

لهذا كله، كانت قبيلة الرحامنة، كما أغلب القبائل المغربية واقعة تحت نفوذ روحي لزوايا متعددة، ومستثمرة، من جهة أخرى، لهذه العلاقات الزاويانية في تدبير صراعها مع المخزن، وتأمين وتيسير حركيتها المجالية والسياسية. وسواء في مستوى التعاقدات والتضامات القبلية أو في مستوى الحضور الزاوياني، فإن الأعيان كانوا، وما يزالون، حاضرين بمقدار ما في تدبير وصناعة هذه الحركية، فالعينية لم تكن في أية لحظة من لحظات التحول الاجتماعي والسياسي، مجرد ممارسة طارئة أو معزولة عن سياقها، إنها مكون بنيوي ومؤسس لكثير من العلاقات والأنماط والتفاعلات التي تعبر عن الجماعة وتعلن عن وجودها.

³⁰³ نفس المرجع، ص. 228.

³⁰⁴ آلية العار استثمرها الطب الكوندا في مع قبيلة الرحامنة، لما طلب حمايتهم، بعد أن تعرضت له جماعة محسوبة على القايد المتوكي، ففي أواخر أبريل 1906 قام بذهاب ثور لزاوية بن ساسي ليطلب مساعدة الرحامنة. انظر:

بول باسكون، الفترات الكبرى للقائدية، مرجع سابق، ص. 129.

³⁰⁵ Abdellah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op.cit p. 154.

³⁰⁶ نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب: الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2003، ص. 8.

محاولة في التركيب من القبيلة إلى القبلية

لقد بات واضحا، من خلال ما سبق، أن البنيات التقليدية المؤسسة للتضامن الجمعي، قد تعرضت لمزيد من التكسير والتدخل وإعادة التشكيل، بدءا من الفترة الاستعمارية وإلى غاية مرحلة الاستقلال التي شهدت تعميق نفوذ الدولة/ المخزن. فالقبيلة سوف تتوارى كمؤسسة تنظيمية، ومن دون أن تغيب كبنية موجهة ومحددة للتصورات والممارسات والقيم، بما يدل على أن الانتقال حدث من القبيلة إلى القبلية Du Tribu Au Tribalisme.

يقول رجال بويريك بأن القبيلة، أية قبيلة، هي بالضرورة "مجموعة بشرية مكونة من قسماات ومجموعات اجتماعية يجمع بينها رابط القرابة الدموية (حقيقي أو وهمي) وتحتل مجالا ترابيا تمارس عليه سلطتها وتدافع عنه مع خضوعها لقيم وتمثلات ومبادئ مشتركة"³⁰⁷، فإلى أي حد ما يزال ينطبق هذا التعريف على واقع القبائل المغربية أنا، خصوصا عندما نجد أن فرضية امتلاك المجال وممارسة السلطة عليه، قد سحبت من هذه القبائل لفائدة الإدارة الترابية؟

أولا: إحياء القبيلة:

لقد انتهى مغرب القبائل مع إعلان موت "اجماعة"³⁰⁸، لكن مغرب القبليات سيظهر متخذا صيغا وإنشاءات شتى، وهو ما يلوح جليا في الدعوات المحلية إلى الانصرار إلى الأصل القبلي، وتقديم الولاء للقبيلة على الولاء للوطن، بما يدل على أن العسر الملاحظ في شأن الانتقال من المخزن إلى الدولة، قد امتد أيضا إلى واقعة الانتقال من الانتماء القبلي إلى الانتماء الوطني.

³⁰⁷ رجال بويريك، دراسات صحراوية: المجتمع والسلطة والدين، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الثانية، 2008، ص. 104.

³⁰⁸ مع الدخول في مسار خلق الجماعات الإدارية سنة 1916، وتأطير هذا التوجه بظهير شريف صادر بتاريخ 27 أبريل 1919، والذي حدد أدوار هذه الجماعات وأشكال تدبيرها، تم الإعلان رسميا عن موت "اجماعة"، لكن وكما قلنا قبلا، من دون تشييعها إلى مثواها الأخير، لهذا يمكن القول أنه بدءا من هذه الفترة بدأت "اجماعة" تشهد مرحلة احتضار لا غير.

لكن، هل الدولة التي أعلنت أنها جاءت لتكسير الأساس العرقي القبلي واستبداله بالأساس الترابي الإداري، قد أسست فعلا لخيار الولاء للوطن بدل الولاء للقبيلة؟ أم انها أسهمت بقسط وافر، عن طريق ممارستها وتدخلا لها، في إعادة تشكيل البنيات والتصورات القبلية، وفق ما توطئه وتدعمه الخطاطة التالية: 'مؤسسات عصرية بممارسات وتمثلات تقليدية'؟ فهل ما زالت القبيلة حاضرة كإطار اقتصادي وسياسي؟ أم أنها توجد فقط كتصور وكسلطة رمزية تحدد السلوكات والانتماءات؟

لقد تم الإعلان في الثاني والعشرين من يناير 2009 عن إحداث 13 عمالة وإقليم جديد³⁰⁹، بهدف تكريس سياسة القرب وتجويد الإدارة الترابية³¹⁰، والواقع أن أغلب العمالات والأقاليم المحدثة في هذا الإطار، اتخذت تسميتها من المراكز الحضرية الكبرى التي تنتمي إليها، جريا على عادة استبدال الأساس القبلي بالمعطى الترابي، إلا أنه في حالة إقليم الرحامنة، فالملاحظ أنه تم الاحتفاظ باسم القبيلة بدلا من تسمية العمالة بإقليم بن جرير مثلا.

فالدولة التي تصرح بكونها مع الأساس الترابي، هي ذاتها التي تعيد إنتاج القبيلة، وتؤسس لاستمراريتها³¹¹، وهو ما نلاحظه أكثر في التعامل مع الأقاليم الجنوبية حيث يتم استدعاء البعد القبلي، بدل التعاطي مع البعد الترابي والإداري في العلاقة الممكنة مع مواطني الصحراء المغربية.

إن التقسيم الترابي الذي اعتمدته الدولة في الأقاليم الجنوبية استحضرت التوازنات القبلية بالدرجة الأولى، ولا يبدو أنه انشغل باستبدال الأساس العرقي بالأساس الترابي الإداري، وفي هذا الصدد يقول محمد دحمان بأنه تم "التمكين" لقبائل معينة بأقاليم محددة، وهكذا فقد "مكنتم لقبيلة

³⁰⁹ ويتعلق الأمر بشكل من وزان وسيدي سليمان وجريسيف والدريوش وبرشيد وسيدي بنور واليوسفية والرحامنة والفيقيه بنصالح وميدلت وتغنيف وسيدي إفني وطرفاية.

³¹⁰ لكن لا يجب أن ننسى أن التقسيم الترابي بالمغرب تقف وراءه دواع أمنية، فالدار البيضاء مثلا التي كانت تتكون من عمالة واحدة، صارت بعد انتفاضة 1981 تتكون من خمس عمالات، ثم 9 عمالات عشية أحداث السادس عشر من ماي 2003، فهل التقسيم والحالة هاته مجرد جواب تنموي أم أنه رد أممي ينضبط لقاعدة "تقسيم أكثر من أجل ضبط أكبر"؟

³¹¹ ثمة حادثة وقعت يوم السبت 29 ماي 2010، بالجماعة القروية الشبيكة بإقليم طانطان، والتي توجه إليها عدد من أفراد قبيلة الرحامنة من البرابيش، من أجل الترحم على أجدادهم بمنطقة أخوي بذات الجماعة المذكورة، الشيء الذي جعل أفرادا من قبيلة الزركيين يتصدون لهم ويبتعنهم من هذه الزيارة بدعوى ألا علاقة تربطهم بهذه المنطقة، وأنها تدخل في نفوذ قبيلة الزركيين، والغريب في الأمر أن السلطات المحلية لم تتدخل لإنهاء هذا النزاع، وهو نفس الموقف الذي تبنته أيضا في السنة الفاتنة لما منع وفد من السباعيين من زيارة مقبرة بالسماة، وهذا كله يسير في اتجاه تأكيد فرضية الانتقال من القبيلة إلى القبيلة.

أنظر: جريدة المساء، 3 يونيو 2010.

الركيبت بإقليم السمارة، ولأولاد دليم بإقليم وادي الذهب، ولقبيلتي أولاد تيدرارين والعروسين بإقليم بوجدور، ولقبيلتي تسكنة والركيبت بإقليم العيون³¹².

لقد عرفت الرحامنة تحولات كبرى اقتصادية وديمقراطية وسياسية ومحالية، إلا أنه بالرغم من ذلك كله فإن الولاء القبلي ما يزال، على قدر عالٍ من الأهمية، وذلك في ترتيب التصورات وإنتاج القيم وتأطير العلاقات والتفاعلات، فالحضور القبلي يظهر أكثر في السلوك الانتخابي، الذي يكون فيه التصويت لفائدة "وله القبيلة"، وليس لبرنامج الحزب وخطه الأيديولوجي، كما يظهر في توكيدات الأصل والانتماء، عبر التواصلات اليومية للمغاربة، فعبارة "مين نت" والتي تسبق السؤال عن الإسم أو المهنة أو المسار الدراسي، نجدها تتساءل عن الأصل القبلي أولاً، وليس عن الأصل الترابي والإداري، اعتباراً لكون الأصل القبلي المحدد الفعلي لأنماط العلاقة المفترضة.

إن الاعتزاز بالقبيلة واضح في تصورات الكثيرين من الأفراد، وهو ما يؤكد استحالة محو القبيلة من عمق التمثيلات، بما يؤكد بأن الذي حصل انتقالاً، فقط، هو استبدال القبيلة بالقبيلية، فالقبيلة تلاشت كمؤسسة تنظيمية، لكنها ما زالت حاضرة كنظام رمزي محدد وموجه للقيم والتصورات والممارسات. إن التحولات الاجتماعية لا تتخذ بالضرورة مسارات واضحة وخطية في اتجاه واحد، إنها أشبه ما تكون بمخطوط تحتمل الامتداد والانكسار والارتفاع والانحدار والتوازي والتقاطع، فليس هناك من تحول اجتماعي واحد وموحد الأداء والاتجاه، وهذا ما يجعل التحول بارزاً ومتسارعاً في حالة ما، وبطيئاً وغير ملحوظ في أمور أخرى.

وهذا يعني أن التحولات التي عرفت الرحامنة ليست كلها على نفس الدرجة والنوع، وإنما هي تحولات مختلفة الأبعاد والمواصفات، فهي من الناحية الديمغرافية والمجالية قوية وبارزة، لكنها على مستوى التصورات والقيم تظل أكثر تباطؤاً، كما أنها لا تكون مؤثرة في مجموع النسق، فقد تهم جوانب منه، في حين تظل أساسيات أخرى منه، محافظة على استمرارية مكوناتها ومحدداتها الثقافية الأولية، وهو ما نلاحظه بالضبط في تدبير اللحظة الانتخابية، حيث الانتماء متواصل، إلى سجلين متناقضين، الأول عصري مؤسسي والثاني تقليدي شخصاني.

إن الانتقال من القبيلة إلى القبيلية، وإن كان ثمرة مباشرة للتكسيرات التي دشت خلال الاستعمار واستمرت مع الاستقلال، فإنه يعد أيضاً ناتجاً خالصاً لمسارات مخزنة المجتمع، وتراجع الجمعي وبروز الفردي. وهو أيضاً محصلة نهائية لصعوبة الحسم في الانتماء إلى التقليد أو العصرية.

³¹² محمد دهمان، الترحال والاستقرار بنسقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مرجع سابق، ص. 230.

ثانيا: الحضور والغياب:

تخضع القبيلة اليوم في المجتمع المغربي لثنائية الحضور والغياب، فهي غائبة كمؤسسة تنظيمية تصنع القرار وتوجهه، تماما كما كان الأمر بالنسبة لمغرب القرن التاسع عشر، وحتى في بداية عهد الاستعمار، لكنها حاضرة كإطار للهوية والانتماء.

فبعدما كانت الرحامنة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقبلهما أيضا تتحرك في المجال الحوزي وتمتلكه وفقا لمقتضيات موازين القوى وعلاقتها مع المخزن والزاوية، فإنه مع دخول المستعمر، سيصير تحركها محدودا ومسيجا بقوانين ترابية تنتج المجال وفق أساس إداري لا عرقي قبلي.

التحالفات التي كانت تؤسسها القبيلة مع باقي القبائل المجاورة، بل وحتى الصراعات التي تنخرط فيها، سوف لن تخضع للمنطق القبلي، وإنما ستغدو مراقبة أكثر من قبل الإدارة الاستعمارية وبعدها من طرف الإدارة الترابية للمغرب المستقل، وكلها تدبيرات ستحد من فاعلية القبيلة التنظيمية والتفريقية. لكن وبالرغم من كل هذه الإجراءات التي أفرغت القبيلة من دورها التأسيسي، فإن ذلك كله لم يؤد إلى محو الانتماء القبلي في البنيات الرمزية والمادية للمجتمع، فثمة حضور متجدد للقبيلة كتصور، يلغي غياب القبيلة كتنظيم.

ولإبراز هذا التركيب يقدم بول باسكون مثالا معبرا عن "شاب يحمل شهادات"، ويرتدي بذلة عصرية، ويتلفن إلى مسؤول إداري. إنه ينطق بكلمات عربية، ويوصي بتشغيل فلان بالفرنسية، ولكنه أمام تحفظات المسؤول يعاود الكرة بثلاث حجج، إنما بالعربية هذه المرة: إن قريبا للشخص المقترح قد فقد عمله، وأن العائلة أصبحت بدون مورد، وبأنها تنتمي إلى قبيلة من وسط المغرب، وبأنها كثيرة الولد، ولكنه يواجه في الأخير برفض مبني على القانون، هذا دون أن تكون مؤهلات المرشح قد ذكرت³¹³.

فالتحليل السوسيولوجي لهذا المثال سيفضي بنا إلى الخلو إلى وجود عدد غير يسير من الديناميات الاجتماعية التي تمتع من أنساق مختلفة، لكنها تحضر بشكل متجاور ومتداخل ومركب بتعبير بول باسكون. لكن هذه الديناميات لا تنطرح كوحدة منسجمة، بل إنها تتبارى وتتصارع فيما بينها من أجل الهيمنة.

³¹³ بول باسكون، ما الغاية من علم الاجتماع القروي، ترجمة: مصطفى الصناوي، مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، أكتوبر 1986، ص. 54.

بحيث تصير أنماط العيش والسلوك والثقافات متجاوزة فيما بينها على الرغم من التناقض الصارخ الذي يبصم ثنائياتها المحتملة، فالمقدس والمندس، والأسطوري والواقعي، والعلمي واللاعلمي، والتقليدي والحديث، وما إلى ذلك من ثنائيات المجتمع المزيج تجدها نفسها حاضرة في نفس اللحظة ومؤطرة لها، ودون أن يثير هذا الحضور المركب أي إشكال على مستوى سيرورة الحياة الاجتماعية، بل إن هذا التركيب يستحيل مع الوقت شرطا وجوديا لاستمرارية المجتمع³¹⁴.

فالقلبية تستيقظ في أعماق هذا الشاب، وتصير مبررا للحصول على الوظيفة، بل إنها تستحيل جواز مرور يفوق في قدرته التأثيرية ما يحوزه المرء من شهادات علمية، فالتقليد ينتصر على العصرية في كثير من الأحيان، وهو ما نلاحظه بجلاء في إنتاج السلوك الانتخابي بالمغرب، فالصوت الانتخابي هو "ولد القبيلة" في البدء والختام³¹⁵.

ولهذا لم يكن من المستغرب أن تكون مرتكزات التوافق السياسي بين المتنافسين في الانتخابات قائمة على إظهار "ميزة" الانتماء القبلي، إن هذا الانتماء يظل أهم "سلاح" لمواجهة الخصوم. فالسياسي الناجح هو الذي يعرف كيف يدبر العلاقة بين التقليد والعصرية، ويعي جيدا اللحظة الحاسمة التي يكون فيها مدعوا للاستجداء بانتماؤه القبلي، والمناسبة الأخرى التي يطلب فيها أن يكون منحازا إلى خطاب العصرية.

ففي الخطاب المشيع بالقلبية يجبو النفس الإيديولوجي المحدد للانتماء الحزبي، فنادرا ما يتم اللجوء في البوادي المغربية إلى إشهار البرامج الحزبية، فقط هو الشعار واللون ما ينبغي التركيز عليه، أما الأدبيات والمرجعيات الحزبية فلا تجدي نفعا في إقناع الناخبين بالتصويت، فما يؤثر فعلا ويؤسس للفوز السياسي، هو إشهار الانتماء القبلي وإظهار التفوق المادي والرمزي على باقي المنافسين. إننا إزاء نظام مستند بالعلاقات الشخصية والروابط القرابية والممارسات الزبونية، أي أن الاشتغال يتم في سياق تقليدي محض، بالرغم من كونه يرنو إلى تحقيق مطلب عصري، متوزع على التصويت والتتمثيل النيابي، الذي يبقى من أبرز مؤشرات الحداثة السياسية.

³¹⁴ عبد الرحيم العطري، دفاعا عن السوسيولوجيا، دار بابل للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2000، ص. 89.

³¹⁵ عبد الرحيم العطري، ملاحظات حول السلوك الانتخابي، في كُتُب جماعي، مجموعة من الباحثين، السلوك الانتخابي بالمغرب، لتسيق: عبد الرحيم العطري و منتصر حمادة، منشورات الشروق، الرباط، الطبعة الأولى، 2009، ص. 45.

ولهذا يقول المختار الهراس بأن "هذا الماضي القبلي، يمكن تلمسه أيضا في استمرار انصراف الأشخاص ضمن العائلة أو خط النسب، بحيث يجدون صعوبة كبرى في اتخاذ مواقف فردية مستقلة ومسؤولة خارج إطار الجماعة، ودونما الاعتماد على دعمها وسندها، وكأن الترابطات الانقسامية القديمة، ما زالت إلى الآن فاعلة ومؤثرة في العلاقات الاجتماعية"³¹⁶. ويضيف الهراس موضحاً بأن "الأبعاد الرمزية للقبيلة ما زالت متواجدة في الأذهان، وروح الحياة القبلية القديمة، ما زالت إلى حد الآن تحرك الأفراد والجماعات"³¹⁷.

لا نكتشف الحضور القبلي في تدبير اللحظة الانتخابية فقط، بل نعاينه في السوي المحلي، فالمبحوثون غالباً ما يرددون "قبيلتي، جماعة دبالنا، القبيلة ديالي"، ويحتمون بها في حالات التهديد، ففي حالات الخطر يستيقظ الانتماء الجمعي، منتصراً على البروز الفردي؟

ثالثاً: منطق التوليف:

وإذا كانت العلاقات القبلية للمغرب الماقبل استعماري تتجه نحو بناء الأوفاق والأحلاف، فإنها اليوم تتحول إلى صيغ الوساطات والعلاقات الزبونية، لتخرج من مستواها الجمعي الملزم لمجموع القبيلة، إلى سياق تداولي خاص، يظل حكراً على جماعات وزعامات بعينها. فبدل ملاحظة التحالفات القبلية فإننا نكتشف اليوم العلاقات الزبونية التي تؤسس للولاءات داخل وخارج المجال الترابي للقبيلة، في استبدال يمكن للعلاقات الأفقية والانتشارية بأخرى عمودية متعددة الأبعاد والانفتاحات.

تبدو القبيلة كمؤسسة سياسية تنظيمية استبدلت بالجماعة الإدارية، والقبيلة كمؤسسة اقتصادية واجتماعية راعية للفعل الجماعي التضامني (توزيع، تنظيم المجال الرعوي، الماء، ...) آخذة في التفرط في كثير من أدوارها هاته. فأراضي المجموع التي كانت تدبر داخل القبيلة، صارت تدار في أروقة وزارة الداخلية، من داخل مديرية أراضي المجموع، كما صار يتحكم في تحديد مآلها عن طريق الجمعيات النسائية والمحاكم القضائية، خصوصاً مع ظهور الحركات الاحتجاجية للنساء السلايات في أكثر من منطقة بالمغرب.

إن التحولات الاجتماعية التي عرفها المجال الرحامي تسير في اتجاه توكيد فرضية انمحاء وإعادة تشكيل كثير من العلاقات الإنجابية الجماعية، وكذا تراجع مفاعيل المؤسسات التقليدية لصالح خيارات فردية وعصرية لا تسلم من تأثير التقليد وتوجيهه. فالحصص le blocage الذي حدث في أمر الانتقال من المخزن إلى الدولة، منتهياً إلى حالة المخزنة، يتخذ صيغة أخرى مع ثنائية

³¹⁶ المختار الهراس، ملاحظات واستنتاجات حول تطور النظام القبلي في جبال، مجلة المشروع، العدد السادس، 1986، ص. 86.

³¹⁷ المختار الهراس، السلطة والقبيلة، مرجع سابق، ص. 260.

التقليد والعصرنة، تنكشف أيضا في الانتقال من القبيلة إلى القبلية، ذلك أن الطبيعي في مسارات التحديث، هو الانتقال من القبيلة إلى المؤسسة، إلا أنه في الحالة المغربية، فإن المراهنة على استبدال الأساس العرقي بالأساس الترابي، لم تسهم إلا في إعادة إنتاج نمط علائقي جديد، تتعايش فيه سجلات متعددة وتفسر فيه مؤسسات عصرية بممارسات وتمثلات تقليدية.

إنه منطق التوليف Montage والترميق Bricolage الذي يعمد فيه الفاعل الاجتماعي إلى استدماج كثير من الممارسات والحطابا المتعددة الانتماءات في متن واحد، إنه إعادة إنتاج ممكنة لعصرنة المؤسسات وتقليدية العلاقات، حيث يبدو الفاعل منتعيا إلى سجل عصري من الناحية المؤسسية، ومشتغلا فيه ومن داخله بأدوات وتمثلات وعلاقات تقليدية.

لم يتأت تفكيك النظام التقليدي بسهولة في البوادي المغربية، ولا يمكن التأكد كلية من إمكان القضاء عليه، فدائما هناك تسريبات ثقافية نحو الفائت، ودائما هناك تأثيرات قوية للتقليد في بناء العصرنة، وعلى كل حال فالوصول إلى هذا الوضع من المهشاشة الذي صارت عليه المؤسسات التقليدية هو نتاج منطقي لربط البادية بنمط الإنتاج الرأسمالي، وجعلها أكثر تبعية للمدينة من حيث تدبير الحاجات والمواد الاستهلاكية الأساسية. هذا فضلا عن صيغ انحاء النظام القبلي وتهميش "الجماعة" وتعميق نفوذ الدولة، وتراجع الاقتصاد العائلي وارتفاع مؤشرات الفردانية.

كما أن تنقيح العلاقات الاجتماعية، وتحول النقود إلى عامل أساس في بناء معادلات هذه العلاقة، ولو داخل الأسرة، كان سببا في تقوية هذا الربط، فالاقتصاد العائلي ما عاد كذلك، والأيضاء الذين كانوا يشتغلون بالمجان، صاروا يطالبون بأجرة، أو يرفضون العمل بالزراعة والرعي العائلي، مفضلين العمل المأجور في أماكن أخرى. هذا التنقيح سيسهم في اختفاء كثير من التضامانات والتعاقدات الفلاحية وتحوير كثير من القيم والتمثلات الجمعية لصالح بروز فردي يجعل من المصلحة الشخصية أولوية الأولويات.

إن الاحتماء بالدولة/ المخزن سيرتفع عليه الطلب الاجتماعي مع تراجع أدوار القبيلة وتزايد نفوذ وتدخل الدولة، فالصورة التي أنتجتها الدولة لنفسها، والتي راقا لها مدة من الزمن (قبل أن تتجه مؤخرا إلى ممارسات قشي بمنطق دولة التخلي لا الدولة التدخلية)، هذه الصورة التي تظهر فيها على أنها المعطاء، القوية، التي تمنع وتبيح، سوف تكون من بين الأسباب المسؤولة عن تدهور الأنظمة التقليدية. فالفلاح الذي كان يحمل شكواه إلى "الجماعة" سوف لن يفعل مع بروز سلطة القائد غير المتجذر اجتماعيا، والذي صار الأكثر تحكما في المجال الترابي القبلي.

كل هذه العوامل ستجعل مفاعيل المؤسسات التقليدية تتوارى، دون أن ترحل كلياً، لصالح مؤسسات أخرى تبدو عصرية ومؤسسية، وإن كانت تدبر بدورها بعلاقات وممارسات تقليدية، لهذا كله، كان من الطبيعي أن يكون الانتقال الممكن هو من القبيلة إلى القبلية، بشكل لا يعني موت القبيلة، ولكن تجدها في بنية تصورات وقيم دالة ومؤثرة.

إن التحولات التي عرفها المجال الرحامي على أكثر من صعيد، وذلك في مستوى البنيات ووسائل الإنتاج المادي والرمزي والعلاقات والتصورات والقيم، فضلاً عن الانتقالات الممكنة أو المزعجة، بدءاً من وضع المخزن إلى الدولة فالمخزنة ومروراً بالانتقال من القبيلة إلى القبلية، إلى واقع العصرية في ظل التقليد. فكل هذه التحولات هي نتاج مستمر لما عرفه المغرب خلال الاستعمار وما تلا ذلك في زمن الاستقلال.

وهي تحولات لا تلوح بطعم القطيعة مع الفاتت، إنها تضمر وتعلن الامتداد والاستمرارية، فهي تتراوح دوماً بين سجلات فائقة وراهنة وأخرى لاحقة، بالشكل الذي تضيق معه كل محاولة للحسم في ترتيب ونمذجة الواقع، فنحن لا نعي في كثير من الأحيان، هل يتعلق الأمر بممارسات ومؤسسات عصرية أم تقليدية؟ وذلك بسبب التداخل والتعايش الذي يفرضه منطق التحول هذا.

يمكن النظر إلى هذه التحولات الاجتماعية على أساس أنها تحولات تعتل بغير القطيعة وتتنطبق عليها واقعة "الانتقال المعاق"، إنها لا تمهد للانغماس في مسارات جديدة من التحول لا تمت بأية صلة القائم سلفاً من الأوضاع والممارسات، إنها تحولات مبهورة بجينيات البدء والامتداد، تتم داخل منطق الاستمرارية وإعادة الإنتاج والتكريس، بل إنها تصير أحياناً مجرد تغيرات على مستوى الشكل لا المحتوى. ولهذا يفهم جيداً كيف تتعايش أنماط وممارسات عدة ومتناقضة أحياناً داخل نفس النسق، ودون أن تتسبب في إثارة أي ارتباك على مستوى الاستمرارية.

لقد أفضى "انتصار الاستمرارية" على التغيير إلى "تسييد" واقع من التوليف والترميق يتأسس على استدماج واستدخال قيم وممارسات متناقضة من حيث البدء والانتماء "السجلي"، حيث يتمازج التقليدي مع العصري، ومن غير أن يؤثر على فعالية النسق، ما يؤسس ويجذر باستمرار لخطاظة "المؤسسات العصرية في ظل علاقات وقيم تقليدية".

إن الفعل الاجتماعي في ظل انتقال مخصوص من القبيلة إلى القبلية، لا يعتمد فقط على ما هو تقليدي، بل إنه يزاوج بين العصري والتقليدي، ويسير في اتجاه المؤسسة والعصرية، لكن بالآليات ومرجعيات تقليدية، فالتحولات المتسارعة حيناً والبطيئة أحياناً، والتي تعرفها البوادي المغربية لم تعد إلى التحديث الكلي ولا الحدأة الشاملة، فالانتماء المؤسسي إلى السجل العصري لا يعني الانتهاء كلياً من إنتاج علاقات وقيم تقليدية، إن قوى التقليد، وسياقات المرواحة بين التقليد والعصرية، ما زالت تحدد الطبيعة الممكنة لهذه التحولات.

على سبيل الختام:

إن اختيار المجال الرحاني لاختبار ثلاثية "القبيلة، المخزن، الزاوية"، لم يكن محكوماً بصدفة الاختيار، بل جاء بطريقة قصدية تبرزها دينامية هذا المجال التاريخية وراحيته السياسية التي أعادت مفهوم الأعيان إلى واجهة العمل السياسي خصوصاً خلال زمن الانتخابات. فمن خلال استدعاء مختلف هذه الوقائع يمكن تسجيل الخلاصات التالية:

أولاً: الرحامنة قبيلة متفاعلة مع معطيات النسق السياسي العام، فقد كانت دوماً في صلب الأحداث والوقائع، وهو انخراط مبرر بالموقع الجغرافي (القرب من مدينة مخزنية، معبر للحركة أو المحلة، وعطوية جغرافية أيضاً) والطموح السياسي لقيادها وأعيانها، فانتماؤها مجالياً إلى الحوز أدخلها في جملة من الحركات والتفاعلات التي انقضت عليها، وجعلت علاقتها بالمخزن تعرف مداً وجزراً.

ثانياً: يكشف تتبع الوقائع التاريخية لعلاقة الرحامنة بالمخزن هشاشة أطروحة التعارض الاستعماري، فالأمر لا يتعلق بعالمين منفصلين هما بلاد المخزن وبلاد السية، وإنما باحتجاج اجتماعي وسياسي على واقع من العنف والإكراه، تترجمه الانقضاة كمعطى مركب لا يقبل بتفسير يستند إلى القطيعة والمواجهة بين عالمي المخزن والسية.

ثالثاً: يتوجب ربط الانقضاات المتكررة للقبيلة بشرطها التاريخي المفتوح على الأزمة السياسية والاقتصادية التي كان يعرفها مغرب القرن التاسع عشر، وذلك ارتباطاً بعصر انتقال الحكم أو توالي سنوات الجفاف والقحوط، الشيء الذي لا يستقيم والاستجابة الطبيعية للكلف المخزنية.

رابعاً: لم يكن المخزن في علاقته بقبيلة الرحامنة، ليسد عن قاعدته في التعامل مع باقي القبائل، فتارة يتم استعمال العنف، وتارة يتم توظيف الصراعات مع القبائل المجاورة، وحيناً آخر يلجأ إلى النزوايا والأشراف والأعيان، إنها استراتيجية اشتغال متعددة الأبعاد والانتماءات، تفرضها ظروف ومتغيرات القوة أو الضعف.

إلى ذلك كله تظل قبيلة الرحامنة في تاريخها القريب والبعيد من أبرز القبائل المغربية التي لم تتكيف بتوقيع حراك مجالي "بارد"، بل إنها في رحلتها الكبرى من الصحراء إلى الحوز، وفي ثنائية الترحال والاستقلال، من الخيمة إلى النواة، كانت في قلب حراك سياسي يحتمل الانفراج والتوتر والجمود أيضاً في علاقتها بالمخزن وباقي القبائل المجاورة.

إن هذا البحث لا يحمل بأي حال من الأحوال "أمانة الوصية الأخيرة"، ولا يدعي مطلقاً التمكن الشؤلي من "الرحامنة بين المخزن والزواية"، بل يعترف في البدء والختام باستحالة إنجاز "تأطير" عام ومكتمل لمجال في قلب التحولات، فلا بد من التشديد في البدء على أن إنجاز بحث محصور في مجاله (الرحامنة)، لا يسمح بالانجرار وراء أية نزعة تعميمية، ولا بالدخول في أية ممارسة تصنيفية إطلاعية، فـ"تنسيب الحقيقة" شرط وجودي في الاشتغال السوسولوجي، ولهذا فإن مسألة المجال الرحماني لن تحسم في إشكال "نمط الإنتاج"، ولا في تقديم إجابات ناجزة عما يعتل داخل مجتمع في محك التحول. إن الأمر يتعلق في البدء والختام بمنافذ ممكنة، تُبذل منها، على ما يتفاعل في النسق القبلي الرحماني من صراعات وتناقضات وتضامات، وما يتأسس فيه، من آليات بناء وتحذير وإعادة تدوير، ما يجعل هذه المساهمة المتواضعة تلوح ببياضات وهفوات موجبة لاستثنافات تساؤلية أخرى في مناطق جديدة وسياقات أوسع. ففي "العلم الاجتماعي" لا نصل إلى "الحقيقة"، بل نقرب فقط من "أحوال الحقيقة".

انتهى بحمد الله وتوفيقه.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية

المصادر والمعاجم والموسوعات:

- الرباطي (محمد الضعيف)، تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ النولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان دراسة وتحقيق: محمد البوزيدي الشبي، دار الثقافة، الدار البيضاء الطبعة الثانية، 2007.
- الطيب (محمد سليمان)، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، مدينة نصر، الطبعة الثانية، 1998.
- السوسي (العلامة محمد المختار)، المعسولة الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1960.
- الناصري (أحمد بن خاله)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: أحمد الناصري، أشرف عليه: محمد حجي، إبراهيم بوطالب، أحمد التوفيق، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الرباط، الطبعة الأولى، 2001.
- القادري (محمد بن الطيب)، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، الطبعة الأولى، 1986.
- المشرفي (محمد بن محمد بن مصطفى)، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المنتهية، دراسة وتحقيق: إدريس بوهليلة، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، الطبعة الأولى، 2005.
- الوزان (الحسن بن محمد القاسمي المعروف بليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.
- بن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.
- بن زيدان (عبد الرحمن)، إنحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، الرباط، الطبعة الثانية، 1990.
- بن زيدان (عبد الرحمن)، إنحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء السادس، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.
- بن منصور (عبد الوهاب)، قبائل المغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1968.
- بن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.
- مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الطبعة الأولى، 2002.

الكتب

- أرنو (لويس)، زمن المحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.

- أسبينيون (روبير)، أعراف قبائل زابان، ترجمة: محمد أوزاغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.
- الإيوري (عمر)، الظاهرة القائدية: القائد العيادي الرحامي نموذجاً، دار بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى، 2000.
- الباز (محمد الأمين)، تاريخ الأوبنة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، الرباط، الطبعة الأولى، 1992.
- التوزاني المراح (نعيم)، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، مطبعة فضالة المحمدية، الطبعة الأولى، 1979.
- التوفيق (أحمد)، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (1850-1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم: 63، الطبعة الثالثة، 2009.
- الحطيطي (عبد الكبير)، النقد المزدوج، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.
- المداي (المهدي المبروك)، قبائل البرابيش، سلسلة من تاريخ القبائل الإفريقية، رقم 1، مكتبة طرابلس العلمية والعالمية، طرابلس، الطبعة الأولى، 2004.
- السبي (عبد الأحد)، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009.
- الشابي (مصطفى)، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 26، الرباط، الطبعة الأولى، 1995.
- الصديقي (عبد الوفاق)، الرحامة وعلاقتهم بالخرن: 1850-1900، بابل للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1997.
- العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2009.
- العطري (عبد الرحيم)، تحولات المغرب القروي، منشورات دفاطر الحرف، الرباط، الطبعة الثانية، 2012.
- العطري (عبد الرحيم)، دفاعا عن السوسولوجيا، دار بابل للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2000.
- العطري (عبد الرحيم)، صناعة النخبة بالمغرب، منشورات رجة نظر، الرباط، الطبعة الثانية، 2007.
- العلوي (زين العابدين)، المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، الجزء الأول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2007.
- القبلي (محمد)، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.
- المنصور (محمد)، المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والعين 1792-1822، ترجمة: محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.
- المودن (عبد الرحمن)، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إينان بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 25، الرباط، الطبعة الأولى، 1995.

- الناجي (محمد)، التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب (ق 16-19)، ترجمة: عبد الرحيم حزل، منشورات جنور، الرباط، الطبعة الأولى، 2004.
- الحراس (المختار)، القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي، الرباط، الطبعة الأولى، 1988.
- الهرماسي (عبد الباقي)، المجتمع والدولة في المغرب العربي، منشورات دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992.
- الهروي (المهدي)، القبيلة، الإقطاع والمخزن: مقارنة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005.
- إيكلمان (ديل)، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ترجمة: محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991.
- إيكلمان (ديل)، المعرفة والسلطة في المغرب: صورة من حياة مثقف من البادية في القرن العشرين، ترجمة: محمد أعفيف ومصطفى الوجاني، دار النشر ملاباط، طنجة، الطبعة الثانية، 2009.
- بالزراع (عبد الكريم)، أراضي الجموع: محاولة لدراسة بنيتها السياسية والاجتماعية ودورها في التنمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998.
- بن الصغير (خالد)، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856-1886، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثانية، 1997.
- بويريك (رحال)، دراسات صحراوية: المجتمع والسلطة والدين، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الثانية، 2008.
- بورقية (رحمة)، الدولة والسلطة في المجتمع المغربي: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
- بوشعراء (مصطفى)، الاستيطان والحماية بالمغرب، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1984.
- بوشعراء (مصطفى)، علاقة المخزن بأحواز سلا: قبيلة بني حسن 1860-1912، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة دراسات وبحوث، رقم 19، الرباط، الطبعة الأولى، 1996.
- حركات (إبراهيم)، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1994.
- حمودي (عبد الله)، الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2000.
- دحمان (محمد)، البداوة والاستقرار بمنطقة الحسرة ووادي الذهب، مطبعة كوش، الرباط، الطبعة الأولى، 2006.
- دواير (كيفين)، حوارات مغربية: مقارنة نقدية للأنثروبولوجيا، ترجمة: محمد نجمي الروداني ومحمد حبيذ، مراجعة: محمد المنتصور والمختار النواوي، اعتنى بنشره: عمر أفاه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007.

- دوتي (إدموند)، مراكش: قبائل الشاوية وكذلك والرحامنة (1901-1902)، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة الأولى، 2011.
- سيبيلسان (جورج)، آيت عطا الصحراء وتهدة أفلا-ن-دراء، ترجمة وتعليق: محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.
- شروتر (دنبال)، تجار الصويرة: المجتمع الحضري والأميرالية في جنوب غرب المغرب (1844-1886)، ترجمة: خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 1997.
- ششوب (زهير)، الزاوية الكتانية والمخزن، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2010.
- شوقي (الحسن)، بيا عمر: مساهمة في تاريخ الأولياء بنسوات، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى، 2007.
- شوقي (الحسن)، سيدي رجال البدالي: مساهمة في تاريخ الأولياء بالمغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2008.
- عياش (ألبير)، المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة: عبد القادر الشاوي، نور الدين سعودي، مراجعة وتقديم: إدريس بنسعيد، عبد الأحد السبتي، سلسلة معرفة الممارسة، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1985.
- لوفو (ريبي)، الفلاح المغربي المافع عن العرش، ترجمة: محمد بن الشيخ، مراجعة: عبد اللطيف حسي، منشورات وجهة نظر، الرباط، الطبعة الأولى، 2011.
- مجموعة من الباحثين، الأنثروبولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، ترجمة: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2007.
- مجموعة من الباحثين، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 7، الرباط، الطبعة الأولى، 1986.
- مجموعة من الباحثين، البداية المغربية عبر التاريخ، تنسيق: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 77، الرباط، الطبعة الأولى، 1999.
- مجموعة من الباحثين، التحولات الاجتماعية والثقافية في البيئات المغربية، تنسيق: المختار المهراس، إدريس بنسعيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 102، الرباط، الطبعة الأولى، 2002.
- مجموعة من الباحثين، الرحامنة: التاريخ، الثقافة، البيئة، منشورات جمعية أنفاس، بن جبر، الطبعة الأولى، 2002.
- مجموعة من الباحثين، الزوايا في المغرب، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.
- مجموعة من الباحثين، السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 164، الطبعة الأولى، 2010.

- مجموعة من الباحثين، السلوك الانتخابي بالمغرب، تنسيق: عبد الرحيم العطري و منتصر حمادة منشورات الشروق، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.
 - مجموعة من الباحثين، العلاقات بين البوادي والمدن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومنافرات، رقم 10، الرباط، الطبعة الأولى، 1988.
 - مجموعة من الباحثين، تقرير الحالة الدينية في المغرب 2007-2008، منشورات المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.
 - موليراس (أوجيست)، المغرب المجهول، الجزء الأول: اكتشاف الريف، ترجمة: عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز، 2007.
 - هارت (دافيد مونتغمري)، أيت ورياغل: قبيلة من الريف المغربي (دراسة إثنوغرافية وتاريخية)، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أنينا، عبد الحميد عزوزي، عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطية المغربية في هولندا، الطبعة الأولى، 2005.
 - وإيسجيري (فرديك)، على عتبة المغرب الحديث، ترجمة: عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2011.
- الأطروحات والرسائل**
- الإيوري (عمر)، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجاً، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية: 2006/2007.
 - الصديقي (عبد الرزاق)، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الموسم الجامعي: 1988-1989.
- المجلات والدوريات**
- الحديدي (علال)، التزايل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر، مجلة هسرس نمودا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد، السنة 1993.
 - الخطيب (عبد الكبير)، تحليل السوسيولوجيا من النزعة الاستعمارية، ترجمة: زبيدة بوجيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاعتماد، العدد 7، 1984.
 - الشوئي (محمد)، مساهمة في ندوة "لماذا القرن التاسع عشر"، مجلة المشروع، العدد 9، سنة 1988.
 - المراس (المختار)، ملاحظات حول التقليد والتغير في المجتمعات العربية، مجلة الوحدة، السنة الخامسة، الرباط، العدد 57، يونيو 1989.
 - المراس (المختار)، ملاحظات واستنتاجات حول تطور النظام القبلي في جباله، مجلة المشروع، العدد السادس، 1986، ص. 86.

- باسكون (بول)، الفترات الكبرى للقائدية، تعريب: زبيدة بورجيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد الخامس والسادس، 1981.
- باسكون (بول)، ما الغاية من علم الاجتماع القروي؟ ترجمة: مصطفى الحستاوي، مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، أكتوبر 1986، الطبعة الثالثة.
- باسكون (بول)، نمو الرأسمالية في عهد الحماية في حوز مراكش، تعريب: زبيدة بورجيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد الرابع، 1978.
- بودريال (نجم)، من أجل رؤية هادئة للاستعمار، ترجمة: محمد شقرون، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد 7، 1984.
- بورقية (رحمة)، العرف، العلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد السابع، 1984.
- حلیم (عبد الجليل)، التدخل الاستعماري والحركة الاجتماعية، مجلة الوحدة، العدد 57، السنة الخامسة، يونيو 1989، الرباط.
- حلیم (عبد الجليل)، المجال والمعتقد كوسيلتين لقراءة التغير الاجتماعي، دفاثر مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، العدد الأول، دجنبر 1997، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس.

الوثائق والخبرائ

- أفا (عمر)، دليل الرسائل والأطروحات (1964-2004)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- دليل الرسائل والأطروحات (1964-2007)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- جريدة المساء بتاريخ 28 أبريل 2009.
- جريدة المساء بتاريخ 5 يونيو 2009.
- الموقع الإلكتروني لوكالة المغرب العربي للأنباء
- الموقع الإلكتروني للمندوبية السامية للتخطيط
- مونوغرافية إقليم قلعة السراغنة
- مونوغرافية إقليم الرحامنة 2010
- مونوغرافية جماعة لمحة 2009
- إحصائيات المديرية الإقليمية للفلاحة
- نتائج الإحصاء الوطني للسكان والسكنى، 2004.

Ouvrages:

- Adam (André), Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie et de géographies humaines au Maroc, CNRS/SNED.1972.
- Ayache (Gernane), Etudes d'histoire marocaine, SMER, Rabat 1983.
- Ayache (Gernane), La fonction d'arbitrage du Makhzen , In Recherches récentes sur le Maroc moderne ,Bulletin économique et social du Maroc, 1978.
- Berque (Jacques), Les structures sociales du Haut Atlas, puf.Paris.1955.
- Berque (Jacques), Ulémas, fondateurs, insurges du Maghreb, Editions Sindibad, Paris.1982.
- Berque (Jacques), Maghreb: histoire et société, SNED, Alger.1974.
- Bourdieu (Pierre), Réponses: pour une anthropologie réflexive, Seuil. paris.1992.
- Cherifi (Rachida), Le Makhzen politique au Maroc, Afrique orient, Casablanca, 1988.
- Claisse (Alain), Le Makhzen aujourd'hui, In: Coll. Le Maroc actuel: une modernisation au miroir de la tradition, études réunies par Jean-Claude Santucci, Edition CNRS, Paris, 1992.
- Durkheim (Emile), Les Règles de la méthode sociologique, PUF, Paris, 1977.
- Doute (Edmode), Marrakech, pub du comit édu Maroc, Paris.1905.
- Dermenghem (Emile), Le culte des saints dans l'islam Maghrébin, Editions Gallimard, Paris.1954.
- Drague (Georges), Esquisse histoire religieuse au Maroc: confréries et zaouïas. Editions Pyronnet. Paris .1951.
- Jadda (M'hamed), Bibliographie analytique des publications de l'institut des hautes études marocaines, FLSH Rabat, serie These et memoires.N.26.1994.
- Jamous (Raymond), Honneur et baraka: les structures sociales traditionnelles dans le rif, édition de la maison des sciences de l'homme, Paris.1981.
- Geertz (Clifford), The Interpretation of Cultures, New York: Basic Books.197.
- Geertz (Clifford), Le souk de Sefrou: Sur l'économie du bazar. trad. et présenté par Daniel Cefai. Paris, Bouchène, 2003.
- Gellner (Ernest), Saints of Atlas, London, Weinfeld and Nicolson.1969.
- Pascon (Paul), Le Haouz de Marrakech, CURS, INAV, Rabat et CNRS, Paris, 1977.
- Pascon (Paul) et Autres, La maison Igh et l'histoire social de Tazerwalt, SMER, Rabat.1984.
- Pascon (Paul), Etudes rurales: Idées et enquêtes sur la campagne Marocaine, SMER, Rabat, 1980.
- Pascon (Paul)et Mohammed Ennaji, Les paysans sans terres au Maroc, Les éditions Toubkal, Casablanca.1986.
- Laroui (Abdellah), les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, Maspero, Paris.1977.
- Le Coz (Jean), Le Gharb: fellahs et colons, T.I. 1964.
- Lempriere (W), Voyage dans l'empire du Maroc, paris, 1801.

- **Leveau (Remy)**, Le fellah Marocain défenseur du Trône, Editions presse de la fondation nationale des sciences politiques, Paris.1976.
- **Maxwell G**, El Glaoui: Dernier seigneur de L'Atlas (1893-1956), Fayard, Paris, 1968.
- **Montagne (Robert)**, Les berbères et le Makhzen dans le sud Marocain: Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires (groupe Chleuh).Edition Felix Alcan. Paris.1930.
- **Montagne (Robert)**, Naissance du prolétariat marocain, Ed. Peyronnet Paris, 1952.
- **Montagne (Robert)**, Civilisation du désert: Nomades d'orient et d'Afrique, Lib Hachette, Paris 1947.
- **Montagne (Robert)**, Révolution au Maroc éd. France empire.
- **Michaux (Bellaire)**, Villes et tribus du Maroc: Tanger et sa zone, A.M.vol.Paris.1921.
- **Terrasse (Henri)**, Histoire du Maroc: des origines à l'établissement du protectorat français,Ed Atlantide, Casablanca,1949.

Revues et Périodiques:

- **Bellaire (Michaux)**, La Maison d'Ouezzane, dans: Revue du Monde Musulman, Vol V, paris, mai 1908.
- **Bellaire (Michaux)**, Le Gharb, dans: AM, vol, 20. 1930.
- **Bellaire (Michaux)**, Les Tribus arabes de la vallée de Iekkous, dans: Archives berbères, vol v. 1905.
- **Bellaire (Michaux)**, Tentative de restauration Idrisside, Revue du Monde Musulman, 7,1908.
- **Coursimant (Capitaine)**, La "Ttatta", dans: Les Archives Berbères, Vol.2, 1917.
- **Doutte (Edmonde)**, L'organisation domestique et sociale chez les Haha, In: R.C. suppl. A.F.15.1905.
- **Doutte (Edmonde)**, les marocaines et la société marocaine, dans: revue général des sciences pures et appliquées. T. 14. Paris. 1903.
- **Gellner (Ernest)**, Comment devenir marabout, BESM, n: 128.rabat.1969.
- **Lazarev (Grigori)**, Remarque sur la seigneurie terrienne au Maroc, In: Colloque structures et cultures précapitalistes, Anthropos, paris.1981.
- **Lazarev (Grigori)**, Changement social et développement dans les campagnes marocaines, In: BESM, N:109, 1968.
- **Lazarev (Gregory)**, Les concessions Foncières au Maroc, dans: Annales Marocaines de Sociologie,1968.
- **Le Coz (Jean)**, Douar et centre rural: du campement au bourg, Revue de géographie du Maroc, N: 8, 1965.
- **Montagne (Robert)**, Le régime juridique des Tribus du sud Marocain, In Hesperis. T.IV.1924.
- **Montagne (Robert)**, Le développement du pouvoir des caïds de Tagondaft, IHM, Pais.1928.
- **Pascon (Paul)**, Désuétude de la jmaa dans la Haouz de Marrakech, BESM. N: 155-156, janvier 1986

- **Pascon (Paul)**, Segmentation et stratification rurale Marocaine, In: Actes de Durban, Pub: BESM.1978.
- des élites politiques au Maroc. AAN. Paris. CNRS,1968.

Thèses:

- **Halim (Abdejalil)**, L'iqtaà et L'appropriation de la Terre au Maroc. le statut de la terre et des hommes dans le Gharb du 19 siècle, Thèse DES, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1978.

Documents:

- Pauvreté, développement humain et développement social au Maroc: Données cartographiques et statistiques, Haut Commissariat au Plan, Rabat, 2005.
- Monographie du province Kelaa Seraghna
- Diagnostic Territorial Participatif des communes du province de Rhamena, ADS, INDH, DGCL. 2009.

صدر للمؤلف

- دفاعا عن السوسيولوجيا، دار بابل، الرباط، 2000
- سوسيولوجيا الشباب المغربي، دار طوب بريس، الرباط، 2004
- المؤسسة العقائدية بالمغرب، دار الكتاب، بيروت، 2005
- صناعة النخبة بالمغرب، منشورات دفاتر وجهة نظر، الرباط، 2006 (ثلاث طبعات)
- الحركات الاحتجاجية بالمغرب، منشورات دفاتر وجهة نظر، الرباط، 2008 (طبعتان)
- تحولات المغرب القروي، دفاتر الحرف والسؤال، سلا، 2009 (طبعتان)
- الليل العاري، مجموعة قصصية، دفاتر الحرف والسؤال، سلا، 2006
- القارة السابعة، دار عراقي للنشر، القاهرة، 2008

في الطريق إلى النشر

- أنطولوجيا السوسيولوجيا المغربية (في جزأين)
- صلحاء مدينة سلا
- سوسيولوجيا الأعيان

للاتصال

- العنوان البريدي: ص ب 9625 مركز بريد حي الأمل، طريق القنيطرة، مدينة سلا، الرمز البريدي 11360.
- البريد الإلكتروني: aelatri@yahoo.fr

إن استدعاء ثلاثية "القبيلة، المخزن، الزاوية" له ما يبرره عمليا وموضوعيا، ففهم وتفهم الكثير من الديناميات والأساسيات التي تحدد ملامح المجتمع المغربي، يظل محدودا بدون تتبع هذه المكونات، كما أن التمكن، أو على الأقل، الاقتراب من تطورات المغرب الراهن يكون متعذرا أحيانا بدون الرجوع إلى مغرب القرن التاسع عشر، الذي كانت ثلاثية "القبيلة والمخزن والزاوية" مساهمة إلى حد كبير في تدبيره وإنتاجه وإعادة إنتاجه.

إن العودة إلى التاريخ، لتتبع وقراءة اشتغال النسق القبلي الرحماني، لن يكون مسكونا بهاجس تأريخي يبحث عن شواهد معينة لتبرير وقائع أخرى، بل إنه عمل يراد منه استدعاء المسار القبلي في تفاعل مع مؤسسات أخرى كان لها الدور البارز في صياغة العلاقات الداخلية والخارجية لذات النسق.